

# تربيع المراتب والأصول

نتاج أفكار الفحول من أرباب الوصول



مخطوط نادر لقطب زمانه

الشيخ إبراهيم البثوي



يقدمه إلى الأمة الإسلامية العصرية

فضيلة الدكتور حسن عباس زكي



تحقيق

فريجة الشراوي



# **تربيع المراتب والأصول**

نتاج أفكار الفحول من أرباب الأصول

مخطوط نادر لقطب زمانه

**الشيخ إبراهيم البثنوي**

يقدمه للأمة الإسلامية العصرية

**فضيلة الدكتور حسن عباس زكي**

تحقيق

**خديجة النبراوي**

**مركز الكتاب للنشر**

# جمعية الحقوق محفوظة لمركز الكتاب للنشر

الطبعة الأولى  
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

رقم الإيداع: ٧٩٣٥/٢٠٠٠  
الترقيم الدولي: 9-189-294-977

يطلب من مركز الكتاب للنشر

---

مصر الجديدة ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة

ت: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٣٥٠

مدينة نصر ٧١ شارع ابن النفيس - المدينة السادسة ت: ٢٧٢٣٣٩٨

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾

[الحجر: ٢١]

صدق الله العظيم .. وصدق رسوله الأمين ﷺ الذى بلغ عن رب العزة مراد الحق من الخلق، ففاضت قلوب بقدرها وأنوارها، فترجمت الأقلام تلك الفيوضات الربانية كلمات نورانية، يفوح أريجها عبر العصور والأزمان تبوح بقبس من أسرار عظمة الواحد الديان.

**خديجة النبراوى**



## تعريف وتقدير

### لأستاذنا القدير: فضيلة الدكتور حسن عباس زكى

يهمنا قبل أن نشرع فى التعرف على محتويات الكتاب، أن نتعرف على صاحب الفضل فى تعريفنا بذلك المخطوط القيم؛ لأن الدال على الخير كفاعله... ومما لا شك فيه أن هذا التعريف أمر عسير فمن الصعوبة بمكان التحدث عن إنسان تعلق قلبه بعرش الرحمن، وحلقت روحه مع خير الأنام، وسبح فى عالم من الأنوار، حيث السكينة والاطمئنان.

حقاً! إن من يحاول التعرف على ذلك الولي التقى، العالم المؤمن العارف بالله، أستاذنا فضيلة الدكتور حسن عباس زكى، يكون كمن ارتفع إلى سماء علياء، وحاول أن يصف ما بها من مجرات، فيجد نفسه تائهاً فى مسافات شاسعة، وأحجام هائلة، فيرتد إليه البصر وهو حسير؛ لأنه إنسان اجتمع فيه من الكمالات ما يعجز القلم عن تسجيله. وكيف يمكن لقلم عاجز أن يقتحم تلك الأسرار العالية التى يفيض بها المولى عز وجل على أوليائه، الذين عرفوه حق المعرفة، فجابههم من لدته فضلاً كبيراً، وعطاءً عظيماً.

فإذا حاولنا تعريف أستاذنا الفاضل د. حسن عباس زكى فى كلمات موجزات تعتبر مؤشرات على كنوز ذلك العطاء الربانى... فإننا نقول:

• إنه الولي التقى الذى سعى سعيًا حثيثًا لمعرفة ربه، فأدخله الله فى رحاب قربه، وسقاه من بحار حبه، وأثار قلبه بنور قدسه، فأصبح يدعو

إلى الله على بصيرة نورانية، تنبع من الأنوار الإلهية... فلم يعد مثل هؤلاء الناس الذين يحسبون أنهم جرم صغير، رغم أن فيهم انطوى العالم الأكبر، بل هو يعلم علم اليقين أن الله جل شأنه قد أودع فيه أسراراً وقدرات وطاقات لا متناهية... ولذلك فهو يتعامل في الحياة من منطلق تلك القوة الربانية. ويوقن بدوره السامى المتمثل فى الخلافة الإلهية، ويصدق عليه قول القائل: «وائق الخطوة يمشى ملكاً»... فهو وإن لم يكن ملكاً متوجاً على العروش الدنيوية، فهو ملك متوج على عروش القلوب الإيمانية، التى هى مرآة لانعكاس التجليات النورانية.

• وهو المسلم المؤمن الذى ورث فى عصره وزمانه القسط الأوفى من الوراثة المحمدية، فصار فريداً فى تواضعه لله، فريداً فى عزة نفسه ورفعة أخلاقه، فريداً فى استيعابه للعلوم فى شتى المعارف والميادين، فريداً فى إرادته وتنظيمه لكل أمور الحياة، فريداً فى التمكين فى الأرض واستنباط أسرارها... وكل هذا يتم فى إطار من البساطة المتسامية، التى لا توحى بما تحتها من أمواج وكنوز هائلة، تخويها نفسه الطاهرة، وروحه التى تنطلق فى آفاقها، وجسده معنا يتجاوب مع استفساراتنا وكأنه يعايش مشكلاتنا.. وتلك هى العظمة فى أسمى صورها.

• وهو المضيف الكريم الذى يعرف للضيافة حقها، ويقدرها حق قدرها.. فمن جاءه يريد الدنيا ويسعى لها سعيها، فهو يهين له من أسبابها بما أفاض الله به عليه، حتى تفر عين الضيف، ويظن أنه الوحيد المقرب لدى صاحب الدار، نظراً لما أحاطه به من حفاوة وترحيب وتكريم، يتساوى فى ذلك الغنى والفقير، وصاحب المقام البسيط أو الرفيع.

أما من أراد الآخرة، وسعى لها سعيها، ووجد أستاذنا الفاضل، بفراسته النيرة، أنه يصلح لسلوك الطريق إلى معرفة المولى عز وجل، ويمكنه أن يرتشف من مشارب القوم، فإنه يأخذ بيده بكل الرفق

والحنان، بما أفاض الله سبحانه وتعالى عليه من أنوار، ويعرج به على طريق معرفة الرحمن، مرشدًا إياه إلى عثرات ومزالق الطريق، ومحذرًا له من الأهواء والشهوات ووساوس الشيطان، وذلك حتى يستنشق عبير الروح والريحان، ويستشعر القرب من الحنَّان المَنَّان.

وهكذا بفضل من الله وحمده، يجد كل من قصده: مراده ومبتغاه، وكل في الهوى قد غنى بليلاه.

• وهو الشيخ المربي بحق، حيث وهبه الله فُرَاسة تستنير بنور الحق جلَّ جلاله، فيعرف بعمق الأبعاد الروحية للشخصية التي أمامه، ويعرف الأبعاد والعوائق التي تعترضها وتردها عن السبيل القويم.. لذلك تختلف تربيته لمريدي الطريق حسب الشخصية الإنسانية التي يعالجها، فكلماته رغم بساطتها الظاهرية لها وقع كوقع السهام، بل أشد وطأة؛ لأن السهام تصيب أبعاد الجسد أما كلماته فتصيب أعماق أعمق القلب والروح، فتعتبر كمشروط الجراح الذى يبحث موضع الداء، ويقتلعه من مكانه.

وكذلك نظراته... فهي لا تقل في تأثيرها عن كلماته، بل قد تكون أسرع نفاذًا في مفعولها من الكلمات، حيث يكون لها مجالها في التربية الروحية، فلا تكتمل إلا بها. فهي نظرات تحمل أشعة نورانية، تشبه أشعة الليزر في إجراء العمليات الجراحية... وهو بهذه المواهب الربانية التى وهبها الله إياه، يجمع بين أصول التربية الحققة، وهى التزغيب والتزهييب.. فأحياناً يشعر المريد كأنه قاب قوسين أو أدنى من قلبه، وأحياناً أخرى يشعر بالرهبة المشددة التى تجعله كالنملة التى تندحرج على سفح قمة هذا الشيخ العملاق، وفى كلتا الحالتين فالمريد معلق القلب بشيخه لأنه يستحق عن جدارة كل حب واحترام، حيث يغدق على مريديه كل الحذب والرعاية، النابعة من رحمة المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه وحنانه وشفقته على أمته.



• وهو العارف بالله الذى يحوى من الأسرار، ما يجعل المرء يقف مشدوها أمام عظمة الواحد القهار، وما يفيض به على أوليائه من أنوار، تبهر أصحاب القلوب المؤمنة والبصائر النيرة، فهو خبير بمدارج طريق المعية مع الله، وهو الذى علمنا كيف تكون معارج القلوب، فمن ذاق عرف، وفاقد الشيء لا يعطيه «وكل إناء ينضح بما فيه» كما يقولون، ووعاء قلب أستاذنا العارف بالله د. حسن عباس زكى قد عمر بأنوار اليقين، فأصبح إماماً للمتقين، فهو قد عرج بروحه معراج النبى الأمين، حتى حظى بالقرب من رب العالمين، ثم عاد بعدما حقق مبتغاه، ليأخذ بيد السالكين، ويرشد الحائرين، إرشاد عارف خبير، عرف دروب القلوب، وأهواء النفوس، ومعارج العارفين الواصلين فتمرس على كيفية تجنب تلاميذه مخاطر الطريق، ليرشداهم إلى نور اليقين وصحبة الرسول الحبيب، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين.

• وهو الأستاذ المؤدب: الذى تعلمنا فى صحبته أسمى أنواع الأدب، استرشاداً بسلوكياته وأخلاقه الرفيعة مع الجميع، ومهما كتب البعض عن آداب المرید مع شيخه، فسوف تظل صحبة الأولياء تكتنفها المصاعب والأخطار؛ لأن تلك الصحبة فوق مقدورنا فى توفيتها حقها من الأدب والتبجيل، ولولا ما أودعه الله فى قلب أستاذنا الفاضل من رحمة وشفقة سيدنا محمد ﷺ، لكننا فى عداد الهالكين، حيث أحياناً نتخطى حدود الأدب المفروض ألا تتجاوزها نتيجة تواضع أستاذنا الجم، وبساطته معنا، حتى نظن أنه واحد منا، ولكن سرعان ما نفيق على سياط الأدب الإلهية، التى تعرفنا آداب صحبة الأولياء والتى نتخطاها نتيجة الطباع البشرية التى تطغى علينا نتيجة الألفة والشفقة التى يغمرنا بها أستاذنا الولي التقي، الذى يعلمنا أشرف العلوم وأرفعها قدرًا ومقامًا، وعندما نفيق نعرف جيدًا الفرق بين مقامنا ومقام ولينا فنلزم بقدر الجهد حدودنا، ولكن سرعان ما تطغى علينا طباعنا، وهكذا يظل جهادنا على

طريق معراجنا، الذى يستلزم الأدب مع أستاذنا، حتى نتعلم الأدب مع ربنا.

● وهو العالم المسلم الذى أفنى عمره فى طلب العلوم من جميع مصادرها (الدنية منها والدنيوية) وعمره هذا لا يقاس بالسنوات مثلنا، بل بالساعات والدقائق؛ لأن كل دقيقة من حياته المباركة لها قيمتها، ولها فاعليتها فى الأداء والتحصيل والاستيعاب، من أجل هذا استحق أن يكون عالماً جديراً بعلمه، ووليّاً ينال من الخطوة الإلهية والأنوار المحمدية، ما تنقطع له أكباد المؤمنين شوقاً إلى تلك الفيوضات الربانية، والنعم والعطاءات العلوية، فإذا تكلم فهو جدير أن ينصت الجميع إليه، وإذا تنازعت الآراء فى قضية ما، فعنده القول الفصل، فهو الخبير الذى لا يُبَارَى فى ميدان العلوم، وله السبق إذا تنافس المتنافسون.

● وهو الباحث عن كنوز الحقيقة الذى أظهر لنا علم كثير من الأولياء والعلماء، الذين كان يمكن أن تندثر علومهم، ونحرم من بركاتهم ومددهم، لولا جهود أستاذنا العالم الفاضل د. حسن عباس زكى فى السعى الدءوب بحثاً عن تلك العلوم ونشرها مهما كلفه ذلك من جهد ومال، ولذلك فقد منّ الله عليه بجنس عمله، انطلاقاً من دستور القرآن العظيم: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

فنشر له بعضاً من فيض علمه فى كتب عديدة حازت إعجاب كل من قرأها، واستوعب علومهما، رغم أنه لم يسع إلى ذلك إطلاقاً؛ لأنه لا يحب الظهور، ولكنها العدالة الإلهية التى لا تنقص الناس أجورهم، ولا تحبط أعمالهم، بل تضاعفها لهم، وتزيد من بركاتها، عطاءً مغدقاً يليق بملك الملوك الكريم المتعال.

● وهو موسوعة العلوم التى تفيض بكل علوم العصر المتطورة، فهو خبير اقتصادى تفوق خبرته كل خبراء عصره، وهو الإدارى الجدير

الكفاء، فيكفى أن يحمل أى مشروع اسمه لكى يحقق النجاح المنشود، وهو ذو باع طويل فى ميدان الطب البديل والفلك والفيزياء والروحانيات، وهو قبل هذا وذاك الولي الخبير بمدارج النفوس البشرية، ومعارض القلوب النورانية.

ولذلك فهو باختصار: الفارس الهمام فى كل ميدان، الذى آتاه الله من كنوز العلوم ما ينوء بحمله أولى العصابة من الرجال.

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا هو غيض من فيض مما أثرى به عالمنا الجليل المكتبة الإسلامية المعاصرة، حيث بذل المال والجهد والعمر كله فى جمع مخطوطات المفكرين المسلمين الصالحين الذين كان لهم اليد الطولى فى إعلاء صرح الدين وتذكير أولى البصائر برب العالمين والهدف من بعثة خاتم المرسلين، وصاحب هذا المخطوط هو الشيخ إبراهيم البهنوى عالم جليل من تركيا، كتبه منذ حوالى مائتى عام.

وأستاذنا الفاضل د. حسن عباس زكى يعتبر من المجاهدين العظام فى جمع علوم الدين، حيث لم يخل بالغالى والنفيس فى هذا المجال يدفعه إلى ذلك يقينه العميق بأن العلم النافع هو أساس رقى المسلمين؛ لأنه يكشف الغطاء عن عظمة هذا الدين وكنوز القرآن العظيم الذى أكرمنا به الله على يد نبينا الأمين، فكل علم يصدر عن أولياء الله الصالحين المتقين يعتبر شعاع من نور يبدد ظلمات السائرين، ويخرجهم من ظلمات الجاهلية بأصول الدين إلى نور اليقين، مما يرفع شأن الإسلام والمسلمين.

وهذا الكتاب ينطق بالحق على جهاد شيخنا وأستاذنا فضيلة الدكتور حسن عباس زكى فى الميدان العلمى، الذى هو أشرف الميادين وأقدسها، فالعلم كالدر المنثور، والسر المكنون، الذى لا يقدره حق قدره إلا أهله، فكل كلمة من كلمات ذلك المخطوط النادر تنفذ إلى أعماق أعماق الروح، فتبعث فيها الحياة السرمدية بسر الأنوار الإلهية

وتجعلنا نسجد لله شكراً على ما أودعه فى صدور أوليائه من أسرار،  
تقربنا من جنان الرضوان ونستنشق بها عبير الملوكوت الأعلى والفردوس  
المرتقب، وتنفهم بها كثيراً من الرسالة القرآنية الأزلية الموجهة إلينا.

كما أن كلمات الكتاب تحمل رنين الأجراس الذى يوقظ أرواحنا  
وعقولنا من سباتها، لنعرف عظم الأمانة التى نحملها، وقدسية الأسرار  
التي يحملها القرآن، فنردد بلسان الحال والمقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ  
عَبَثًا وَأَنَّكُمْ لَإِيتَانَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ونقول: حاشا لله ما  
خلقتنا عبثاً، فكل كلمة فى كتابك المقروء وكتابك المنظور تنطق بعظمة  
ألوهيتك، وما حرمتنا الرسل الذين بلغونا رسالتك، واصطفيتنا بنخبر  
رسلك وأنبيائك حبيبك المصطفى ﷺ، ثم أتبعته بأوليائك الصالحين  
المثقين السائرين على درب النبی الأمين، فحملوا مشعل الدين، ليضئ  
الطريق للسالكين إلى رب العالمين، ويبدد ظلمات الحيارى والتائهين،  
فكانت كلماتهم نوراً متجدداً يجمع بين المؤمنين وربهم حتى لا تنفصم  
عرى إيمانهم.

فاللهم لا تحرمنا أجرهم ومددهم، وبارك لنا فى عمر عالمنا الجليل  
د. حسن عباس زكى، ووقفنا إلى استيعاب نصحه والسير على دربه  
حتى لا نحرم مدده، واللهم وفقه إلى مزيد من خدمة علوم الدين حتى  
ترفعه بفضلك وكرمك إلى أعلى عليين.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على البشير  
النذير، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وكل من  
اهتدى بهديه واتبع سنته بإحسان إلى يوم الدين.

آمين .... آمين .... آمين.....

خديجة النبراوى

\* \* \*



## تقديم من محققة الكتاب

### نظرة عامة على المخطوط

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، سبحانك يا من قلت وقولك الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

حقاً يا إلهي! إن القلب ليخشع، وإن القلم ليعجز عن تسطير عظمة ما تودعه في صدور أوليائك من أسرار كلماتك، ومهما طال بنا العمر في طواف حول محراب العلم، ومهما اطلعنا على ما سطره العلماء العاملون، المخلصون المتقون، فسوف يظل دوماً هناك الجديد من كلمات الله التي تنفذ إلى أعماق أعماق الروح فتشع بأنوارها على العقل، فيشعر بالعجز المطلق أمام عظمة القهار، ومراده من العباد، وتردد الألسن، والعقل ما زال في تيه الأنوار:

سبحانك ما عرفناك حق معرفتك، سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، وكيف لا! وقد عشت ما عشت، وطوّفت ما طوّفت بين كلمات الأولياء المحبين، لعلّي أجد ما يطفئ ظمأ شوقي نحو محاولة التعرف على مراد الحق من الخلق، وفي كل مرة أجد الجديد الذي يهز كياني من الأعماق وأشعر معه بجهالتي وضالتي، وعجزى التام أمام أنوار الديان، ومغزى كلماته للأسماء، التي حملها إلينا خاتم المرسلين والأنبياء، في إشعاعات نورانية، تضمنتها المعجزة القرآنية.

### أهمية المخطوط:

إن المخطوط الذي بين أيدينا جدير في فكرته ومغزاه ومرماه، ولا يقدر عليه إلا عالم خبير، جال ما شاء الله له التحوال في رياض العلوم،

وامتص رحيق بواطن الأمور، وأخرجه لنا عسلاً شهياً فيه شفاء لما فى الصدور.

**فكلمة أسرار التزييع:** تعنى أنه حاول جاهداً أن يستجمع من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمظاهر الكونية، والشرائع التعبدية ما يحتوى على أربعة أحرف، أو أربع كلمات، أو أربعة معان. وهذا بلاشك علاوة على أنه جهد كبير، فهو يحتاج إلى فهم عالم قدير، له قدم راسخة فى علوم القرآن والشريعة الغراء، والسنة المحمدية، والعلوم اللدنية سواء المسجلة منها فى كتب الصوفية أو تشع بها القلوب النورانية.

ومن هنا تنبع أهمية المخطوط، فهو نتاج فكر جديد، يعتبر بلورة لجهد كبير بذله الشيخ إبراهيم البشنوى، رضى الله عنه وأرضاه، فى تحصيل المعرفة فى معراجه على طريق الحب الإلهى والنور الربانى الذى تفيض به قلوب العارفين الواصلين، فتترجمه لنا كلمات نورانية تشوق القلوب النقية إلى نفحات المعرفة الإلهية.

### إجمال قبل التفصيل:

ونعرض هنا باختصار ما سوف يعرض بتفصيل من أسرار التزييع، لعل هذا الموجز يلقي بعض الضوء لمن يريد إطلالة سريعة على الكتاب فتشوقه إلى مزيد من التأنى فى استيعاب ما فيه من كنوز المعلومات. ويهمنا بادئ ذى بدء أن نجيب على ذلك السؤال الذى قد يشور فى أذهان الكثيرين وهو:

**لماذا اهتم هذا الشيخ الجليل بأسرار التزييع؟.**

وللرد على هذا السؤال: نقبس الإجابة من كلمات الشيخ نفسها وما ورد من معلومات خلال رحلتنا مع هذا المخطوط المبارك، فنقول:

**إن أصل خلقة الإنسان تقوم على أربعة أركان:**

التراب، والماء، والنار، والهواء.

والأركان الأصلية للإنسان أربعة:

الجسد، القلب، الروح، النفس.

والمراتب المعنوية أربع:

جسمانى، قلبى، روحانى، نفسانى.

والنفوس التى جبل عليها الإنسان أربع:

- نفس نامية، وتسمى النفس النباتية.

- نفس أمارة، وتسمى الروح الحيوانى.

- نفس شيطانية، وتسمى الروح الطبيعى.

- نفس ملائكية، وتسمى الروح الإنسانى.

وقوام الجسم بأربعة:

المرّة السوداء، والمرّة الصفراء، والدم، والبلغم.

حيث: مسكن البيوسة فى المرّة السوداء: التراب.

مسكن الرطوبة فى المرّة الصفراء: الماء.

مسكن الحرارة فى الدم: النار.

مسكن البرودة فى البلغم: الهواء (الروح).

والناس تبعاً لهذا أربعة أصناف: سوداوى - صفراوى - دموى - بلغمى.

الطيور الأربعة التى أمر الله تعالى خليله بذبحها:

تمثل الصفات التى جبلت عليها النفس البشرية وهى:

الطاووس: يمثل العجب.



الغراب: يمثل الحرص.

الديك: يمثل الشهوة.

الحمامة: تمثل حب الدنيا.

وأنواع الغيب أربعة:

١- علم الله تعالى، المسمى بالعناية الأولى.

٢- غيب عالم الأرواح.

٣- عالم التعينات.

٤- عالم الخيال.

والعوالم المتعينة من العلماء أربعة:

١- عالم المثال المطلق.

٢- عالم التهميم.

٣- عالم القلم والروح.

٤- عالم الطبيعة.

ولذلك فمنازل السلوك أربعة:

١- معرفة النفس.

٢- معرفة الأخلاق.

٣- معرفة الدنيا.

٤- معرفة الآخرة.

أوتاد العالم أربعة رجال:

منازلهم على منازل الأربعة الأصلية (الظاهرة والباطنة).

شرقاً، وغرباً، وجنوباً، وشمالاً.

## الأبدال من الرجال أربعون:

والأربعون على أكمل الأعداد من الترييع، حيث تجمع مراتب الأعداد: فهي أربعة أضعاف للرقم عشرة، والعشرة هي جمع: واحد + اثنين + ثلاثة + أربعة.

## ونتيجة هذا الترييع في أصل التكوين:

فقد حفلت الشريعة الإسلامية بالكثير من الأسرار الترييعية، لتهذيب النفس الإنسانية، وتهيتها لمراحل العروج الإيمانية، ونعرض هنا نماذج سريعة لما حفل به المخطوط من تلك الأسرار:

## من أنواع الترييع في الأسماء والكلمات:

• اسم الجلالة «الله»: أربعة أحرف، وكذلك: «محمد، ﷺ».

• بسم الله الرحمن الرحيم «أربعة كلمات».

ومثلها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكلمة التوحيد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

• الأشهر الحرم: أربعة.

• الكعبة: أربعة أوجه وأربعة أركان.

• أيام التشريق أربعة، وهي المقصودة بقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

من نماذج الترييع في آيات القرآن الكريم:

﴿وَأَذِّنْ لِلْعَذَابِ وَأَعِدْنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَجْرًا لَّيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١].

﴿فَتَحَذَّ أَرْبَعَةً مِنَ الْقُلُوبِ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْثَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾

[البقرة: ٢٧٤].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ ءُؤْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَٰئِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا﴾ [مريم: ٥٨].

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنذِرَ﴾ [فصلت: ١٠].

﴿فَيَسْجُدُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢].

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ١٣].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[الأنعام: ١٦٢].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

﴿وَلِيَّ لَقَفَارٍ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا ءَٰصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٥].

﴿مَا يَكُوثُ مِنْ نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَٰعِيَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّبْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَفَّنَا بِهِ الْأَرْضُ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ وَلَكِنَّ ءَانَفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

## من نماذج التربع في أقوال المصطفى الأمين والتابعين:

- أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: «إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

- أربع حق على الله تعالى عونهم: الغازي، والمتزوج، والمكاتب، والحاج.

- أربع دعوات لا ترد: دعوة الحاج حتى يرجع، ودعوة الغازي حتى يصدر ودعوة المريض حتى يبرأ، ودعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب.

- أربع من كن فيه نشر الله عليه رحمته، وأدخله جنته: من آوى مسكيناً، ورحم الصغير، ورفق بالملوك، وأنفق على الوالدين.

- أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة: لسان ذاك، وقلب شاكر، وبدن على البلاء صابر، وزوجة لا تبغيه في نفسها ولا في مال زوجها.

- أربع أنزلت من كنز العرش: أم الكتاب، وآية الكرسي، وخواتيم البقرة، والكوثر.

- أربع حق على الله تعالى أن لا يدخلهم الجنة، ولا يذيقهم نعيمها: مدمن خمر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم بغير حق، والعاق لوالديه.

- أربعة من كنز الجنة: إخفاء الصدقة، وكتمان المصيبة، وصلة الرحم، وقول: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

- أربعة تزيد في العقل: ترك الفضول من الكلام، والسواك، ومجالسة العلماء، ومجالسة الصالحين.

- أصول الدين أربعة: الكتاب، والسنة، والقياس، وإجماع الأمة والعزيمة بها.

- العبادات أربع: فرض، وواجب، وسنة، ونفل.

- مراتب العلم أربع: معنوية، روحانية، صورية مثالية، مركبة مادية.

- من أعطى أربعة لم يمنع أربعة: من أعطى الشكر لم يمنع المزيد، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخير، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب.

من أسرار التزييع فى العبادات:

- أركان الصلاة أربعة: القيام، الركوع، السجود، التشهد.

- (شروط) اكتمال الصلاة أربعة: حضور بالنفس، خضوع بالأركان، (الجد)، شهود بالقلب، خشوع بالروح.

- غراس الجنة أربعة: سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر.

- فرائض العمرة أربع: الإحرام، الطواف، السعى، الحلق.

مراتب أرباب الإحرام أربع: المفرد بالحج، القارن بينهما، المفرد بالعمرة، المتمتع.

- أركان الكعبة أربعة:

الحجر الأسود: ركن الخاطر الإلهى.

الركن اليمانى: ركن الخاطر الملكى.

الركن الشامى: ركن الخاطر النفسى.

الركن العراقى: ركن الخاطر الشيطانى.

- مراتب السجود أربعة:

• سجود الانقياد والطاعة والإخلاص.

• سجود الفناء فى الأفعال فلا يرى مؤثراً غير الله، ولا يرى أثراً من

نفسه.

• سجود الفناء فى الصفات.

• سجود الفناء فى الذات.

- الأبواب أربعة:

• أبواب النعمة فتحت للغافلين للاستدراج والإمهال.

• أبواب السماء على قوم نوح بالطوفان.

• أبواب النار فتحت على الكفار للعقوبة والنكال.

• أبواب الجنان على المؤمنين للفضل والأفضال.

- القلوب أربعة:

• قلب قاس للكفار والمنافقين.

• قلب ناس وهو قلب المسلم واطمئنانه بالتوبة.

• قلب مشتاق وهو قلب المؤمن المطيع، فاطمئنانه بذكر الله.

• قلب وجدانى وهو قلب الأنبياء.

وبعد هذا العرض السريع لأنواع التزييع يمكننا القول بكل اليقين:

إن هذا الكتاب يعتبر بحق إضافة جديدة لمجال الفكر الإيمانى، لفهم حقائق الدين وعظمة القرآن الكريم بأسلوب نورانى بديع.

وقد عرض لنا حصاد جولات فى رياض الحقيقة، وما اقتطف من جواهرها اللامعة وثمارها اليانعة، ما يبهر أصحاب القلوب النيرة، وذلك فى أربعة أجزاء:

- فبدأ بسر التزييع فى آيات القرآن العظيم، وهذا بلا شك يحتاج سباح قدير، يعرف كيف يغوص فى كلمات الله السرمدية، ويغترف ما شاءت له العناية الإلهية من علوم لدنية وأسرار ربانية.

- ثم انتقل إلى سر التزييع فى مراتب التوحيد، وما يتعلق بالحرم المكى وشمائل النبى ﷺ، وذلك ليكشف لنا بعض الأسرار التى يودعها

الله فى قلوب عباده الأبرار، فيزجوا لنا الستار عن قيس من مراد الواحد القهار.

- أما الترييع الواقع فى كتب الصوفية: فهو جولة رائعة مع معارج القلوب المؤمنة، ومشاربهم المتنوعة، لنهل من معارفهم السامية.

- والجزء الرابع فى أسرار الترييع فى العبادات والآداب، لفهم كيف أن الأوامر والنواهي تشتمل على أربع مراتب تمثل عروج القلب على طريق الحق.

- وختمها بخاتمة فى بيان مراتب العلم والعلماء، وكيف يدخل الغرور فى أعمال هؤلاء، ومن يقرأ ذلك يوقن بقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَا مَنَاقِيَ اللَّهِ يَقْلِبَ سَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٨٩]. فلا يهم كثير العمل مع قلب يمتلى باطنه بالأمراض المعنوية التى تتنافى مع صدق الإيمان.

**ولذلك فهذا الكتاب:** يعتبر نوراً يزيل الغشاوة من على بصائرنا، لتفهم ونعى مراد الحق من الخلق، ويعتبر منارة ترشد السالكين، وتبدد ظلمات الطريق، ويعتبر أجراً توقظ الغافلين، وتنبههم إلى عظم الرسالة الإيمانية التى يحملونها على عاتقهم، بعد ما جاءتهم من رب العالمين على لسان نبي أمين، والكتاب يقول لنا: إن هذا القرآن يحوى من الحقائق الساطعة، والأدوية النافعة الشافية، ما لا يمكن حصره أو حتى استيعاب كل حقائقه، فهو كلام الله الذى لا تنفذ خزائنه مهما اغترف الأولياء وسلكوا طريق البيان.

ولذلك هناك قاعدة شائعة فى طريق الصوفية وهى: «على المرء إما أن يتعلم وإما أن يسلم».

وفى الحقيقة فإن هذا الكتاب يقودنا إلى الطريقتين معاً فى نفس

الوقت، فنحن نتعلم قيساً من الأسرار الإلهية، ومع هذا نتعلم نصل إلى مرحلة العجز والتسليم أمام العظمة الإلهية في قدراتها اللامتناهية، وحكمتها السرمدية، وعنايتها بالنفس البشرية، وما يحويه القرآن من كنوز نورانية، وإلهامات روحانية، قامت على أساسها فيوضات الشريعة الإسلامية.

وليس أماننا ما نواسى به أنفسنا أمام هذا العجز المطلق إلا أن نردد قول الصديق، رضى الله عنه وأرضاه: «العجز عن درك الإدراك إدراك».

فاللهم لا تجعلنا أحيب خلقك في فهم أسرار كلماتك. ووقفنا إلى فهم بعض ما خفى عنا من أسرار قرآنك، وأكرم كل من سلك هذا الطريق من أوليائك لكشف مرادك من عبادك، فنحن في أشد الاحتياج إلى كل من يدلى بدلوه في بحار حبك، ويرتشف من رحيق علمك اللدني الواسع، ثم يترجمه لنا قطرات من العسل الشهى الذى فيه شفاء لما فى الصدور، وتشويقاً إلى علام الغيوب فهذا فيه طمأنينتنا وسكينتنا وأمن القلوب وسعادتها.

وصدق الحق جل شأنه إذ يقول: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].







## تمهيد

لمؤلف المخطوط، قطب زمانه وفقيه عصره وأوانه

الشيخ إبراهيم البثنوى

حمداً لله وشكراً لعظمته:

الحمد لله الملهم بالصواب، الفتاح الكريم الوهاب، الذى أنطق العوالم ورتب الأسباب، وأوجد الإنسان وفضله وميزه من بين أجناس المخلوقات والموجودات بالعقل والفهم والآداب، وعلمه وعرقه مراتب الأسماء وأسرار المكنونات، وزينه بأنواع الكرامات من الخيرات والحسنات فى عالم السفليات والعلويات، كما جاء فى الحديث القدسى الخفى العرفانى، ليستدل بها العباد على فردانيته ووحدانيته على ما أفهمه وأهمه من الفيض الجودى الوحدانى المطلق فى التعددات والتعينات؛ لأن العلم بالأسماء والصفات لا يحصل إلا بالمراتب، وكذلك الفهم والتفهم لا يتحقق إلا بالمدارج، ولا وصول إليها إلا بالمعارج.

ونشكره ربنا على ما أكرمنا بإفاضة سيجال العوارف الروحانية، وإسباغ ظلال العواطف الرحمانية، فهو المعين الذى جذب أرواحنا من غيابة جب الحيوانية، وأمرنا بالترقى والسعى من حضيض النفسانية إلى ذروة كمال الروحانية، لنسعى فى درك عمى القلب لكسب مراتب الإنسانية، كما قال سبحانه وتعالى فى محكم كتابه، إشارة إلى الترقى بالمراتب: ﴿وَلِئَلَّا لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ وَيَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أُمْتَدَّتْ﴾ [طه: ٨٢].  
الصلوات على سيد الكائنات وعلى آله وصحبه وأتباعه الأبرار:

وأكمل الصلوات وأزكى التحيات على سيدنا وسندنا محمد الذى أنزل عليه القرآن على وجوه من البلاغة والإعجاز، والمراتب والإيجاز، وعلى آله وصحبه الذين كانوا أرباب هذا الشأن، وفرسان الكلام، قد خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص أحد من الأمم غيرهم، وأوتوا من

دراية اللسان ما لم يؤت إنسان، فهم ذوى البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، خصوصاً منهم:

الصديق الأكبر الأفخم المصدق بالحجة البالغة، والقوة الدامغة المسمى بالعتيق أبى بكر الصديق، رضى الله عنهم، وكذلك الفاروق الغيور الكرار، رئيس حبل الأبرار، حبيب الستار، ذى الغيرة الباهرة، بالحجة القاهرة، أمير المؤمنين عمر الفاروق، رضى الله عنهم، وذى النورين إمام الحرمين حبيب الرحمن، الموصوف بالحياء والإيمان، أمير المؤمنين عثمان ابن عفان، رضى الله عنه، ووارث العلوم، النبوى ستر الله فى العالم العلوى والسفلى، كاشف العلم المدنى، ذى الدرجة العلية، والأخلاق السنية، فاتح مفاتيح الغوامض فى الحكم والدقائق، أمير المؤمنين على الرضى السخى الموفى، رضى الله عنه، وكرم الله وجهه.

وعلى جميع الآل والأصحاب والأزواج والأحباب، الذين أوصافهم أجمل من بريق اللآلى، فنجدهم عون الألباب، ميز للون الصعاب، فالبلاغة من جملة علومهم، قد حددوا فنونها، واستنبطوا عيونها، ودخلوا بالمراتب والدرجات فى كل باب من فنون أبوابها، وعلوا صرحاً لبلوغ أسبابها، وهم الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وبارك وسلم: «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»<sup>(١)</sup>، رضوان الله عليهم أجمعين، اللهم ارزقنا التبعية إلى مناهج أصولهم وإلى مراتب فهمهم فى معارفهم وعلومهم، آمين بحرمة خاتم الأنبياء والمرسلين.

وبعد.....

### المقصود من المخطوط:

لما وقف العبد الفقير بإذن الله الملك القدير (جل شأنه وبهر على

(١) فى تلخيص الحبير لابن حجر ج٤، ص ١٩٠، قال ابن حزم: خير مكذوب وموضوع وباطل، وقال البزار: هذا الكلام لا يصح عن النبى ﷺ.

العالمين سلطانه وبركاته) على أسرار مراتب التزييع وحقائقه، وعلى أسرار كتابه العزيز ودقائقه، عزمت بالتوجه التام فى الإظهار والإبراز قدر ما يمكن إبرازه، على ما وجدت فى كتب القوم كتفسير نجم الداية، وتفسير إمام قاشانى وقشيرى، وفى كتب الشيخ وكتب الصدر القونوى وسلطان العشاق عمر بن الفارض، وكنز الأسرار، وكشف الأستار، وأصول الحكم لوالدنا المرحوم، وفى كتب غيرهم من العلماء، من علماء وأهل السنة والجماعة (على وجه ألف) بل ومطابقاً وموافقاً لكتاب الله جل شأنه؛ لأن كل كتاب وكلام لم يطابق كلام الله فهو زندقة وإلحاد، كما سيحى بيانه.

وكتبت هذه القواعد لوجه الله راجياً أن يكون فى طبابها معاشر الإخوان الإلهيين خاصة، ولسائر الطالبين من المؤمنين عامة، خصوصاً لولدى سعد الدين أحمد (لا زال فى الدنيا والآخرة مسروراً، وبين الأولياء مودوداً ومبروراً، عامله الله بلطفه فى الدارين، بحرمة رسول الثقلين) فإن هؤلاء أليق بالمخاطبات بتلك الأسرار.

ثم حرك باطنى إظهار نبذ من أنواع المراتب فى التزييع، والإشارات إلى سائر المراتب فى التثليث والتخميس على وجه التفريع، يمكن حفظه، وعلى غمط يمكن ضبطه، لا على إيجاز غير مؤلم وإعجاز غير مُفهم، وعلى أسلوب يمكن تحصيل أصولها، ووصولها بحقائقها ودقائقها ومجازها بغير تعب ومشقة، يفهم كل من كان له طلاقة اللسان فى حد الإمكان؛ ولأن كل من ينظر إلى كتابنا هذا بالإنصاف، يطلق ما كتبت له فيه من مراتب الأسرار، وما كشفت له فيه من مغاليق كثيرة من كتب المشايخ، من الأحياء والأبرار.

ونرجو من الناظر فى كتابنا هذا أن يستز ما وقع من كثرة النسيان من طغيان القلم بذيل العفو، فالمأمول من أهل الإحسان ستر الخطأ والنقصان؛ لأن الإنسان معروف بالنسيان، وأن يتوجه ويطالع بخلوص

تام، لا على وجه التعذر والإلزام، مترقباً متعرضاً لما فتح له من نفحات الرحمن، ليمنح بذلك التوجه فتحاً جديداً، وليفتح عليه من خزائن الغيب أبواباً عديدة، فالإحسان من الله بعباده لقريب، وليس بروزه ببعيد، والله على كل شيء شهيد.

### المنهج المتبع في تأليف الكتاب:

بعد أن استخرت الله ورسوله: فلإني قد أعرضت في التأليف عن الإطالة في باب الإشارة، سائلاً المولى الوهاب أن يجعل كتابي هذا مقبولاً عند الأحباب ومحفوظاً من النقص والشرك والطغيان، والخطأ الضار والزلل والنقصان إنه ولي العفو والغفران.

وكتبت على وجه الاختصار من التأويل، خوفاً عن التغيير والتحويل، وبذلت الجهد فيه لطالب مراتب الأصول، واستخرجتها من كتب الكبار من فحول العلماء.

ولأن المراتب لها مبدأ ومعاد ونهاية، وبداية وغاية، غير الذات الواحد، فليس له غاية ولا بداية ولا نهاية، ولكن أسمائه وصفاته بوجه من الاعتبار لها أوائل وأواخر، كما قال جل شأنه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

ويعرف هذه الحقائق الواصلون إلى دقائق ولباب العلوم اللدنية، التي تعلموها من لدن حكيم خبير بلا واسطة، كما قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، وغير هذا مذكور في القرآن فافهم سر المراتب، تجد فيه مزايا لا تجدها في غيره من العلوم والمعارف، وما أدراك أن تفهم وأنت مجنوس<sup>(١)</sup> في قشور الوجود المجازي، ومرعى ومرزوق في كل حين غذاء النفساني الحيواني، فلا يظن جاهل بأن مثل

(١) مجنوس: أى مختلط من الجسد والروح، من النفس الحيوانى والملائكى.

هذه التحقيقات يدل على إبطال ما هو المعلوم والمفهوم من ظاهر الآية، وإبطال ما قرره العلماء والكبراء في المعاني الظاهرة حاشا وكلا، لا يليق صدور مثل هذا منهم، ولكن في أدوات الآيات القرآنية ومعانيها وحواشيها فروقا شتى في الفهم بين العلماء الراسخين، كما روى عن ابن عباس، رضى الله عنهما: «أن القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون لا تنقضى عجايبه ولا تبلغ غايته»<sup>(١)</sup>.

وعن الحسن، رضى الله عنه: «لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع»<sup>(٢)</sup>، وفي رواية أخرى مرفوعاً: القرآن تحت العرش له ظهر وبطن، يحتاج العبد كذا في الإتيان في علوم القرآن، ظاهره ما فسرہ العلماء، وباطنه يدل على ما حققه أهل التحقيق من أهل الله وخاصته، وقيل: ظهره التلاوة وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، وجانبوا به السفهاء.

والحاصل أن لكل آية ستين ألف فهم، وهذا يدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً خصباً، ومتسعاً بالغاً، وفي الحديث القدسي: «أولياي تحت قبائي لا يعرفهم غيري»<sup>(٣)</sup>، إشارة إلى أهل الباطن من أرباب القلوب من المحققين، وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة وردت في حق أهل الله تعالى من المشايخ، بشرط أن يكون ما قالوه موافقاً للكتاب والسنة، يشهدان عليه بالحق، وأن كل حقيقة لا يشهد عليها الكتاب

(١) مذكور في مقدمة كتاب «الغرائب والعجائب في تفسير القرآن الكريم» للإمام الفقيه أبي القاسم محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، ذكر ذلك حاجي خليفة في كشف الظنون (١١٩٧/٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣٥٨/٣ - رقم ٥٩٦٥)، وأخرج بعضه ابن المبارك في الزهد (ص ٢٣).

(٣) ذكره المرحوماني في كتاب التعريفات (ج ٢، ص ٢٩٥)، طبعة دار الكتاب العربي.

والسنة فهي إلحاد وزندقة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْلُبْ وَلَا يَأْمُرْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

### الحكمة في التحقيق بالمراتب والأصول:

قال أهل الحكمة في وضع المراتب والحكمة فيها وفي أعدادها: لأن كمال التوجه بالجمعية أقوى، وأكمل المراتب الترتيبية أربعون، وهي منتهى الأعداد في الترتيب كما سيفهم فيما بعد في مواضعها، ونذكر إن شاء الله تعالى في المقدمة بعض أصولها ومراتبها، ومن أراد مزيداً من الاطلاع على تفاصيل أسرار الترتيب، وسائر حقائق الأصول والمراتب في التثليث والترتيب وغيرها، فعليه بمطالعة تفسير عين الحبات، وتفسير سورة الفاتحة للصدر، وأن يلزم كتاب الأسولة للوالد المرحوم حيث قال في رسالة له: كتاب الأصول كتاب جليل الشأن عظيم البركات، ما سبقني في ترتيبه سابق، والعلماء في عصره يعترفون بقوله هذا.

وكتابتنا هذا في سر الترتيب قريب منه في الجمعية بأنواع الحقائق، وأنا الفقير إليه سبحانه وتعالى تراب نعال جيل الأبرار، ألقت هذا الكتاب المختصر الموجز عند حصن سكتوا (رحمه الله تعالى من الفتن إلى يوم القرار) ووضعت في أصول الترتيب من الآيات القرآنية ومن الأحاديث الواردة في الترتيبية، والترتيب الواقع في كتب القوم من المشايخ، وذكرت فيه من العادات والآداب والعبادات الجارية على أصول الترتيب.

### اسم الكتاب ومحتواه:

سميته: [ترتيب المراتب والأصول نتاج أفكار الفحول من أرباب الوصول].

وبمجموعها يبنى على مقدمة وأربعة أجزاء مع خاتمة لطيفة جامعة فروع العلماء والمشايخ وقراباتهم وما لزم على منكريهم عند الشرع.

أما المقدمة: فهي موضوعة في بيان ثمرة مطالعته وهي الوصول على مراتب أصوله وذكر فيها بعض الأمهات من أصوله، وما هو الغرض المطلوب من جمعه وتأليفه.

الجزء الأول: في سر ترتيب البسملة وسورة الفاتحة، وما فهم من ترتيب الآيات القرآنية.

الجزء الثاني: في سر ترتيب مراتب التوحيد، وترتيب الكعبة المكرمة، وما يتعلق من الترتيب بالحرم المكي، وذكر في بند الركن الثاني بعضاً من مناقب النبي المكرم وشمائله الواقعة على طريق الترتيب صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وبارك وسلم.

الجزء الثالث: في الترتيب الواقع في كتب الصوفية من المعارف والحكم اللدنية السنية المعتمدة بين العلماء، ويذكر فيه أيضاً بعض مراتب الإنسان من الترتيب، ولسنا نريد بالإنسان ما هو إنسان حيوان فقط، بل المراد من الإنسان ما هو إنسان وخليفة.

الجزء الرابع: في أنواع الترتيب من العبادات والآداب والعادات، ويذكر في هذا الركن الرابع بعض أنواع الترتيب في حياة هذا العالم الظاهر.

الخاتمة: في بيان مراتب العلم والعلماء والمشايخ.

وما أنا إلا عبد أشعر بالإمداد من الله العزيز الوهاب جل شأنه، وبالاستمداد من صوب الروح الأحمدي الشفيع الأوسع الذي بهر على الأمة إحسانه، صلوات الله عليه وسلامه، وبالاستمداد من أرواح المشايخ عامة، ومن روح الوالد المقدس خاصة، قدس الله أسرارهم، ونفعنا من علومهم ومددهم، وهو المطلوب من هذا المسطور، اللهم من المعبود، وهو المكافئ على الموعد ببذل الجهود إن شاء الله تعالى وتقدس.





## **مقدمة الكتاب فى بيان شرة مطالعته وهى الوصول على مراتب أصوله والوقوف على أنواع مراتبه وفصوله**

### **المراتب التربعية الأصلية الإنسانية:**

لابد أولاً من تفصيل المراتب التربعية الأصلية الإنسانية، وهى الطبائع الأربعة فالطبيعة عندنا عبارة عن الحقيقة الجامعة للحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، والحاكمة على هذه الكيفيات الأربعة ما كان متولداً من الأركان الأربعة: النار، والهواء، والماء، والتراب، كما قال صاحب العوارف، رحمه الله، نقلاً عن وهب بن منبه حيث قال:

وجدت فى التوراة صفة آدم عليه السلام: أنى خلقت آدم وركبت جسده من أربعة أشياء: من رطب ويابس وبارد وساخن.. وذلك لأنى خلقت من التراب فهو يابس، ورطوبته من الماء، وحرارته من قبل الدم، وبرودته من قبل الروح، وخلقت فى الجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع من الخلق، هن ملاك الجسم بإذننى، وبهن قوامه، فلا يقوم الجسم إلا بهن، ولا يقوم منهن واحدة إلا بالأخرى، منهن المرة السوداء، والمرة الصفراء والدم والبلغم.. ثم أسكنت بعض هذا الخلق فى بعض: فجعلت مسكن اليبوسة فى المرة السوداء، ومسكن الرطوبة فى المرة الصفراء، ومسكن الحرارة فى الدم، ومسكن البرودة فى البلغم.. فألما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع التى جعلتها ملاكه وقوامه، فكانت كل واحدة منهن ربعا لا يزيد ولا ينقص، كملت صحته واعتدلت بنيته.

### ثمره مطالعة الكتاب:

من تجلّى له فى قلبه علم المراتب من الترتيب وغيره، يفهم ما أمعنت عليه من هذه المراتب بالنسبة إلى سائر العلوم التفضيلية.. فاعلم واستحضر أن فائدة جمعه وتأليفه وترتيبه: انتظام أحوال متفرقاته التى فى المعضلات، وانضمام مراتبه وأطواره وأسراره التى تغيرت وتفرقت فى أصوله فى الأمهات، ومحصل معناه مستحضر فى أصوله، حيث بذلت جهدى بعد التتبع والتوقف فى استخراج مسائله المنصوبة ومدارجه المكونة، بصفاء خاطر وقلب ذاكر؛ لأجل ذلك: مهدت له أصولاً، وقدمت له مقدمة وفصولاً وأركاناً، بتوفيق الله الودود، ليستدل بالأركان على الموجود.

والناظر فى كتابنا هذا لا يخلو من فوائد منها: أن ثمره المطالعة إنما النظر مع الاعتبار فى أجناس المراتب، والوقوف بأصول العلوم والمعارف من الأسرار الإلهية والنفحات الرحمانية والبدائع الربانية الواقعة على أصول الترتيبية، والوصول إلى أنواع حقائق العلوم ودقائق الحكم، ليزداد إيمان الناظر، ويتقوى عليها خاطر، ويحصل التبهيج للألباب الروحانية، ويصل الطالب الصادق بمدارج الأصول إلى المكانة الزلفى والمخدع الأعلى، ويفرق الخطأ من الصواب، ويفصل القشر من اللبّاب؛ لأن كتابى كاشف الغيوب، ونهاية المطلب، وفيه مراتب التوحيد معلوم، وكثير من أسرار المراتب مندرج فيه ومفهوم.

نسأل الله النفع لكل من يطالع فيه بالإنصاف، ويدعو لكتابه بالخير بقلب صاف، فاعلم يا أحنى أنى ما كنت لك بهذا مرشداً ناصحاً، بل مسترشداً مستفيداً، طالباً عوناً على تقلب قلبى خيراً، ومستعيداً من تحول قلبى شراً، وهو المستعان لمن استعان.

### فائدة النظر فى كتب المشايخ:

إن الغرض الأكثر، والمطلب الأكبر من هذا المسطور، هو الاستفادة

من صوب أرواح الكمل من المشايخ رحمهم الله، كما قال بعض الأفاضل نقلاً عن الجنيد (قدس سره العزيز) حين سئل عن فائدة الكتاب، والنظر في كتب المشايخ، فقال في الجواب:

حكايات المشايخ جند من جنود الله تعالى، وكلماتهم الروحانية كذا فيها أسرار غريبة وأطوار عجيبة، لا يعرفها غير أهلها، يثبت الله بها ما في القلوب من التقلب والتشكك كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْصُصْ عَلَيَّ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِيَوْمِ ذِكْرِهِمْ أَهْلُكُمْ﴾ [هود: ١٢٠].

كذلك فيها التذكر والتذكير والتلذذ بها، باستماع الأحوال من أحوال المشايخ في سلوكهم، والوقوف على مراتب أصولهم في المعارف والعلوم، لا يخلو الناظر في كتبهم من الاستفادة.. وأنا الفقير إلى عفو ربه القدير، راقم الحروف، ما نلت ما نلت إلا بمطالعة كتبهم، بخلوص القلب وبالتوجه التام إلى آثار طريقهم، في أحوالهم وسلوكهم.

ونسأل الله الملك المنان أن يحشرنا وإياكم في زمرة أهل الإيمان والإحسان كما قيل: «المرء يحشر على دين خليفه».

ولأن الطالب الصادق قد يحبط في طريقه، ويخطئ في اجتهاده في سلوكه؛ لأجل ذلك يحتاج إلى مطالعة كتبهم، واستماع كلماتهم، خصوصاً في هذا الزمان، فقد اندرست الحقيقة، وانقلبت الأحوال والطريقة، ولذا وجب على كل طالب صادق أن يطالع في كتبهم: ككتاب الغزالي، والشيخ العربي الحاتمي، والصدر القنوي وغيرهم من علماء أهل السنة والجماعة، ويحترز من أرباب البدع؛ لأن أكثر المشايخ في عصرنا هذا يميلون إلى مسلك أهل البدع، ويتشبهون بهم في الأقوال والأفعال، كما سيذكر أحوالهم في الخاتمة إن شاء الله.. ولا يجالس أحداً إلا بعد التأمل والتوقف، ولا يميل كل الميل إلى كل من له صلاح في الظاهر، ورياسة ونفاق وعجب في الباطن، بل ينظر ويعتبر في أحوالهم،

فى رعاىة سنن رسول الله ﷺ، ويستفيد ما انتقش فى صفحات ذوات  
أهل السنة من المعارف والحكم.

هذا مع ضرورة توافر شروط حتى يستفيد المرء من كتب هؤلاء القوم  
وتلك الشروط هى:

إنما يتأتى مطالعة كتبهم لمن فى استعدادة الذاتى المقتضى حسن قبول  
للفيض الإلهى، على وجه تمييز الحسن من القبيح، والمساء من الصبح،  
لا يشينه بشيء من كلماتهم، وله الفيض على طهارته الأصلية الذاتية  
المقدسة، المكتسبة من فيضه الأقدس.

ومن هو حاله هذا لا يخلو عن أربعة: قريب، وأقرب، وسعيد،  
وأسعد، على درجات متفاوتة كما قيل: «رحم الله امرأ عرف قدره ولم  
يتعد طوره»، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ  
عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

### مراتب ظهور الموجودات الأربعة:

اعلم يا أخى أنى قد نبهت لك فى هذا الكتاب فى مواضع كى تفرع  
سمعك، وليحصل لك العلم، ويزداد الفهم بمراتب الوجودية، والمناسبة  
المعينة الوجودية؛ لأن المراتب فى التعددات والتعينات والكيفيات متكثرة  
ومختلفة ومتشابهة على ما سيتبين مجملًا مختصرًا فى موضعه إن شاء الله  
تعالى.

وأن يفهم أن المراتب والأسماء والصفات درجاتها متفاوت بحسب  
أمهات مراتب ظهور الوجود وهى: أولها المرتبة المعنوية، ثم المرتبة  
الروحانية، ثم المرتبة المثالية، ثم المرتبة الحسية.. والجامع لهذه المراتب  
الأربع: المرتبة الإنسانية الجامعة سائر الحضرات الأربع، والجملة تسمى  
بحضرات الخمس عند الصوفية، كما سيذكر فى مواضع هذا الكتاب  
الحمل الملخص إن شاء الله تعالى، بالمناسبة المحلية المقتضية بيانها فيها..

وإذا تقرر هذا فاعلم أنه ليس للمتذكر رتبة كلية غير ما ذكر في هذا المجلد ، ولكنها تفاصيل مذكورة في كتب المشايخ وجد من طلبها، وأنى يمكن درج البحار في الغار، وحبس نور الشمس في الدار.

وإني ذاكر لك في هذا الفن من المراتب الاختصاصية الربانية، بعض ما وهب الحق تعالى ومن على العبد الفقير من كرمه في هذا المسطور، وما تيسر من جمعه، فافهم وتفكر وأقبل.

### سر المراتب والأعداد:

اعلم أن في الأعداد والمراتب سر وحكمة على أربعة أوجه:

**الأول:** أن المذنب إذا اعتذر إلى ولي له وتوجه إليه بالسؤال، فيجمع له الشفعاء، والإنسان في الاعتذار في كل وقت وحين وآن إلى خالقه.

**والثاني:** ليكون الأركان والأصول شاهداً بعضهم بعضاً.

**والثالث:** أن عمل الواحد شيء قليل الاعتبار له، وإنما القيمة والاعتبار في الكثرة.

**والرابع:** أن أكثر الأركان والأصول وضع في الترتيب من الأعداد وغيرها كما أن كلمة الشهادة في أربع كلمات: لا إله إلا الله، والعناصر الأربعة الظاهرة والباطنة، أعني بها حواس الأربعة في الأربعة، والخلفاء الأربعة<sup>(١)</sup>.

**والدلالة على مراتب الترتيب والوصول أحوال شتى في هذا العالم ومنها:**

— أن لفظ «أربع» جامع لكمال الأعداد ومحيط أعداده. والكمال في

(١) كلمة الشهادة: لا إله إلا الله، العناصر الأربعة: (حواس الأربعة في الأربعة)، أي البيوسة من الزنا، والرطوبة من الماء، والحرارة من النار، والبرودة من الروح، (الهواء).. والخلفاء الأربعة: (أبو بكر، عمر، عثمان، علي).

لفظ عشرة، وعشرة كاملة، ونجد ألقاب الأعداد الأربع هي العشرة (الأحد - الاثنين - الثلاثاء - الأربعاء) فتحصل لك عشرة كاملة.

وغير هذا كثير فى الترتيب منها:

- مراتب العناصر الأصلية العلوية والسفلية الإنسانية، والأركان الأصلية الأربعة كلها تقوى وتنمو بالأفعال المؤثرة، ويحصل لها الفطنة فى الإدراكات الظاهرية والباطنية.. أعنى الكلام والبصر والسمع والقوة على الإطلاق.

ومنازل السلوك بين الناس: تدل على مراتب الأصول، وهى أربعة معروفة عند أهل السلوك معول عليها عند العلماء:

الأول: معرفة النفس. الثانى: معرفة الأخلاق.

الثالث: معرفة الدنيا. الرابع: معرفة الآخرة.

وكذلك أوتاد العالم: أربعة رجال، منازل على الأربعة الأصلية (الظاهرة والباطنة) شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً.

وكذلك الأبدال من الرجال: على أكمل الأعداد من الترتيب وهم أربعون، المتحققون بحقائق أطوار العالم من الأربعينيات عملاً وحكماً.

سر الترتيب فى الأربعين:

وسر الترتيب سار فى الأربعين اعتباراً فى اللفظ والمعنى، والظاهر والباطن، علوياً كان أو سفلياً.. قال النبى ﷺ: «ما من ميت يصلي عليه أمة من الناس إلا شفعوا فيه<sup>(١)</sup>». والأمة من الناس أربعون رجلاً، يغفر ويحجب لهم، كذا ورد فى الحديث.

وهذه الاعتبارات ليست للذات، ولكن فى الأسماء والصفات،

(١) فى النسائي (كتاب الجنائز) عن عائشة، رضى الله عنها. رقم الحديث ١٩٦٤.

اعتبارات شتى، ومدارج الاعتبارات على اقتضاء المراتب، بعضها يظهر في أول المرتبة حكمها، وبعضها في الثاني والثالث، وبعضها في الرابع إلى تعين أكمل الأعداد في الأربعين، وغيرها كما يعتبر ويقال: الواحد نصف الاثنين، وثلاث الثلاثة، وربيع الأربعة، وهلم جرا على هذا الاعتبار، فالذات بهذا الاعتبار يسمى واحداً، ولا يصح إضافة هذه الاعتبارات المذكورة إلى الاسم (الواحد الأحد)، لا حقيقة ولا وهماً لغوياً ملحداً زندقياً؛ لأن المرتبة عندنا عبارة عن حقيقة كل شيء، لا من حيث تجرده، بل من حيث معقولة نسبتها الجامعة بينها وبين الوجود المظهر لها، والحقائق التابعة لها.

ومن ظهر له سر ملك المناسبات التربيعية اجتمع باطنه عليه، ولم يوجد ذلك إلا لمن سبقت له عناية من الحق جل شأنه في الخلقة الأزلية، كما قيل: «كل ميسر لما خلق له»<sup>(١)</sup>.

هذه وصيتي لك يا أخي، تقبلها بقبول حسن. وإنى والله يا أخي في الله قد بذلت جهدي في تحرير هذه الرسالة بوجه لم يكن فيه إدخار ميل شيء في قلبي، فانظر ما يقرع سمعك، ويتجلى في قلبك، واعرف قدرك، لتصل إلى السعادة العظمى والمكانة الزلفى، والله ولى الهداية والرشاد في الدنيا والميعاد.

فلنقتصر بهذا القدر اليسير من المقدمة في الإشارة إلى ذكر الأصول في المراتب التربيعية وغيرها، ليستدل بالقليل على الكثير؛ لأن الفطرة تنبئ عن القدير، وفيما ذكرناه كفاية لك ومقنع إن شاء الله تعالى الذى أمدنا بهذه المقدمة الموعودة من قبل عونه، اللهم ربنا تقبل منى واعف عني.

(١) رواه سيدنا على، رضى الله عنه، صحيح البخارى، كتاب تفسير القرآن، حديث





## الجزء الأول تربيع البسملة والفاصلة وما فهم من سائر الآيات القرآنية

سر تربيع البسملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ :  
إذا رجعنا وبخنتنا في سر التربيع الواقع في البسملة نقول:

**الأول:** انبعث التوجه الإلهي الأحدى، فانسحب حكم التوجه الإلهي الأحدى لإيجاد العالم من التدوين والتسطير على الأعيان الثابتة بعد ظهور الأرواح المهيّجة.

فالوجه وجهان: الوجه الذى يلى ربّه، جلّ ذاته عن الحدود والحدود، ويقبل به ما يهيئه ويمده، والوجه الذى يلى الكون فيؤثر فيه ويمده.

ومن حيث أنه حامل للكثرة الغيبية الإجمالية المودعة في ذاته، ليفصلها فيما يظهر منه يتوسط مرتبته ويدونها، ويظهر سر التربيع والتركيب وخفى الغيب المطلق.

**الثانى:** من التوجه الإلهي والتعين الصمدانى العماوى والبرزخ الأول.

**الثالث:** تعين المرتبة الهولانية المشار إليها بالإمكان الذى هو مرتبة العالم.

**الرابع:** ظهور سر التركيب المعنوى المتوهم الحصول من ارتباط الممكنات بالحق المشار إليها بالجسم الكلى وباللوح الحامل سر التربيع.

من أسرار حروف **بسم الله:**

اعلم أن التعين الأول الذى سبقت الإشارة إليه أول ممتاز من الغيب

المطلق، وهو مفتاح العوالم الكلى الأسمائية، وفي النفس الإنسانى نظيره الهمزة والألف<sup>(١)</sup>، وصورة العماء الذى هو النفس الرحمانى الوجدانى وسائر الحروف والكلمات الإنسانية بنفس الإنسان، به بدت كنوز الموجودات الأسمائية، فكان أقرب الحروف إلى الألف هو الباء، كما أن أقرب المراتب نسبة إلى الوحدة هى الاثنينية (الأولى من المراتب).

• ثم ظهر السين بعد الباء بوسط بين الظاهر والباطن، مصورًا بالتثليث الأول المذكور.

ثم نرجع إلى بيان سر الميم الكاملة الشاملة بمراتب التربع، فظهر بعد الميم اسم الله بألفين ولامين وهاء، فالألف الأولى إشارة إلى الاسم الباطن، وهى الظاهرة بالنطق لا فى الخط.. والألف الآخر الظاهر وهو الأول للاسم الظاهر.. وأحد اللامين بسبب ارتباط الحق بالعالم مظهرًا للحقائق، والأخرى لارتباط ظهور العالم بالحق من حيث ظهور بعضه للبعض فى غيب الغيوب.. والهاء إشارة لهوية الغيبية، الجامعة بين الأول والآخر والظاهر والباطن.

ومن هذه المراتب الخمس تشاهد وتذكر الحضرات الخمس، والمراتب الأصلية الأربع الأسمائية، والسر الجامع بينها، وكذلك النكاحات الخمسة.

وعند الشيخ الأكبر: إذا جمعت حروف لفظ الله ظاهرة وباطنة كانت ستة.. وإذا اعتبرت تعلق الحق بالأسماء المتعلقة بالكون كانت سبعة.. وباعتبارات الأحوال والاقتضاء الكونى تكثرت المراتب.

سر اسم الرحمن: اسم الرحمن له سر الشمول والإحاطة والاستواء على العرش المحيط بكل شىء.

سر اسم الرحيم: ظهر اسم الرحيم المختص بمقام الكرسي جار

(١) لأن أصل الكلمة «باسم» فكانت باء وألف، ولكنها تكتب «بسم».

حكمه فى سلك السعداء، أعنى بها أرباب النعيم الدائم، فإنه مقام أهل اليقين من اليمين.

**تحقيق ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ :**

قال صاحب كتاب «نجم الداية»، رحمه الله، فى تفسيره: اعلم أن فى بسم الله الرحمن الرحيم أربع مراتب:

**الأول:** الاسم، **والثانى:** الذات، **والثالث:** صفة الجلال، **والرابع:** صفة الجمال.

وهذه هى مراتب الموجودات، فإنها أيضاً أربعة أقسام:

**الأول:** الألوهية، **والثانى:** الروحانيات، **والثالث:** الجسمانيات، **والرابع:** الحيوانات (وهى كل ذى روح).

ففى الباء: فى أول هذه المراتب الأربع إشارة إلى أن وجود هذه العوالم بى، وليس بغيرى وجود حقيقى إلا باسم، فالعالم (أعنى ما سوى الله تعالى) بالاسم والحجاز له وجود، لا بالمعنى والحقيقة الأولى.

لهذا أشار بعضهم بقوله: «ما نظرت فى شىء إلا رأيت الله قبله».

وصرح النبى صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وبارك وسلم بقوله: «لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله<sup>(١)</sup>». حديث صحيح متفق على صحته.

**فتحقيق ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ :** أن وجودى بذاتى وهى الله تعالى.. وصفاتى كلها التى هى من قبيل الكمال أو الجلال فبذاتى قائمة.. وما سوى وسر العالم وسم موجود بإيجادى، قائم بقيوميته.. ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِى يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

[يس: ٨٣].

(١) رواه أبو هريرة، رضى الله عنه، صحيح مسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، رقم الحديث ٤١٦٩.

وقال بعض الفضلاء: إن الباء التى فى البسملة لتوصل الخير من جميع العوالم إلى الملك الحق، وترفع النداء باللسان اللطيف.. فبسم الله صعوداً والإجابة له، والرحمن الرحيم هبوطاً إلى الملك.. كما أن بسم الله صعوداً إلى المبدأ والمنتهى، وفيها مراتب أيضاً، فالملائكة قبالة الرحمن، وأولو العلم قبالة الرحيم.

وكذلك نسبة العالم التربيعى وهو قوله تعالى: ﴿قَاوَلْتِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالْعَزِيزِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

فالنبیین نسبة من بسم (أى الله).. والصديقين نسبة من الله أى بسم التى من مراتب النبیین.. والشهداء من الرحمانية إلى الرحيمية.. والصالحين من الرحيمية إلى الرحمانية.. فذلك الدرج فى الصعود إلى سر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فأول دائرة بسم الله الرحمن الرحيم كآخرها، وباطنها كظاهرها، وبها أقسام الله شجرة الأكوان، وأظهر بها سر الثقلين.. وهكذا اتفرعت العوالم كلها عن بسم الله الرحمن الرحيم.

### سر التربيع فى سورة الفاتحة:

- فى قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال صدر الدين، قدس الله روحه، فى تفسير هذه الآية، وهى تتضمن مسائل أربعة: أولها سر الحمد - ثم سر اسم الله - ثم سر الاسم الرب - ثم العالمين.. قال:
- سر الحمد: اعلم أن الحمد من مقام التفصيل والجمع لا الأحدية، ولا يصح بين المتماثلين، بل لابد من علو المحمود على الحامد.. فنقول الحمد من حيث هو مطلق ولكى، لا لسان له، ولا حكم يظهر عنه أو يضاف إليه.. وهكذا شأن جميع الصفات والأسماء والحقائق المجردة الكلية المنسوبة إلى الحق وإلى الخلق على سبيل الاختصاص أو الاشتراك النسبى.. وقد ذكر فى كتب الصوفية فى بيان ذلك تنبيهات شتى.. ثم

ليعلم أن الحمد والثناء وكل ثناء من كل مُثنى على كل مُثنى عليه، فهو تعريف كما بين في كتب القوم.. والحمد قد يكون من جانب الحق، وقد يكون بلسان الإنسان، كما أن الصلاة تعتبر من جانب الحق رحمة، ومن جانب الخلق عبادة مخصوصة.. وحقيقة الإنسان عينه الثابتة التي هي عبارة عن نسبة معلومة للحق وتميزه في حضرته أولاً حسب مرتبته وعلمه بربه.

ولما كان جميع ما يظهر بالإنسان والعالم من حيث هي (كلمة الحمد) لذا ظهرت بالألسن الأربعة المذكورة: لسان الذات، ثم لسان الحال، ثم لسان المرتبة، ثم لسان الحكم، وهذه الألسنة من حيث النسبة إلى الجناح الإلهي بالمدارج الترييعي ذاتاً واسماً وصفةً وفعلاً، وإلى المقام الكوني كذلك بالمراتب الأصلية الأربع كما سيذكر إن شاء الله تعالى.

• **سر اسم الله:** فهي إضافة الحمد للحق من حيث هذا الاسم وإحيائه.. وهذا الاسم اسم جامع كلي، لا يتعين له من حيث هو حمد ولا حكم، ولا يصح له إسناد أمر أصلاً، وكلي توجه وسؤال والتجاء ينضاف إلى هذا الاسم.

• ومعنى هذا الاسم كثير عند أهل العربية، وعند أهل اللسانين ذوقى وعقلى، فلنقتصر على بعض قواعده:

قال بعض أهل العربية في الاسم «الله» أنه قد خص بسبع خواص لا يوجد في غيره، منها: أن جميع أسماء الحق نسبت إلى هذا الاسم، ولا ينسب هو إلى شيء منها، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فنسب بذلك جميع أسمائه إليه، ولم يفعل ذلك بغيره تنبيهاً على جلالاته.

- ومنها: كونه لم يُسم به أحد من الخلق، بخلاف باقي الأسماء، ويستدل بقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

ومنها: أنهم حذفوا باء من أوله، وزادوا ميمًا مشددة في آخره، فقالوا: اللهم<sup>(١)</sup>.

ومنها: أنهم ألزموه الألف واللام عوضًا عن همزته<sup>(٢)</sup>.  
وغير ذلك من الخواص كثير.

• سر اسم «رب»: قال صدر الدين القونوي، رحمة الله عليه: وهذا سر الجمعي.. ففي هذا الاسم مندرج خمسة أحكام، يستلزم بالمراتب خمس صفات.

فأما الأحكام فهي: الثبات.. والسيادة.. والإصلاح.. والملك.. والتربية.

وأما الصفات الملازمة للأحكام فهي: التلويح المقابل للثبات.. والعبودية المقابلة للسيادة.. والإعدام والإهلاك فى مقابلة الإصلاح.. والإبقاء والإيجاد والملوكية المقابلة لبينة المالكية، وعدم قبول التربية.

• سر اسم «العالمين»: جمع عالم.. والعالم مأخوذ من العلامة، وهو عبارة عن كل ما سوى الله تعالى.. والعوالم كثيرة جدًا، وأمهااتها هى الحضرات الوجودية التى اعرفتكم ما هى مرارًا.

وأول العوالم المتعينة من العماء: عالم المثال المطلق.. ثم عالم التهييم.. ثم عالم القلم واللوح.. ثم عالم الطبيعة من حيث ظهور حكمها فى الأجسام بحقيقتى الهيولى والجسم الكلى.. ثم العرش.. هكذا على الترتيب، إلى أن ينتهى الأمر إلى الإنسان بعالم الدنيا.. ثم عالم البرزخ.. ثم الحشر.. ثم عالم جهنم.. ثم عالم الجنان.. ثم عالم الكتيب.. ثم عالم أحدىة الجمع والوجود.. وهو ينبوع جميع العوالم.. والله الهادى وعليه اعتمادى.

(١) أى بدلا من «يا الله» يمكن القول «اللهم».

(٢) أى بدلا من «إله» قالوا «الله».

• ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ :

يوم الدين: إن معنى الدين فى اللسان أربعة:

الأول: الجزاء، والثانى: العبادة، والثالث: الطاعة، والرابع: الشأن.

ومعنى الجزاء: أنها سر عبارة عن نتيجة ظاهرة بين فعل وفاعل.. والباعث على الفعل هو الحركة الغيبية الإرادية التابعة للعلم المنبعث على الفعل، وفهم من هذا التقرير: قول العلماء العلم تابع للمعلوم.

ثم نرجع ونقول: إن الأفعال على أربعة أقسام: ذاتية، وإرادية، وطبيعية وأمرية، والإنسان جامع الأقسام باعتبار المراتب الكلية.

• قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ :

اعلم أن مراتب النعم أربعة: الأولى: حسية، والثانية: مرتبة خيالية، والثالثة: مرتبة روحانية، والرابعة: مرتبة السر الجامع بينها، وهو الابتهاج الإلهى بالكمال الذاتى، فيسرى حكمه فى الظاهر والباطن.

وأتم مطلق النعم رؤية الحق على الوجه الذى نبهتكم عليه وهو أن يكون الرائى خلقاً والمرئى حقاً.. وفى هذه لذة، لا لذة فوقها.. وإلى هذا أشار النبى صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وبارك وسلم فى دعائه: «اللهم ارزقنى لذة النظر إلى وجهك الكريم أبداً دائماً سرمداً».

كما قيل فى الشعر:

رب امرئ نحو الحقيقة ناظر برزت له فىرى ويجهل ما يرى

### سر التربيع فى بعض آيات القرآن الكريم

• قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة:

٢٠٣]، يعنى: يوم البداية، يوم النهاية، ويوم الطلب، ويوم الوصال وتقسّم أيام التشريق فى الأربعة تطبيقاً بالمشاعر إلى الأركان.

وقيل: فى الآية إشارة إلى مداومة الذكر والملازمة فى العبودية فى أيام



معدودات (العمر المختصر من البداية إلى النهاية لجميع أجزاء الوجود).

وقيل: من الأزل إلى الأبد، لقوله تعالى: ﴿وَعَبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

• قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠].

قال بعض العارفين: إن في هذه الآية أربع مراتب:

- فى المعنى الأول: أن الله تعالى أنطقهم بهذا القول، فيتحقق لنا أن هذه الصفات الذميمة مودعة فى طيننا، فلا نأمن مكر أنفسنا الأمانة بالسوء.

- والثانى: أن كل عمل صالح نعمله، بتوفيق الله تعالى إيانا وفضله.. وكل فساد هو من شؤم طبيعتنا، وخاصية طينتنا، كما قال تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

- والثالث: أن الله من فضله قبلنا بالعبودية والخلافة، وكذا قال فى حقنا مع الملائكة - عناية منه -: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، لكيلا نقنط من رحمته ونقطع عن خدمته.

- والرابع: أن فساد الاستعداد أمر عظيم وبناء جسيم، ليس للملائكة به علم، وهو سر الخلافة، وإنما قالوا بهذه الأقوال لأنهم نظروا جسد آدم قبل نفخ الروح، فشاهدوا ما ركب فيه من العناصر الأربعة المتضادة: بشرية.. بهيمية.. سبعية.. إنسانية.. ولهذا لم يعلموا ظهور السر العرفانى الأسمى الذاتى منه.. فافهم بهذا محل فهم قوله فى هذه الصورة.

• قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ أَرْبَعَةً أَشْهُرًا﴾ [البقرة: ٢٢٦].

قيل: فى هذه الآية إشارة عجيبة وهى أنها مدة تعلق الروح بالجنين.

وقيل: سر التزييع الإنسانى الذاتى، والعارض الظاهرى، والباطنى

الشهودى الحسى، والمعنوى.. وهى الطبائع الأربعة وسائر الحواس التزييعية مع لوازمها يتعلق بالبدن فى هذه المدة المعينة؛ لأن لكل أصل من الأصول التزييعية فى الطبائع الأربعة وغيرها حكم فى عوالمه.. وهذه المسألة متسعة الحكم فى الفهم.

• قوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

لأنه ليس يعظم عليه المغفرة، فقد أغرق فى بحر حكمته وكرمه وجوده وعدله ذنوب عباده.. وأيضاً قال: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ فإن بين أيديكم أربعة أشياء: الشهادة، الشفاعة، الرحمة، المغفرة؛ لأن الخلق سبعة:

— ثلاثة منهم لا نصيب لهم فى الآخرة من الرحمة، وهم: الكفار والمنافقون وأهل البدع.

— وثلاثة لا حاجة لهم فى الرحمة وهم: الملائكة والطيعون والتائبون.

— ويبقى العصاة.. فهل الرحمة إلا لهم.

• قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، سر التزييع فيها ظاهر بأربع شروط، ثم رُدَّ إلى اثنين بقوله تعالى: ﴿انْقُضُوا إِلَهُكُمْ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، ثم رد إلى اللسان، فقال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَافَاءً﴾ [نوح: ١٠]، ثم رد اللسان إلى الرجاء بقوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

• قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]، قيل: فى هذه الآية إشارة على القدرة الكاملة، وإلى عزة عباده عند ربهم، وفضلهم على جميع المخلوقات.. ويفهم من هذه الإشارات أربع من المراتب:

- فقله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ يعنى حقق لكم الشرف لا لغيركم، وكل ما خلق لأجلكم.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ خاصة لكم، بأن جعل لهم بنفسه فراشاً كالأرض، وبناء كالسمااء، وبأنه جعل شأنه خلق السماوات والأرض تبعاً لوجودهم؛ لأن وجودهم للسماوات والأرض مثل الروح للجسد.

ولذلك قال الشيخ الأكبر والمسك الأفرز: الإنسان الكامل روح العالم الظاهر، والعالم له كالجسد للروح، وما تبع وجودهم إلا وجوده تعالى، ولهذا أمر ملائكته بالسجود لآدم، وحرّم عليه وعلى أولاده سجودهم لغيره تعالى، ليعلموا أنه أفضل الخلق.

• قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١].

قيل: السر فى الانحصار فى أربعين، وهى أكمل الأعداد فى الترتيب، نظراً واعتباراً إلى الأصل.

وقيل: الإشارة فى الآية والإيراد بلفظ الأربعين فى الميعاد، لاختصاصه فى الأكملية، وذلك لأن مراتب الأعداد أربع: الآحاد.. والعشرات.. والمئات.. والألوف.. والعشرة عدد فى نفسها كاملة، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦].. وإذا ضُعِفَت العشرة أربع مرات يكون أربعين، وهو كمال الكمال، وهو عدد أيام تخمير طينة آدم.. على نبينا وعليه أفضل الصلوات وأكمل التسليمات.

وعند العلماء المحققين: للأربعين خاصية وتأثير لم يوجد فى غيره من الأعداد، كما ذكر فى المقدمة مفصلاً، وجاء فى الحديث: «إن خلق

أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً<sup>(١)</sup>..

وكما أن انعقاد الظلم الجسماني على وجه الكنز الروحاني كان مخصوصاً بالأربعين، كذلك الخلافة تكون بالاختصاص فى الأربعين.. والبعثة وقعت عند الأربعين ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

ولهذا المعنى قال رسول الله ﷺ: «من أخلص لله تعالى أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»<sup>(٢)</sup>.

• قوله تعالى: ﴿فَخَذَّ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

هى للصفات الأربعة التى تولدت من العناصر الأربعة.. فتولدت من ازدواج كل عنصر مع قرينه صفتان.. فمن التراب والماء تولد الحرص والبخل، وهما قرينان، حيث إن وجد أحدهما وجد الآخر.. ومن النار والهواء تولد الغضب والشهوة، وهما قرينان يوجدان معاً.. ولكل واحدة من هذه الصفات زوج خلق منها ليسكن إليها حواء آدم، ويتولد منهما صفة أخرى: فالحرص زوجة الحسد، والبخل زوجة الحقد، والغضب زوجة الكبر.

فأمر الله تعالى خليله بذبح هذه الصفات، وهى الطيور الأربعة:

الأول: طاووس البخل، والثانى: غراب الحرص، والثالث: ديك الشهوة. والرابع: نسر الغضب.

كما فيها إشارة إلى الجبال الأربعة (وهى النفوس) التى جبل الإنسان عليها:

(١) عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، صحيح البخارى، كتاب بدء الخلق، حديث رقم ٢٩٦٩.

(٢) ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات، والأصح أنه ضعيف، انظر: الأسرار المرفوعة فى الأحاديث المرفوعة ص ٢١٨.

أولها: النفس النامية، وتسمى النفس النباتية.

وثانيها: النفس الأمارة، وتسمى الروح الحيوانى.

وثالثها: القوة الشيطانية، وتسمى الروح الطبيعى.

ورابعها: القوة الملائكية، وتسمى الروح الإنسانى.

ومن أراد تفصيل هذه المسألة فعليه بمطالعة تفسير «نجم وآية» يجد هناك مستوفى ما مسَّ وجود العالم مثله، بعد كتاب الله تعالى، وكتاب الرسول عليه الصلاة والسلام.

قال الفاضل القاشانى فى معنى هذه الآية: هذا إنباء للقوى الأربعة التى تمنعه عن مقام العيان وشهود الحياة الحقيقة.

وقيل: الطيور الأربعة كانت: طاووساً، وديكاً، وغراباً، وحمامةً.. ومن أمعن النظر يجد فى كل طير صفة من صفات القوى الأربع:

فالطاووس: هو العجب، والديك: هو الشهوة، والغراب: هو الحرص، والحمامة: حب الدنيا، ولهذا السر حصر فى الأربعة.

وقيل: نظرًا إلى بدن إبراهيم، عليه السلام<sup>(١)</sup>.

• فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْإِنْهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

قال أبو الليث، رضى الله عنه ونفعنا بعلومه، فى تفسيره: نزلت هذه الآية فى شأن على بن أبى طالب، رضى الله عنه وكرم الله وجهه، حيث كان عنده أربعة دراهم، ولا يملك غيرها.. فلما نزل التحريض بالصدقة، تصدَّق بدرهم بالليل، وبدرهم بالنهار، وبدرهم فى السر، وبدرهم فى العلانية.. فنزلت هذه الآية، وفيها سر التزبيح ظاهر بوجهين.

(١) أى ما فيه من الطبائع الأربعة الجامعة للحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة المتولدة من الأركان الأربعة (النار، والهواء، والماء، والتراب).

وقيل: نزلت في أبي بكر، رضى الله عنه، حين تصدق بأربعين ألف دينار: عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة في السر، وعشرة في العلانية.. وفي هذا التفسير سر التزييع على وجهين غير خفى على الفطن الذكى البالغ قوته.

• فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١].

قال الفاضل العالم العامل القاشانى، رحمة الله عليه، ونفعنا بعلومه: يعنى ترفع درجات موسى، عليه السلام، ليتصفى قلبه من غشاوة الطبيعة التى حجبت قلبه عن معدن عالم الأرواح فى هذه الأربعين، التى خلق فيها بدنه عند تكونه جنيناً، واحتجابه بالنشأة عن الفطرة، كما ورد فى الحديث: «حمرَّ الله طينة آدم عليه السلام، بيده أربعين صباحاً عن وجهه قلبه.. أو ليظهر الحكمة النورية من قلبه على لسانه<sup>(١)</sup>».

ولهذا ورد فى الحديث: «من أخلص لله أربعين صباحاً.. إلى آخر الحديث»، وقيل فى معناه: وواعدنا موسى القلب فى عالم النور، عند تعلقه بالبدن، واحتجابه عن قومه، القوى الروحانية فى الأربعين، التى فيها خلقت فى شأنه الأولى الوجودى الدنيوى.. فظهر كمال موسى، عليه السلام، بالبلوغ الحقيقى، وانقضاء الأربعين.

وكذا بانقضاء الأربعين من عمرهم.. فظهر نور القلب بتجردكم لكى تشكروا نعمة توفيقى إياكم لذلك التجرد، ونهى أسباب كمالكم بسلوك سبيل صفاتى.. ولهذا السر الذاتى الأصلى كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وغير ذلك من المحامد كما سيذكر فى موضعه إن شاء الله تعالى.

• قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي صَافِي وَشَكِي وَحَيَّائٍ وَمَمَافٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

(١) الحديث موضوع قاله الشوكانى فى الفوائد ص ٤٥١، وقال صاحب المختصر: ضعيف، وقال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء ج ٤، ص ٢٦٩: هو باطل.

قال الفاضل القاشاني: «إن صلاتي»: أى حضوري وشهودي بالروح.. «ونسكي»: أى تقربي أو كل ما أتقرب به بالقلب.. «ومحيى» بالحق.. «ومماتى»: بالنفس.. أى كل هذا لله، لا نصيب لى ولا لأحد غيرى فيه؛ لأنى قمت به له بالفناء، فلا وجود لى ولا لغيرى.. «رب العالمين»، أى له باعتبار الجمع فى صورة تفاصيل الربوبية، والحصص فيها إلى الأربعة ظاهر غير خفى للتأمل.

• قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

قال أهل التفسير: إن فى هذه الآية الكريمة دلالة على أن الحفظة أربعة: اثنان بالليل، واثنان بالنهار، وعلى ما ذكره المفسرون حيث قالوا: سمي الله صلاة الصبح «مشهوداً»؛ لأنها تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار.

ويدل على ذلك قوله ﷺ: «إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار<sup>(١)</sup>». فهم أربعة على عدد الأركان، مطابقاً لأصول الإنسان على ما مرّ مراراً.

وكذلك أصول الإنسان أربعة أقسام: اثنان ليلى، واثنان نهاري.. القلب والروح ليليان، والنفس والجسد نهاريان.

• قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩].

قال الفاضل القاشاني، رحمه الله: أى كل مكان سجود، أو وقت سجود. وقال: السجود أربعة أقسام، نظراً إلى الأركان الأصلية الخلقية:

(١) عن ابى هريرة، رضى الله عنه، صحيح البخارى، كتاب مواقيت الصلاة، حديث رقم ٥٢٢.

**الأول:** سجود الانقياد والطاعة، وإقامة الوجه فيه بالإخلاص والاجتناب عن الرياء، والاتفات في العمل لله، وعدم الاستعانة بالغير فيه، ومراعاة موافقة الأمر مع صدق النية، والامتناع عن المخالفة في جميع الأمور «وهي العدالة».

**والثاني:** سجود الفناء في الأفعال، وإقامة الوجه فيه بالقيام بحقه، بحيث لا يرى مؤثراً غير الله، ولا يرى أثراً في نفسه ولا في غيره.

**والثالث:** سجود الفناء في الصفات، وإقامة الوجه عنده بالمحافظة على شرائطه، بحيث لا يرى اثنينية ذاته بها<sup>(١)</sup>، ولا يريد ولا يكره شيئاً، من غير أن يميل إلى الإفراط، بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا إلى التفريط بالسخط على المخالفة.

**والرابع:** سجود الفناء في الذات، وإقامة الوجه عنده بالغبية، والانطماس بالكلية، والامتناع عن إثبات الاثنينية، فلا يطغى بحجبات الأنانية.

ولا يتزندق بالإحاطة وترك الطاعة.

قال صاحب الإتيقان في علوم القرآن (ورواية عن عبد الله بن عباس، رضى الله عنه): التفسير أربعة أوجه: وجه يعرفه العرب من كلماتهم، وتفسير لا يقدر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله.

• قوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

يعنى في المقامات والمراتب، فكما أن السجود منحصر في الأربعة، كذلك الخلوص فيها منحصر في أربع مراتب يكتفى عنها بالمقام:

**الأول:** يعنى الساجد والعاابد بخلوص القلب في المقام الأول،

(١) لا يرى اثنينية ذاته؛ لأنه في مقام الجمع.



بتخصيص العمل لله. وفي الثاني: برؤية الدين، وفي الثالث: بالطاعة في الله تعالى. وفي الرابع: برؤيته بالله تعالى وتقلس، فيكون الله تعالى هو المتفضل بدينه ليس لغيره فيه نصيب.

وقيل: في مقابلة مراتب الهدى، مراتب شياطين القوى الإنسانية النفسانية وهمته متحصلة، والسر في الحصر ظاهر على البالغ الفطن.

• قوله تعالى: ﴿عُدُّوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

الزينة: على أربعة أقسام، وهذه الأقسام قد شُبّهت بالاعتبار على مراتب السجود:

زينة الأول في السجود: هي الإخلاص في العمل لله.

وزينة الثاني: التوكل ومراعاة شرائطه.

وزينة الثالث: هو القيام بحق الرضا.

وزينة الرابع: هو التمكين في التحقيق بالحقيقة، ومراعاة حقوق الاستقامة وشرائطها.

• قوله تعالى: ﴿فَاسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢].

قيل: هذا خطاب إلى الأركان أو إلى الخواص ظاهرها وباطنها، وقواه الجسمانيين والروحانيين جميعاً.. وتعنى: فسيحوا في أرض أجسادكم الذي هو محل زرع الأعمال الصالحة في أكمل الأوقات من الزمان، وهي أربعون يوماً أو شهراً أو سنة حيث اقتضى حال السالك في سلوكه؛ لأن السالك مثل المريض، والنبى صلى الله عليه وعلى آله وبارك وسلم كالطبيب، والخليفة من المشايخ مثله، يداوى بنوع من أنواع المعالجن، وجزء من أجزاء العقاقير مثل الخلوة والعزلة والصوم والصلاة، والسكوت والتسبيح والتلهيل وبسائر اللوازم من لوازم الآداب في السلوك.

وبعض المرضى يداوى ويصح فى أربعة أيام، وبعضهم فى أربعة أشهر.. ومن لم يداوى أمراضه فى هذه الأوقات، أو فى عمره (فى أربعين سنة) وهو فى قيد الوارد النفسى، فعليه أن يسبح فى أرض جسده على مقتضاه، لا يجعل له التداوى عند أحد من الناس.

قال الفاضل القاشانى، رحمة الله عليه، فى تفسير تلك الآية: قال الله تعالى ذلك تنبيها لهم، فإنهم وقفوا فى الدنيا بالغير بالشرك، فحجبوا عن الدين والأفعال والصفات والذات فى برزخ الناسوت، فلزمهم أن يقفوا فى الآخرة على الله تعالى، ثم على الجبروت، ثم على الملكوت، ثم على النار، كما قيل: والمشركون موقوفون فى المواقف الأربعة من هذه المواقف كما مر بيانها.

• وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢].

يعنى بعد الاجتهاد عند الطبيب الكامل فى الأوقات المذكورة.

— قال تعالى فى هذه السورة: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥].

يعنى: بعد تصفية القلب بالخلوة فى الأشهر الحرم بمعاجين العزلة والصحبة والعبادة<sup>(١)</sup>، فاقتلوا جميع الموانع من المخالفين فى طريق الحق.

— وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَأَبَّوْا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [التوبة: ٥].

أى بعد حصول التزكية والصلاح بسبب المعالجة بهمة الشيخ، فتأب وأقام المأمورات الظاهرة والباطنة؛ لأن الصلاة جامعة لكل من أنواع العبادات الإنسانية والملكية والمعدنية والنباتية والجمادية من الحقائق والخلائق الأربعة المحصورة بهذه العوالم الدنيوية الفانية الزائلة الباقى أثرها.

(١) كلمة معاجين، تعنى شدة الاندماج فى العزلة والعبادة حتى كأنه عجن فيها.

• قوله تعالى: ﴿فَحَلُّوْا سِيَائَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

يعنى: بعد حصول التزكية، وبعد الخروج من قيد الأوهام والخيالات الفاسدة والوساوس الكاسدة، حصل له مقام التمكين فى اعتقاده وحسن ظنه بربه جل شأنه، لقوله تعالى: ﴿وَلِئَلَّا لَغَفَارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].. وفى هذه الآية سر التبريع ظاهر كما مر بيانه، وكما سيحى من بعد إن شاء الله تعالى.

• قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

الآية يعنى: اطلبوا هذا الأجر بأربعة أشياء:

اطلبوه بالتجرد عن متاع الدنيا من الأولاد والأموال بمراعاة حق الله فيها.

واقفوا الله بالاجتناب. أولاً: عن نقض العهد، والثانى: عن وهن العزيمة، والثالث: عن إخفاء الأمانة ظاهراً وباطناً، والرابع: عن حبة الأموال والأولاد.

• قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١].

قال الفاضل القاشانى، رحمه الله: يعنى لما هداهم إلى الإيمان العلمى، وهم مفتونون بمحبة الأموال والأولاد والأنفس، وهذا الاشتراء لفرط عنايته تعالى بهم.. وعلى العباد الذين رجعوا عن محبة النفس والمال: أن يعبدوا الله حق عبادته، لا لرغبة ولا لرهبة، بل تشبيهاً بملكوته فى أن القيام بحقه تعالى بالخضوع، وحق حمده بإظهار الكمالات العملية الخلقية والعلمية المكونة فى استعداداتهم بالقوة حمداً فعلياً، وأن يسيحوا ويتوجهوا إليه بالهجرة فى مقام الفطرة ورؤية الكمالات، وأن يركعوا فى مقام محو الصفات، وأن يسجدوا بفناء الذات وأن يقوموا بالأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، والمحافظة على حدود الله في مقام البقاء بعد الفناء.

وهذه المقامات أربعة اعتباراً ونظراً إلى الطور الذاتي الطبيعي، مركزاً في ذات الإنسان الكامل ظاهراً وباطناً، ووجه الحصر في الأربعة قاصر على المستمع.

• قوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

يعنى: اجتنبوا رذيلة الكذب، فإن الكذب أسوأ الرزائل وأقبحها، لكونه ينافي المروءة، كما جاء في الأثر الشريف «لا مروءة لكذوب»، إذ أن المراد من الكلام الذى يتميز به الإنسان عن سائر الحيوانات: إخبار الغير عما لا يعلم.. فإذا كان الخبر غير مطابق، لم تحصل فائدة النطق، ويحصل منه اعتقاد غير مطابق.. وذلك من خواص الشيطنة، فالكاذب شيطان.

وكما أن الكذب أقبح الرزائل، فالصدق أحسن الفضائل، كما قال تعالى: ﴿يَعَالَى صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال تعالى فى حق إسماعيل النبى، عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤].

وإذا روعى الصدق فى المواطن كلها، حتى الخاطر والفكر والنية والعمل، صدقت المنامات والواردات والأحوال والمقامات.. ويقال: المواهب فى المشاهدات كأنه أصل شجرة الكمال وبذر ثمرة الأحوال.

والفاضل العلامة بيّن وجه الحصر فى الكذب والصدق فى أربع خصال وأدرج فيها مجالتهما وهى: المنامات.. والواردات.. والأحوال.. والمقامات.. ليعلم أن سر التزييع سار وجار فى أكثر المراتب والمدارج، خصوصاً فى نشأة الإنسانية الأصلية، كما فهم فى المقدمة من قبل.. وسيجئ بيان سر التزييع فى مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

• قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال صاحب كتاب نجم الداية، رحمة الله عليه ونفعنا بعلمه: والإشارة في تحقيق هذه الآية: أن الفلاح الحقيقي لأهل الإيمان موقوف على هذه الخصال الأربع.. فقوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا﴾ أى على مجاهدة النفس بنهيها عن هواها وأمرها بطاعة سيدها، ﴿وَصَابِرُوا﴾ على مراقبة القلوب مع الله بالتسليم والرضا بالأحكام الأزلية عند البلاء والابتلاء، ﴿وَرَابِطُوا﴾ بمراقبة الأرواح إلى الوصول بالله، والانقطاع عما سوى الله، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بحفظ الأسرار عن الالتفات إلى الأغيار، والفناء في الله، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعنى عن حجب الوجود بالفناء في الله، وتفوزون بالبقاء بالله، بتوفيق الله وجذبات عنايته.

• قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وفى هذه الآية أيضاً سر الترتيب مبين، وفى كل لفظ من هذه الألفاظ الأربعة سر التسديس ليس ظاهراً، ولولا خوف التطويل لزيلت فيها أنواع الترتيب والتسديس، وكشفت ما كان مستوراً من أسرار التأويل، مطابقاً لكلام الله رب العالمين وسنة رسوله الأمين ﷺ.

قيل: لفظ ﴿النَّبِيِّينَ﴾ مقابل الأرواح، ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ مقابل القلوب، ولفظ ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ مقابل لنفحات رحمانية وفتوحات إلهية، ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ مقابل الأعمال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

• قوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ [المائدة: ١٢].

قيل: فى الآية إشارة إلى مراتب الصلاة ودرجاتها وهى أربعة: القيام

والركوع والسجود والتشهد، على حسب درجات نزلت من أعلى عليين.. وجوار الرتب إلى أسفل سافلين القلب، وهو العناصر الأربعة التي خلق منها قالب الإنسان، والمتولدة منها أيضاً على أربعة أقسام، ولكل قسم منها ظلمة خاصة تحجبك عن مشاهدة الحق وهي:

**الجمادية:** وخاصيتها التشهد، ثم النباتية: وخاصيتها السجود، ثم الحيوانية: وخاصيتها الركوع، ثم الإنسانية: وخاصيتها القيام.

**فالقيام:** يشير إليك بالتخلص عن حجب أوصاف الإنسانية وأعظمها الكبر، وهو من خاصية النار.

**والركوع:** يشير إليك بالتخلص عن حجب طبع الحيوانية وأعظمها الشهوة وهو خاصية الهواء.

**والسجود:** يشير إليك بالتخلص عن حجب طبع النباتية وأعظمها الحرص على الحرث المنشور والنمو وهو خاصية الماء.

**والتشهد:** يشير إليك بالتخلص عن حجب طبع الجمادية وأعظمها الجمودة، وهي خاصية التراب.. ومن هذه الصفات الأربع تنشأ بقية صفات البشرية.. فإذا تخلصت عن هذه الدركات والحجب، ورجعت بهذه المدارج الأربعة إلى جوار الحق وقربه، فقد أقمت الصلاة مناجياً ربك مشاهداً له.

• قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢].

قال أرباب التأويل من المشايخ في تفسيرها: جعل الله في مقابلة نقباء بني إسرائيل في هذه الأمة من النجباء والبلاء وأعز الأولياء: أربعين رجلاً في كل حال وزمان على أكمل الأعداد، ولتكميل سر التزييع الذي هو السارى في أكثر الحقائق، كما مر تحقيقه، وسيجيئ بمنااسبة ما ذكر عن رسول الله ﷺ: «يكون في هذه الأمة أربعون رجلاً على خلق

إبراهيم عليه السلام<sup>(١)</sup>..

• قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذِ الْكَافِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ حَقًّا يَقْبِضُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

قيل: في الآية إشارة إلى أربع نتائج، وذلك لا يحصل إلا بمقدمتين:

أولهما: الجذبة الإلهية.. وثانيهما: التربية الشيخية.

وأما النتائج:

**فأولها:** الإعراض عن الدنيا وما يتعلق بها بالكلية.. **وثانيها:** التوجه إلى الحق بصدق الطلب (وهما من نتائج الجذبة).. **وثالثها:** تركية النفس عن الأخلاق الذميمة.. **ورابعها:** تخلية القلب بالأخلاق الإلهية (وهما من نتائج التربية الشيخية بالاستعداد لحصول القوة النبوية) فافهم سر التبريع، وكن عارفاً بالحقائق كلها.

قال صاحب تفسير نجم الداية: قيل: أكرم الله أربعة أنبياء منذ صباهم.

**الأول:** عيسى عليه السلام، كما قال في حقه: ﴿وَعَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

**والثاني:** يحيى، عليه السلام، كما قال في حقه: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْهُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]. ومما روى في حكمه: قال عليه السلام: من يحيى بالموافقة، فإنه لا يموت بالمخالفة.. فإن كنت اليوم حياً بالمخالفة، تكن غداً ميتاً بالعقوبة.

**والثالث:** سليمان، عليه السلام، أكرم في صباه بالفهم، كما قال

(١) نص الحديث هو: «لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن» أخرجه الطبراني في الأوسط، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: إسناده حسن. انظر الخبر الدال على الأبدال للسيوطي ص ١٢.

تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ<sup>٤</sup>﴾ [الأنبياء: ٧٩].

والرابع: يوسف، عليه السلام.. أوتى الحكمة فى صباه، فقوى سره لاحتمال البليات.

• قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ<sup>٥</sup>﴾ [الأنعام: ٥٩].

تفسيرها: اعلم أن للغيب مراتب:

الأول: وهو علم الله تعالى المسمى «بالعناية الأولى».

والثانى: غيب عالم الأرواح، وهو انتقاش صورة كل ما وجد وسيوجد من الأزل إلى الأبد فى العالم الأولى العقلى الذى هو روح العالم المسمى بأم الكتاب على وجه كلى، وهو القضاء السابق.

والثالث: عالم القلوب وهو ذلك الانتقاش بعينه مفصلاً تفصيلاً علمياً كلياً وجزئياً فى عالم النفس الكلية التى هى قلب العالم المسمى باللوح المحفوظ.

الرابع: عالم الخيال وهو انتقاش الكائنات بأسرها فى النفوس الجزئية الفلكية، منطبعة فى أجرامها معينة مشخصة، مقارنة أوقاتها على ما يقع بعينه.. وذلك العالم هو المعبر عنه فى الشرع بالسماء الدنيا، إذ هو أقرب مراتب الغيوب إلى عالم الشهادة.. وكل واحد من مراتب الغيوب مطابق فى المراتب الأصلية الإنسانية والأركان وفى السائر بين الحواس الظاهرة والباطنة.

قال الشيخ العربى الحاتمى (قدس الله روحه) فى كتاب مواقع النجوم:

التزم أربعة: الدعاء للمسلمين فى ظهر الغيب.. وسلامة الصدر.. وخدمة الفقراء.. وكن مع كل أحد كما تكون مع نفسك.

• قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اٰلَيْجِئْ اَحَبُّ اِلَىَّ﴾ [يوسف: ٣٣].



يعنى: من ارتكاب شهوات النفس، وارتكاب الذنوب والعصيان.  
وقيل: سمى الدنيا سجنًا للمؤمن لأربعة أوجه:

**الأول:** لأن المسجون ممنوع عن مراده وتصوره كما شاء، وكذا المؤمن ممنوع عما يشاء ويهواه من أمانيه الباطلة والأوقات العاطلة.. ويخاف المسجون كل ساعة أن يخرج ويقام عليه السب منه، كذلك المؤمن يجهد فى دنياه أن يرضى خصماءه، كيلا يخاصمونه بحضرة مولاه غداً.

**الثانى:** أن المسجون يتضرع إلى البواب والحجاب، وكل نفس يتعلق بالملك، ليشفع به إليه فى أمره.. وكذا المؤمن يتوسل بكل أحد إلى الله تعالى، ويسأل الله بكل لسان فى أن ينقذه من مهوى الهلكة.

**والثالث:** أن المسجون يديم رفع الصوت كل يوم، بل كل وقت، لعل الملك يرحمه فى أى وقت من الأوقات.. وكذا المؤمن ينبغى أن لا يفتّر عن رفع الصوت بغضته فى أنواع التضرعات من الذكر والتسبيح والتهليل كل ساعة، فعسى الله أن يرحمه.

**والرابع:** أن المسجون إذا جوزى فى السجن، ولم يفضح بين أيدي الناس، فذلك أهون عليه.. وكذا المؤمن إذا ابتلى فى دار الدنيا، فإنه يحمد الله على أنه جوزى بذنوبه فى هذا العالم الدنى الفانى، ولم تؤخر عقوبته إلى دار البقاء.

فافهم هذه الأمثلة، فإنها لازمة الفهم.

• قوله تعالى: ﴿يُؤَسِّفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦].

قيل: إن الله تعالى سَمى فى القرآن أربعة بالصديق غير اسم المؤمنين:

- سَمى إبراهيم عليه السلام، صديقاً فى قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

- سَمِي إِدْرِيسَ صَدِيقًا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

- وَأَخْبِرَ عَنْ تَسْمِيَةِ يُوسُفَ صَدِيقًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦].

- وَسَمِيَ «أَبُو بَكْرٍ» صَدِيقًا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

هذا وقد خص المولى جلَّ شأنه هؤلاء الصديقين بأربع كرامات:

- أَعْطَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «الْخَلَّةَ» قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

- وَأَعْطَى إِدْرِيسَ «الرَّفْعَةَ»، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

- وَأَعْطَى يُوسُفَ «الْتِمَكِينَ»، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٢١].

- وَأَعْطَى الصِّدِّيقَ «الْخِلَافَةَ»، قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥].

• قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧].

قِيلَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ فَتَحَتْ لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ، فَتَحَتْ لِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ:

- الْأَوَّلُ: فَتَحَتْ أَبْوَابَ النِّعْمَةِ لِلْغَافِلِينَ لِلِاسْتِدْرَاجِ وَالْإِمْهَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

- وَالثَّانِي: فَتَحَتْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ لِلْخِزْيِ وَالنِّكَالِ،

كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١].

- والثالث: فتحت أبواب النار على الكفار للعقوبة والنكال  
والسلاسل والأغلال كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾  
[الزمر: ٧١].

- والرابع: فتحت أبواب الجنان على المؤمنين للفضل والإحسان  
كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر:  
٧٣].

وقيل أيضًا في تفسير هذه الآية: أربعة نفر أمروا بدخول أربعة أبواب  
لأربعة أشياء:

- أمر الحجاج بإتيان البيوت من أبوابها، كما قال تعالى: ﴿وَأَتُوا  
الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، وذلك لموافقة الشرع ومخالفة  
الهوى.

- وأمر أخوة يوسف، عليه السلام، بدخول أبواب مصر، لكمال  
الشفقة وحسن المقال، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ  
وَجِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧].

- وأمر الكفرة بدخول أبواب النيران لإظهار العقوبة والنكال، كما  
قال تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ [النحل: ٢٩].

- وأمر المؤمنين بدخول الجنان لكمال الكرامة وإظهار النوال، كما  
قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:  
٤٩].

• وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَنْصَرُّ إِلَهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

- قال أرباب التأويل من المفسرين: اعلم أن القلوب أربعة:

- الأول: قلب قاس.. وهو قلب الكفار والمنافقين، فاطمئنانه بالدنيا وشهواتها، كقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْمَالِ أَتَوْا بِهَا﴾ [يونس: ٧].

- والثاني: قلب ناس.. وهو قلب المسلم، لقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥]، فاطمئنانه بالتوبة ونعيم الجنة، كقوله تعالى: ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ وَهْدَى﴾ [طه: ١٢٢].

- والثالث: قلب مشتاق.. وهو قلب المؤمن المطيع، فاطمئنانه بذكر الله، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨].

- والرابع: قلب وجدانى.. وهو قلب الأنبياء، عليهم السلام، وخواص الأولياء، فاطمئنانه بالله وبصفاته كقوله لخليله فى جواب قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَئِنْ لَبِطْتُمْ فَلَيْتُ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ولهذا إذا تجلّى الله تبارك وتعالى فى قلب العبد المؤمن يطمئن به، فينعكس نور الاطمئنان من مرآة قلبه على نفسه، فتصير النفس مطمئنة أيضاً، فيتحقق بجذبات العناية وهى خطاب: ارجعى إلى ربك. فافهم جداً تفن سراً تصل خيراً.

• قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُشْكَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩].

قال أهل التأويل من المفسرين فى معنى هذه الآية: واعلم أن الله تبارك وتعالى أعطى لكل شىء من أصناف المخلوقات سمعاً وبصراً ولساناً وفهماً، يسمع كلام الحق، ويصير شواهد الحق، ويتكلم بالحق، ويفهم إشارة الحق.. فتسبيح بعضهم بلسان الحال، كما كانت الحصى

تسبح بين يدي النبي ﷺ.. وتسبح بعضهم بلسان المقال على ما صرح في كتب القوم، وكما قال تعالى: ﴿وَلَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقيل: لسان الحال أنطق من لسان المقال.. لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]. قال نجم الداية في تأويل معناها: في هذه الآية إشارة إلى أربعة معانٍ وحكم أودعها الله فيها:

الأول: ما يتعلق بالله عزَّ وجلَّ.. وهو أنه تعالى أراد أن يظهر به صفة لطفه وقهره وكمال قدرته وحكمته.. فأظهر صفة لطفه بآدم إذ خلقه وشرفه على سائر المخلوقات، وأمر الملائكة بالسجود له، وسائر خصاله لا تحصى.

والثاني: ما يتعلق بآدم، عليه السلام، وهو أنه لما أراد الله تعالى أن يجعله خليفة في الأرض، أودع طينته عند تخميرها بيده أربعين صباحاً، وأدرج في هذه الأربعين خصاله؛ لأن لفظ «الأربعين» أكمل الأعداد، وتجمع مراتب الأعداد، وأسرارها كما مر ذكره وسيذكر فيما بعد.. وأودع فيه سر الخلافة وهو استعداد قبول الفيض الإلهي بلا واسطة، وعلى أكثر الأنبياء، عليهم السلام، بواسطة.. وقد اختصه الله وزينه بهذه الكرامة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، أي من بين سائر المخلوقات.

كما أخبر النبي ﷺ، وكشف القناع عن وجه هذا السر الذي جاء في تكريم آدم، عليه السلام، وقال: «إن الله خلق آدم فتجلى فيه»<sup>(١)</sup>. ولهذا الكرامة صار مسجوداً للملائكة المقربين.

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وأحمد في المسند عن أبي هريرة مرفوعاً.

**والثالث:** ما يتعلق بالملائكة.. وهو أنهم لما خلقوا من النور الرباني العلوى، كان من طبعهم الانقياد لأوامر الله تعالى، والطاعة والعبودية له.. فلما أمروا بالسجود لآدم، عليه السلام، وامتنحوا به، وذلك غاية الامتحان؛ لأن السجود أعلى مراتب العبودية الأربع، فإذا أمر أحد أن يسجد لغير الله، فذلك غاية الامتحان للامتنال، فسجدوا لآدم بالطوع والرغبة من غير كره، امتثالاً وانقياداً لأوامر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وكذلك وجب على كل مؤمن موحد أن يمثل ما أمر به الشرع على كل حال.

**والرابع:** ما يتعلق بإبليس عليه اللعنة.. وهو أنه لما خلق للضلالة والغواية والإضلال والإغواء، خلق من نار، وطبعها الاستعلاء والاستكبار، وأن نظمه الله تعالى في سلك الملائكة، كما نظم بعض المنافقين في زمرة الإسلام، وكساه كسوة الملائكة، كما تشبه بعض الصوفية من أرباب الضلال والإضلال في زى الصوفية، تقليداً لا تحقيقاً، عصمنا الله من التقليد، وأوصلنا إلى نهاية التحقيق.

فلما امتحن إبليس بسجوده لآدم، عليه السلام، في جملة الملائكة، خلع عنه كسوة الرغبة والرغبة، ليميز الله الخبيث من الطيب، فظهر عنه تلك المخادعات، وعاد المشغوم إلى طبعه، فسجد الملائكة، وأبى إبليس واستكبر في غيه، وظهر أنه من الجن، وأنه طبع كافرًا.. حفظنا الله تعالى من شره ووسواسه، بحرمة محمد وآله وصحبه ﷺ وعلى آله وصحبه.

وقيل السر في هذه المراتب: لأن كل مرتبة تقابل ركن من أركان الإنسان الأصلی: بعضها روحاني، وبعضها نفساني وبعضها جسماني، وبعضها قلبي باطني صنوبرى ذاتي.. لأجل ذلك جيء بالمراتب، كما لا يخفى على العارف التأمل الصادق.

• قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبْتِنَا إِنَّا نُنْزِلُ عَلَيْهِمُ آيَاتٍ لِرَحْمَتٍ خَرَوْا سُجَّدًا وَكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

قال بعض العلماء: فى هذه الآية سر الترتيب ظاهر.. وقال تعالى بعد هذه الآية الكريمة الجامعة: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ [٥٩] إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٥٩]، وقال تعالى فى هذه السورة فى وصف الجنة وأهلها ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، والسلام على أربعة أقسام:

• يقال أهل الجنة أهل السلامة.

• وسميت الجنة دار السلام.

• والسلام من بنى آدم.

• والسلام من الملائكة لأن تحيتهم فيها سلام.

وهذه الأقسام الأربعة من السلام معتبر ومطابق للأصول.. لذلك يكون سلام المؤمن بلسانه وبقلبه وبروحه وبنطقه (يعنى بنفسه).. فافهم التوفيق الإلهى فى كل شىء.

• قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ﴾ [مريم: ٦٥].

الآية تشير إلى أنه خالق ورب لسموات الأرض وأرض الأجساد وما بينهما من النفس والقلب.. فاعبده بهذه الأربع:

قيل عبادة الروح: ببذل الوجود لنيل المعبود.

وعبادة جسدك إياه: بأركان الطريقة وهى الائتمار بما أمرك الله تعالى، والانتهاز عما نهاك الله عنه.

وعبادة نفسك: بأداب الطريقة وهى ترك موافقة هوانا، ولزوم ملازمة هواه.

وعبادة قلبك: بالإعراض عن الدنيا وما فيها، والإقبال على الآخرة ومكارمها.

ووجه الحصر فى الأربع غير خفى على الفطن البالغ الفهم الذكى.

• وقوله تعالى فى سورة طه مخاطباً موسى، عليه السلام: ﴿فَنَجِّنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَنَنَّاكَ قُتُوًّا﴾ [طه: ٤٠].

يعنى: نجيناك من أنواع ألم الفتن وهى أربعة:

الأولى: فتنة صحبة موسى، عليه السلام، مع فرعون، وتربيته عند قومه المخالف لشرعه، والتحفظ فى التدين بدين غيرهم.

الثانية: فتنة قتل نفس بغير حق، والفرار من فرعون بسبب قتل قبطى (فتى منهم).

والثالثة: بابتلاء ابنتى شعيب نبي الله، عليه السلام، واحتياجهما إليه فى السعى.. فلولا حفظ الله تعالى له، لمال ميل البشر إليهما.

والرابعة: ابتلاء موسى، عليه السلام، فى خدمة شعيب، عليه السلام، وصحبته واستجارته، فتوفيق الله تعالى خرج عن عهدة حقوقه.

وتقسم الفتن إلى الأربعة ظاهر للمستبصر الفهم.

• قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فاعلم أن للمحبة أصولاً وأدباً، وذلك لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة فى نفسها، ثم معرفة شروطها وأسبابها.

وهذه الشروط والأسباب تنكشف بحفظ الأصول وهى أربعة:



**الأول:** أنه لا يتصور المحبة إلا بعد معرفة وإدراك، إذ لا يحب الإنسان ما لا يعرفه، ولذلك لم يتصور أن يتصف الحماد بالحب، بل الحب من خاصية الحى المدرك، فكل ما فى إدراكه لذة وراحة، فهو محبوب عند المدرك، وما فى إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك.. فهذا أصل فى حقيقة معنى الحب.

- **الثانى:** أن الحب لما كان تابعاً للإدراك والمعرفة، انقسم لا محالة بحسب انقسام المحبة والمدركات والحواس إلى أقسام شتى، فلكل حاسة إدراك نوع من المدركات، وذلك فى الإنسان على أربع مراتب:

**الأول:** إدراك الجسد، والثانى: إدراك النفس، والثالث: إدراك القلب، والرابع: إدراك الروح.

بهذه الأمثلة استغن عن الشرح والبيان؛ لأنها قد سبقت أمثالها، ولكل واحد منها لذة فى بعض المدركات، وفى الطبع ميل إليها بسبب تلك اللذة، فكانت محبوباً عند الطبع السليم.. كلذة العين مثلاً عند رؤية المبصرات الجميلة.. ولذة الذوق فى المطعم.. وكذا قال الرسول الأكرم ﷺ: «حبب إلى من دياكم ثلاث»<sup>(١)</sup>.

- **الثالث:** أن الإنسان لا يخفى أثر نفسه، ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه.

وهل يتصور أن يحب الإنسان غيره ليس من أجل نفسه.. هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته، ما لم يرجو منه حظ إلى الحب.. وللمحبة أسباب كالإحسان، فإن الإنسان عبید الإحسان، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها،

(١) قال السنخاوى فى المقاصد الحسنة: لم أقف على لفظ ثلاث.. وقال الزركشى فى التذكرة: رواه النسائى والحاكم من حديث أنس بدون لفظ ثلاث.. وذكره القارى فى الأسرار المرفوعة فى الأحاديث الموضوعة ص ١٠٧، وقال نفس الكلام.

وبغض من أساء إليها.. وهذا الحب لذاته لاحظ منه وراء ذاته، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذى يوثق بدوامه، فإن كل جمال هو محبوب؛ لأن الجمال عين اللذة، واللذة محبوبة، والنظر إلى الجمال الحسن محبوب لذاته، كما أن النظر إلى الخضرة وإلى الماء الجارى لذاته، لا لشرب الماء وأكل الخضرة.

- الرابع: فى بيان معنى الحسن والجمال.. فاعلم أن بعض الناس زعم أن الحسن الأغلب فى الأشكال وامتداد القامة، فيفطن ما ليس مبصراً ولا شكلاً ولا متلوئاً متقدراً، فلا يتصور حسنه، وهذا منه خطأ ظاهر.. يلزم من هذا عدم الالتفات إلى حسن الصوت وحسن الهيئة، فالعين تلتذ بحسن الهيئة، والأذن تلتذ باستماع النغمات الحسنة الطيبة.. وجميع المدركات منقسمة إلى حسن وقبيح، وغير ذلك من الأمثلة التى حررت فى الأصل، فاطلبها منه.. والأصل كتاب الإحياء للغزالي.

• قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَفْوَثَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠].

يعنى: تقوى البشرية الأصلية الإنسانية فى أربعة أيام، أى مع يومى خلق الأرض (يعنى يومى روح الحيوانى وروح الطبيعى) وبذلك تكون الأيام ستة، يشير بها إلى قوى البشرية الأصلية الإنسانية وهى أربع كما قال تعالى فى سورة طه: ﴿وَأَمَرَ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ [طه: ١٣٢].

فآلية فيها إشارة إلى الأركان الأصلية الأربعة الإنسانية الوهية وهى: الجسد، والقلب، والروح، والنفس.. وإلى العناصر الأربعة.

يعنى: يتوجه العبد إلى عبادة ربه بما يلى:

أولاً: بتطهير قلبه من الشرك.

وثانياً: يتوجه بنفسه، يعنى يريد أن يعلم ويعرف نفسه وذاته، ليكون وسيلة إلى معرفة ربه.

ثالثاً: أن يتوجه ظاهراً بجسده لتكميل حقوق الله، وهى العبودية الواجبة على العبد إقامتها كما جاء فى الحديث القدسى.. خصوصاً فى الآية المنصوص عليها بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

رابعاً: أن يتوجه باطنًا، (يعنى بحق السر) بروحه ليحصل له الحقيقة ويتنور قلبه، ليكون سبباً لعروج الروح بالأعمال الصالحة إلى السماوات، وإلى قرب مولاه عز وجل كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكُلُّ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وقيل: يشير فيها إلى الأصول الأربعة: يعنى يتوجه العبد إلى عبادة ربه بالجسد ظاهراً، وبالقلب والنفس والروح باطنًا.

**فصلالة الجسد:** من الصلوات المفروضة والنوافل، ومن سائر الأمور فى أوقاتها.

**وصلاة النفس:** عروجها عن حضيض البشرية إلى ذروة الروحانية، وخروجها عن أوصافها، لدخول الجنة المشرفة بالإضافة إليه تعالى فى قوله جل شأنه: ﴿فَادْخُلِي فِي عِذِّي ﴿١٥﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٩، ٣٠].

**وصلاة القلب:** دوام المراقبة، ولزوم الحاضرة، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣].

**وصلاة الروح:** فناؤه فى الله وبقاؤه بالله كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]؛ لأن الفانى عن نفسه هو الباقي بربه تعالى وتقدس اسمه.

• قوله تعالى: ﴿وَلَنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١].

والانقلاب يتصور بأربعة أوجه:

الوجه الأول: بتبدل الأفراد بالإنكار والاعتراض.

والثاني: بتبدل التسليم بالأنبياء.

والثالث: بتبدل الإرادة بالارتداد.

والرابع: بتبدل الصحة بالهجران.

• وفي مقابل هذا الانقلاب هناك ذكر أربع خصال للمجدين فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٥].

وكذا من تفسير الشيوخ: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ يَتَابِعُونَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦٠].

قيل: فى هذه الآية إشارة إلى العبادة بالأركان الأربعة الأصلية، وهى: الجسد، والقلب، والنفس، والروح.

وقيل: الإشفاق يتصور فى النفس.. والإيمان بالسر والعلانية بشواهد الحق يتصور بالجسد لأن العبادة لا تحصل إلا بالجسد أولاً.

• قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [البينة: ٥].

والتحرز من الشرك لا يتصور إلا بالتوجه إلى حضرته تعالى بصدق الطلب فى العبودية، وخلوص الروح له فلا يلتفتون إلى سواهم فى الدنيا ولا الآخرة.

وجلاء القلب لا يتصور إلا بالخوف والخشية فى العبادات ظاهراً وباطناً.. ولا يكن العروج من حضيض ذلك الجسد المتزى إلا بالتدرج فى المراتب.. لذلك جاء الحق سبحانه فى الآية بالمراتب الأربع لتكميل

مراتب الإنسان.. وحفظ هذا لا بد منه لكل طالب صادق فى خلوصه فى سلوكه.

• قوله تعالى فى سورة النور: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى ءَاتٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

يعنى: فى كل ركن من الأركان الأصلية الإنسانية زكاة.

فزكاة الجسد: أداء الفرائض.

وزكاة النفس: أداء الأمانات فى قوى الإنسان وحواسة، ظاهرة وباطنة.

وأداء زكاة القلب: التوجه إلى الله بحسن النية.

وأداء زكاة الروح: تزكية البدن فى كل حيث خفيها وجليها.

• قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].  
اعلم أن النور على أربعة أوجه:

أولها: نور يظهر الأشياء للأبصار وهو لا يراها، كنور الشمس وأمثالها، فهو يظهر الأشياء المخفية فى الظلمة ولا يراها.

وثانيها: نور البصر، وهو لا يظهر الأشياء للإبصار، ولكنه يراها.. وهذا النور أشرف من الأول.

وثالثها: نور العقل، وهو يظهر الأشياء المعقولة المخفية فى ظلمة الجهل للبصائر، وهو يدركها ويراهها.

ورابعها: نور الحق تعالى، وهو يظهر الأشياء المدومة المخفية فى العدم للإبصار فى الملك والملكوت، ويراهها فى الوجود كما كان يراها فى العدم؛ لأنها موجودة فى علم الله تعالى، وإن كانت معدومة فى ذاتها، مما لا يغير علم الله تعالى، ورؤيته بإظهارها فى الوجود، بل كان

التغير راجعاً إلى ذوات الأشياء وصفاتها عند الإيجاد والتكوين.

فتحقيق قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مظهرها ومبديها وموجدتها من العدم بكمال القدرة الأزلية.

• قوله تعالى: ﴿لَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٤١].

إشارة إلى تسبيح الإنسان والملك، وإلى سائر الحيوانات والجمادات. وفيها إشارة إلى أنواع التسبيحات في أطوار الإنسان ومراتبها الأصلية، كما مرّ توجيهه مراراً.

• قوله تعالى: ﴿وَأَجْمَعْنَا لِلشَّقِيَّةِ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

يشير إلى: متقى الجسد: الذي يتقى بالأوامر والنواهي.. والمتقى بالنفس: بالأوصاف الحميدة من الأوصاف الذميمة.. ومتقى القلب: بحبة الله تعالى من حبة الأغيار.. ومتقى الروح بالله عما سواه.

عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله، وسالم، ومعاذ، وأبى بن كعب<sup>(١)</sup>»، وسالم هو مولى أبى حنيفة.

• قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

يشير إلى أن للغيب أربع مراتب:

الأول: هو أهل الأرض في الأرض والسماء.. وهى كناية عن أرض الجسد، وليس للإنسان إمكان الوصول إليه إلا بالإرادة، يعنى إرادة الحق جلّ شأنه، كما قال تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ مَا يَتَنَبَّأُ فِي آلْفَاكٍ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

(١) رواه عبد الله بن عمرو بن العاص، صحيح البخارى، كتاب المناقب حديث رقم

والثاني: هو غيب أهل السماء فى السماء والأرض.. وليس لهم إمكان الوصول إليه إلا بتعليم الحق، مثل الأسماء كما قال تعالى: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴿البقرة: ٣١، ٣٢﴾، ومن هنا يتبين لك أن الله تعالى قد كرم آدم بكرامة لم يكرم بها الملائكة، وهى اطلاعه على مغيبات لم تطلع عليها الملائكة وذلك بتعليم الله تعالى له علم الأسماء كلها.

والثالث: هو غيب الخصوص بالحضرة، ولا سبيل لأهل السماوات والأرض إلى علمه إلا من ارتضى من رسول له، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿١٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴿الجن: ٢٦﴾.. وبهذا يُستدل على فضيلة الرسول على الملائكة؛ لأن الله تعالى استخصهم بإظهاره على غيبه دون الملائكة، ولهذا سجدوا لآدم؛ لأنه كان مخصوصاً بإظهار الله إياه على غيبه، وذلك كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم فتجلى فيه<sup>(١)</sup>».

والرابع: غيب استأثر الله تعالى بعلمه، وهو علم قيام الساعة، فلا يعلمه إلا الله تعالى. كما قال جل شأنه: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

● قوله تعالى: ﴿وَمَنْ التَّائِبِ مَنْ يَشْتَرِ لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾ [لقمان: ٦].  
تشير الآية إلى أن كل حديث يشغل صاحبها عن ذكر الله فهو لهو الحديث.. والمراد من لهو الحديث الفناء.. والفناء على أربع مراتب:  
- منها ما هى محرمة، وهى ما صرح الشرع بحرمتها مثل المزامير وغيرها.

ومنها لم يتعرض الشرع أنها حلال أم حرام.

(١) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد، وأحمد فى المسند عن أبى هريرة مرفوعاً.

• قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

الآية تشير في الصبر إلى أربع مراتب:

قيل: الصبر قد يكون بالجسد، وقد يكون بالنفس، وقد يكون بالقلب، وقد يكون بالروح، ومع هذا يشير إلى معاني مختلفة منها:

أن في شرط عبودية خواص العباد من الأنبياء والأولياء الصبر عند نزول البلاء والرضا بمرحان أحكام القضاء.

- ومنها: ليعلم أن الله تعالى لو سَلَطَ الشيطان على بعض أنبيائه أو أوليائه لا يكون لإهانتهم، بل يكون لعزتهم وإعانتهم على البلوغ إلى مرتبة نعم العبدية، ودرجة الصابر الشاكر.

- ومنها: أن العباد من الأنبياء والأولياء لو لم يكونوا في كنف عصمة الله وحفظه، لمستهم الشياطين بنصب وعذاب.

- ومنها: أن من آداب العبودية إجلال الربوبية وإعفائها من إحالة الضر والبلاء والمحن عليها، بل على الشيطان، كما قال يوسف، عليه السلام: ﴿نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠].. وقال يوشع: ﴿وَمَا أَسْنِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣].. وقال موسى، عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥]، ولتعلم: أنه ما بلغ من الرجال البالغين إلا البلوى، وتفويض الأمور إلى المولى، والرضا بما يجرى عليهم من القضاء.

• قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

قيل: هذه الآية تشير إلى أربعة معاني:



الأول: أن أهل البشارة فيها يكون مخصوصاً بخاصية «العبدية» التى هى مضافة إلى الله تعالى.. أى يكون حراً عما سوى الله، عبداً لله.

والثانى: أنتم مبشرون بالوصال والوصول، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَيْنَاهُمْ اللَّهُ﴾ [الزمر: ١٨] أى إلى الحضرة.

والثالث: أن الألف واللام فى «القول»، للعموم، فيقتضى أن لهم حسن الاستماع فى كل قول من القرآن وغيره.

والرابع: أن القول يسمع من أربعة أوجه: وجه من الإنسان.. والثانى: من الشيطان.. والثالث: من الملك.. والرابع: من الله عز وجل.

فيسمع من الإنسان: الخير أو الشر.. ويسمع من الشيطان: الشر.. ومن الملائكة: دعوة الطاعات.. ومن الله جل ذكره: الخطاب فى حقائق التوحيد، والدعوة إلى الحضرة كما قال تعالى: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفجر: ٢٨]، فافهم سر التزييع فى كل شىء.

• قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [الزمر: ٧٠].

أى من الخير والشر والطاعة والمعصية.. وهذه الأربعة تقابل مراتب الأصول، يعنى: الأعمال على أربعة أقسام:

قسم صدر من الجسد وهى الطاعة إلى ربه.

وقسم صدر من النفس الأمانة بالسوء وهى المعصية.

وقسم صدر من الروح وهو الخير.

وقسم صدر من القلب من الخير والشر، وهذا محل الخطر، لأجل ذلك قال النبى ﷺ: «اللهم ثبت قلبى على دينك»<sup>(١)</sup> «والقلب بين إصبعين من

(١) حديث وارد أخرجه البيهقى فى السنن، حديث رقم (٣٨٣٤).

أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء<sup>(١)</sup>، أعاذنا الله وإياكم من تقلب القلوب والدين الحاصل في القلب القاسى العاصى إلى ربه.. فافهم ذلك تكن عارفاً أديباً كاملاً.

• قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [غافر: ٦١].

يشير إلى أن سكون الناس في الليل على أربعة أقسام:

الأول: أهل الغفلة.. يسكنون إلى استراحة النفس والأبدان.

والثاني: أهل الشهوة.. يسكنون بطلب شهوة النفس من الرجال والنساء والمأكولات والمشروبات.

والثالث: أهل الطاعة.. يسكنون إلى حلاوة أعمالهم من الصلوات وسائر العبادات.

والرابع: أهل المحبة.. يسكنون إلى أنين النفوس، وحنين القلوب، واشتغال الأرواح بنار الأشواق.. أولئك أصحاب الاشتياق أبداً، وفي سلوكهم الاحتراق.

فانظر مراتب أهل السلوك واعتبر بها.. قال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]. فالاعتبار لا يكون إلا بالعقل، والعقل عقلان: دنيوى وأخروى.. الأول يسمى: بعقل المعاش، والثاني: بعقل المعاد.. والله أعلم بحقائق الأمور.

• قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩].

قال بعض أرباب التأويل من المفسرين: إن الله خاطب عباده بأربعة أوجه:

(١) حديث وارد ذكره الزبيدى في إتحاف السادة المتقين جـ ٧، ص ٣٠٢.

- مخاطب العابدين بقوله: الله لطيف بعباده.. أى يعلم غوامض أحوالهم من دقيق الرياء والتصنع، لئلا يعجبوا بأحوالهم وأعمالهم.

- ومخاطب العصاة بقوله لطيف: لئلا يأسوا من إحسانه.

- ومخاطب الفقراء بقوله لطيف: أى أنه محسن لكم، يرزق من يشاء، كما قال تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

- ومخاطب الأغنياء بقوله لطيف: ليعلموا أنه يعلم دقائق معاملتهم فى جمع المال من غير وجهه.

ومن جملة لطفه تعالى: أنه جعلهم مظهر صفات لطفه، وأنه عرفهم أنه لطيف، لولا لطفه ما عرفوه، وأنه زين أسرارهم بأنوار العرفان، وكاشفهم بالعين والعيان، وغير ذلك من لطفه العميم على عباده لا يحصى.. وهذا منازل الأسرار فى مسالك الأبرار، خذوا زينتكم منى أيها الأخيار.

• قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿وَلَتَكُنْ﴾ هذا أمر، وظاهر الأمر الإيجاب، ويدل على إيجاب الأمر والنهى آيات وأخبار وأحاديث.. فلنقتصر بآية واحدة فراراً عن التفصيل، ومن أراد الوقوف على كمالهما، فعليه بالإحياء للغزالي، رحمه الله ونفعنا من مدده وعلمه.

وأركان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأنواعهما مشروح فى المفصلات، ولكن الأمر والنهى أربعة أقسام:

الأول: المحتسب.. والثانى: المحتسب فيه.. والثالث: المحتسب عليه.. والرابع: نفس الاحتساب.. فهذه أربعة أركان، ولكل ركن منها شروط

وآداب، على ما ذكر في شرعة الإسلام وكتاب الإحياء وغيرهما:

### الركن الأول: المحتسب:

وهو أن يكون مكلفاً مسلماً قادراً، ولا بد للمحتسب أن يتأدب بآداب الشريعة والطريقة كيلا يائثم فيما أمر ونهى، كما قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤].. وقال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، وعما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«مررت ليلة أسرى بى بقوم تقرض شفاهم بمقاريض من نار، فقلت: من أنتم؟ قالوا: كنا نأمر بالمعروف ولا نأتيه، وننهى عن الشر ونأتيه<sup>(١)</sup>». وقال تعالى لعيسى، عليه السلام: «عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستحي منى».

وسائر الشروط المذكورة في الأصل، ولكن في زماننا كثيراً من الناس يسعون إلى الحكام من الجبايرة للغرض من مطالب الدنيا والنفس، ويقع بذلك في المكروه ذنباً وعقباً.

ومطالب الخلق ترجع إلى أمور أربعة.. الأول: فى العلم.. والثانى: فى البدن والصحة والسلامة.. والثالث: إما فى المال أو الثروة.. والرابع: قيام الجاه فى قلوب الناس.

ومع هذه الشروط أو عدمها، لا يكون الإنسان مرخصاً فى ترك الأمر بالمعروف أصلاً كما ذكر فى الشرعة للفاضل العلامة سيد على زاده.

### الركن الثانى للحسبة: المحتسب فيه:

(١) أخرجه البيهقى فى كتاب دلائل النبوة، ج٢، ص٣٩٨، باب المعراج.

أى ما فيه الحسبة، وهو كل منكر، موجود فى الحال، ظاهر للمحتسب بغير تجسس معلوم، كونه منكراً بغير اجتهد.. فهذه أربعة شروط:

**الأول:** أن يكون منكراً، ونعنى به أن يكون محذور الوقوع فى الشرع، كما رأى أن المجنون يزنى، وهذا نفس المنكر ولا بد من المنع عنه، وإن لم يخاطب المجنون بذلك.

**والثاني:** أن يكون موجوداً فى الحال؛ لأن كثيراً من المنكرات متساقط بالتقادم كما أن من شرب الخمر ولكن تاب وفرغ، ومضت الأيام بعد الشرب، لم يواخذ بذلك حيث سقط الحد بالتقادم.. وكذلك بعض المنكر لم يوجد فى الحال، ولكن يخاف وجوده، كما أن الخلوة مع الأجنبية معصية يوجب الزنا.. وما يجرى مجرى هذه الأمثلة.

**الشرط الثالث:** أن يكون المنكر ظاهراً للمحتسب بغير تجسس، فكل من أسر معصية فى داره وأغلق بابه لا يجوز أن يحتسب عليه.. وقد نهى الله عنه فى القرآن وقصته مشهورة وقعت زمان الخلافة فى العصر الأول.

**الشرط الرابع:** أن يكون منكراً معلوماً بغير اجتهد، ولا يحتسب كل ما هو فى محل الاجتهاد فلا حسبة فيه.. فليس للحنفى أن ينكر بعض أفعال الشافعى والمالكي. فليس من الحسبة، لا للشافعى ولا لغيره من الأئمة أن ينكر على الأخرى أو يحتسب فى ذلك.

### الركن الثالث: المحتسب عليه:

وشروطه: أن يكون بصفة يصير الفعل الممنوع منه فى حقه منكراً؛ لأن بعض المنكرات ليس بمنكر فى حق الفاعل والمركب، ولا يشترط أن يكون المحتسب عليه إنساناً، كما أن البهيمة تلتف زرع الغير، وفيه الاحتساب بوجهين:

### الركن الرابع: نفس الاحتساب:

وله درجات وآداب هي: التعرف.. ثم التعريف.. ثم النهي.. ثم الوعظ والنصح.. ثم السب والتعنيف.. ثم التغير بالبر.. ثم الضرب.

• قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

التوكل من لوازم الإسلام.. والحق جلّ شأنه يعنى: إن كمل إيمانكم وبقينكم بحيث أثر فى نفوسكم، وجعلها خالصة لله فانية فيه، لزم التوكل عليه.. وذلك الفناء على أربعة أقسام، وسر ذلك ظاهر للعاقل:

وأول مرتبة الفناء وأقسامها: فناء الأفعال.. والثانى: فناء الصفات.. والثالث: فناء الوجود.. والرابع: فناء الذوات.

• قوله تعالى: ﴿يَقَيِّتُ اللّٰهُ خَيْرَ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦].

أى إن كنتم مصدقين ببقاء شىء.. والتصديق ببقاء الأحوال والذوات منحصر فى أربعة أقسام:

أولاً: بمعنى فيما يبقى لكم عند الله تعالى فى الكمالات الدنيوية.

وثانياً: فى السعادات الأخروية.

وثالثاً: فى اليقينيات العقلية.

ورابعاً: فى المكاسب العملية والعلمية.

وهذا خير لكم من تلك المكاسب الفانية، التى تحملون على أنفسكم بالسعى فى كسبها وتحصيلها، ثم تتركونها بالموت، ولا يبقى منها معكم شىء إلا وبال العقبات والعذاب. وإبقاء المكاسب فى الأعمال والأحوال منحصرة فى الأربعة أقسام السابقة وهى الكمالات الدنيوية والسعادات

الأخروية واليقينيات العقلية والمكاسب العلمية والعملية.. ووجه الحصر فى الأربعة ظاهر ومطابق إلى الأصول المعهودة.

• قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ﴾ [يوسف: ٢٢]،  
﴿وَلَنَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

يعنى: لا يعلم الناس سر أمر الله، وسر جريان حكمه بين العباد..  
يعنى الحكمة والعلم تحصل بالاجتهاد، والسعى، والتزبية، والإقدام..  
ومعطى كل ذلك هو الله تعالى المربى كل شىء.. وكذلك الطلب والإرادة والرياضة والعبادة، وهذه الأربعة مقابلة لما قبلها من الاجتهاد والسعى والتزبية والإقدام.. وذلك على أربعة أقسام، وكل قسم على عشرة منازل من منازل الوجودى والعارضى، حتى يكون أربعين قسمًا ومنزلًا، لتكميل سر التزبيع ظاهرًا وباطنًا، لفظًا ومعنى. كذلك لا يحصل لأحد الشرف والكمال قبل الأربعين، وهذا فى الأكثر وقوعًا.

• قوله تعالى: ﴿يَسْمِعُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ﴾ [الرعد: ٣٩]، أى: عن الألواح الجزئية التى هى النفوس السماوية من النفوس الثابتة فيها: ﴿وَرُيِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، أى: لوح القضاء السابق الذى هو: «العقل الكلى» المنتقش بكل ما كان وما يكون أزلاً وأبدًا على الوجه الكلى.

واعلم أن الألواح على أربعة أقسام:

الأول: لوح القضاء السابق العالى عن المحو والإثبات وهو لوح العقل الأول.

الثانى: لوح القدر، أى لوح النفس الناطقة الكلية التى يفصل فيها كليات ما فى اللوح الأول وهو المسمى باللوح المحفوظ.

الثالث: لوح النفس الجزئية السماوية.. وينتقش فيها كل ما فى هذا

العالم بشكله وهيئته ومقداره، وهو المسمى بالسماء الدنيا.. وهو بمثابة الجبال للعالم، كما أن الأول بمثابة روحه، والثاني بمثابة قلبه.

والرابع: لوح الهيولى القابلة للصور فى عالم الشهادة.

وهذا نعم التزييع مطابقاً إلى الأصول، يفهم كل من له أدنى ملابسة فى أصول التزييع.

• قوله تعالى: ﴿أَنْتَ يَكُونُ لِي غَلْمٌ وَكَانَتْ أَمْرًا قِيَّامًا﴾

[مريم: ٨].

لأنه كان يطلب ولدًا حقيقاً يلى أمره، وسلك طريقه فى القيام بأمر الدين، وإن لم يكن من نسله، لعدم أهلية مواليه لذلك، فيكرر البشارة، وهده إلى سهولة ذلك فى قدرته، فالتمس علامة تدل عليه، فهدها إليها، وأنجز وعده باسمه الصادق، فرحمه بهيته يحبى له.. فاقضى الأحوال الأربعة: فى حال الوعد والبشارة وإجابته بالرحمة عليه بالأسماء الخمسة التى أشار إليها فى أول السورة: الكاف والهاء والياء والعين والصاد. وكذلك السر الجلى: أتى بالأركان الأربعة مطابقاً لأركان الأصلية الذاتى الوضعى الأولى فى النشأة الإنسانية الأولى.

• قوله تعالى: ﴿فَأَتَى السَّحَرَةُ مُجَّاءً﴾ [طه: ٧٠].

أى: منصفين مذعنين مقرين بكون موسى، عليه السلام، على الحق فيما جاء به لما عرفوه من صدق النية، وظهور المعجزة، وقيام الحجة. وحلية البرهان، لما شاهدوا هذه الأركان الأربعة فى موسى، عليه السلام؛ لأن مبادئ خوارق العادات ثلاثة، وتكون مع التوجه التام إليها أربعة كما جاء فى الحديث.

واعلم أن الساحر أقرب الناس استعداداً، كما أن أرباب البدع وأصحاب الإلحاد من الزنادقة أذكى الناس طبعاً، خصوصاً علماء الظاهر



من الشيعة؛ لأجل ذلك مالوا عن نهج الشرع.. والفرق بين السحر والمعجزة: أن السحر له خواص التركيب وخط المواد العنصرية والصور، وجمع الأحلاط المختلفة المزاج والجوهر، وهو من باب النيرانجات<sup>(١)</sup>، وإما من باب جمع القوى السماوية واتصالها بقوى الأجرام.

• قوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءَهُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شَهَادَةٍ﴾ [النور: ١٣].

قبل: طلب الشهادة على الزنا أربعة.. وسر ذلك: أن السبب في الحقيقة «أربعة» علته للسحر.. وأما الأسباب: لأن الرايين اثنان، ولزوم الإشهاد لكل واحد أيضًا اثنان فيكون المطلوب أربعًا.

• قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

يعنى بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أى: الإيمان اليقيني.. ﴿أَرْكَعُوا﴾ بغضارف الصفات<sup>(٢)</sup>.. ﴿وَاسْجُدُوا﴾ بفناء الذات.. ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ فى مقام الاستقامة بالوجود الموهوب، فإن من بقى منه بقية لم يمكنه أن يعبد الله حق عبادته، إذ العبادة إنما تكون بقدر المعرفة.. ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ بالتكميل والإرشاد.. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بالنجاة من وجود العبثية والتلويح.

فالله سبحانه وتعالى أمر فى كتابه المبين حفظ أربع شرائط من شرائط الإسلام، وهذه الشرائط الأربع جامعة جميع شرائط الإيمان والإسلام وجميع العبادات ولفظ فعل الخير جامع لجميع العبادات والعادات.

• قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَلَى الْآَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [١٢] وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا [١٣] وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ

(١) النيرانجات: يقصد بها الأعمال السحرية.

(٢) يقصد بغضارف الصفات: أى الصفات الهيئية اللينة.

عَرَامًا ﴿١٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿الفرقان: ٦٣ - ٦٨﴾.

إن الله سبحانه وتعالى جمع جميع أجناس الفضائل فى هذه الآيات:

فقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ يعنى المخصوصون بقبول فيض هذا الاسم بسعة الاستعداد. ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، أى: الذين اطمأنت نفوسهم بنور السكينة، وامتنعت عن البطش بمقتضى الطبيعة.. فهم هينون فى الحركات البدنية، لتمرن أعضائهم بهيئة الطمأنينة.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، أى: إذا خاطبهم السفهاء يسلمون مقالهم ولا يعارضون، لانتشائهم بالرحمة، وبعد حالهم عن ظهور النفس، وكبر نفوسهم بالتقوى بنور القلب من أن تتأثر بالإمداد وتضطرب.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾، أى: الذين هم فى مقام النفس يبيتون بالإرادة، قائمين بصفات القلب.. ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ﴾، أى: بهذا الدعاء وصفهم بالتركية التامة والفناء عن جميع صفات النفس من الرزائل الموبقة.

ثم وصفهم تعالى بجميع أجناس الفضائل الأربع، وذلك هو حياتهم بالقلب بعد موتهم عن النفس، كما قيل: «مت بالإرادة تحيا بالطبيعة»:

- فالقيام بين الإسراف والاقتار فى الإنفاق هو العدل والتوحيد المشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ﴾ هو أساس فضيلة الحكمة، ومن اتصف بهذه الفضائل فقد اتصف بجميع أنواع الفضائل.

- والامتناع عن قتل النفس المحرمة إشارة إلى فضيلة الشجاعة.. وكذلك الامتناع عن الزنا.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢]، أى: لا يحضرون أهل الزور والمشتغلين بمتاع الغرور، فإن أهل الدنيا أهل الزور، يحسبون الفانى باقياً، والقبيح حسناً، ويعدون المعلوم موجوداً، والشر خيراً لهم.. فهم الكذابين المبطلون، لا يوصفون بإتيان الطاعات وإقامة الصلاة.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الفرقان: ٧٣]، أى: كوشفوا بالمعارف والحقائق.

هكذا فسر العلماء من المفسرين تلك الآيات النيرة من سورة الفرقان.

• قوله تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَفَّفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فى هذه الآية إشارة إلى الأركان الأربعة الكائنة فى أصول الإنسان:

- فى الأول: إشارة بإرسال الحصباء بالريح العاصف إلى تألم الروح الحيوانى، ليحازى بما يناسبه وهو الريح.

- الثانى: الأرض إشارة إلى أرض الجسد.

- بالصيحة: إشارة إلى النفس أو إلى القلب الذى عليه ران، بسبب كسب الأعمال الفاسدة.

- وبالغرق: إشارة إلى النفس الأمارة بالسوء، وإشارة إلى ظلمة القلب الذى عليه ران بظلمة الذنوب.. والله أعلم بمراده.

• قوله تعالى: ﴿وَمِنْ زَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

أى: تشكرون النعمة الظاهرة والباطنة والجسمانية والروحانية فى دنياكم وأخراكم باستعمالها لوجه الله، فيما وجب عليكم من طاعته فى كل مقام به وفيه وله.. فالله سبحانه وتعالى جعل جميع أجناس النعم على أربعة أجناس.. وقسم فى هذه الآية الليل وهو للسكون، والنهار للسعى والابتغاء والانتقاء.

كما قال تعالى: هو الأول والآخر والظاهر والباطن.. وفيها أيضاً سر الترتيب ظاهر من وجهين، كما مرّ بيانه، وسيجىء من بعد فى محله.

• قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْرَوْنَا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١].

أى: مادة لطيفة، ولطافتها مرتفعة فى القلب.. وقد جاء فى الحديث: «إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه ملكاً بأربع كلمات، فيكتب أجله ورزقه وشقى أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح ويعضده»<sup>(١)</sup>.

وفى حديث آخر: «إن نفخ الجنين يكون بعد أربعة أشهر من وقت الحمل»<sup>(٢)</sup>.

ووجه الحصر فى الأربعين: لتكميل أصول الترتيب على ما فهم فى المقدمة، ليعلم أن أكثر الأشياء على أصول الترتيب.

(١) عن عبد الله بن مسعود، صحيح البخارى، متفق عليه.

(٢) ورد فى حديث لعبد الله بن مسعود، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٠٨)، ٥٩ كتاب بدء الخلق، ٦ باب ذكر الملائكة.. ولفظ الحديث: «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً يؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح».

• قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَئِكَ أَجْنَحُ مَشَى وَتِلْكَ أَرْبَعُ زَبِيدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١].

الآية تعبر عن الجهات الست الكائنة في الملكوت السماوية والأرضية بالأجنحة، جعلها الله رسلاً مرسله إلى الأنبياء والأولياء بالإلهام واللقاء الخواطر، وإلى غيرهم من الأشخاص الإنسانية والحيوانية، وسائر الأشياء، بتصرف الأمور وتديرها، مما يصل بها تأثيرهم إلى ما يتأثر فيه، فهو جناح، فكل جهة تأثير جناح.. مثلاً: أن العاقلتين العملية والنظرية جناحان للنفس الإنسانية والمدركة والمتحركة والفاعلة.. وثلاثة أجنحة للنفس الحيوانية والعادية والنامية والمولدة والمصورة.. وأربعة أجنحة للنفس النباتية.

ولا ينحصر أجنحتها في هذا العدد، بل بحسب تنوع التأثيرات أجنحة.. ولهذا قيل: مشى وثلاث ورباع.. ولقد روى عن رسول الله ﷺ: «أنه رأى جبريل ليلة المعراج وله ستمائة جناح»<sup>(١)</sup>.

وإلى كثرتها يشير بقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾. ولأجل ذلك أتى بلفظ الأربعة الدالة على مراتب الأصول من الذوات والعناصر، وعلى أن سر الترتيب سارى في أكثر العوالم، وله تأثير في العالم العلوى والسفلى.. كذلك أشار إلى قوى الإنسان ومرتبتها وأصولها وأقسامها؛ لأنها أقسام وأنواع، منها المدركة والمتحركة، وغير ذلك من الحواس الظاهرة والباطنة، ووجه الحصر فيها مبين.

• قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

(١) أخرجه أحمد في المسند ج١، ص ٣٦٥، والبيهقي في دلائل النبوة ج٢،

يعنى: ﴿يَا بَلِيَّتِ﴾ أى: بالمعارف والحكم، ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾، أى: الكتابة ﴿وَالْمِيزَانَ﴾، أى: العدل، ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾، أى: السيف.

يعنى: جميع أمور الناس منحصرة فى هذه الأربعة، وهى الأمور الأربعة التى بها يتم الكمال النوعى الإنسانى، وينضبط النظام الكلى آدمى، المؤدى إلى صلاح المعاش والمعاد.. إذ الأصل المعتر والمبدأ الأول هو العلم والحكمة، والأصل المعول عليه فى العمل للاستقامة فى طريق الكمال هو العدل.. ثم لا ينضبط النظام، ولا يتمثل إصلاح الكل، إلا بالسيف والقلم اللذان يتم بهما أمور السياسة.

فهذه الأربعة هى أركان كمال النوع الإنسانى وصلاح الجمهور، والخصر فيها وافق أمور الإنسان، والترتيب وسره ظاهر غير خفى.

• قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

قال بعض المفسرين فى تقسيم النجوى إلى أربعة: يعنى اقتضت الحكمة الإلهية ظهور الأشياء بالمراتب.. ولهذا قيل: «لولا الاعتبار لارتفعت الحكمة».. يعنى: ولو اعتبرت الحقيقة لكان عينهم، يعنى إقامة النجوى بعين وجوده، وإيجادهم بوجوبه، واتصاله بهم بهوياته المندرجة فى علم الأحدية.. وبهذه الاعتبار هو رابعهم معهم.

• قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَلَاثَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

هى الأنوار القاهرة أرباب الأصناف العنصرية فى الصور النوعية، يحمله باجتماع من الطرفين العلوى والسفلى الحامل والفاعل عند البعث والنشور، فى كل طرف أربعة.. وكهذا قال النبى ﷺ: «هم اليوم أربعة،

فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة أخرى، فيكونون ثمانية<sup>(١)</sup>.

وسيجيء في الركن الثاني توجيه ذلك مستوفى عند بيان تربيع الكعبة المكرمة شرفها الله تعالى، ومثل كون تلك الأملاك مختلفة الحقائق بحسب اختلاف أصنافها العنصرية، فافهم سر التقسيم في الأربعة، وكن جامعاً بالمراتب، وعالمًا بالمذاهب، (يعنى: بالمذاهب الصوفية الملامية السنية الحنفية).

قال الفاضل عبد الرزاق القاشاني: المسفر هو توجه القلب إلى الحق، والتوجه لا يمكن إلا بجميع الحواس الظاهرة والباطنة.. وتلك الحواس الظاهرة والباطنة، وتلك الحواس والمراتب والأحوال تدور إلى أربعة أصول، ولذلك قسم السفر إلى أربعة.. فقال الأستاذ القاشاني: في تأويلات الأسفار أربعة:

الأول: هو السير إلى الله تعالى في منازل النفوس.. ويراد الوصول إلى الأفق المبين، وهو نهاية مقام القلب، ومبدأ التحليات الأسماوية.

والثاني: هو السير في الله بالاتصاف بصفات الله تعالى، والتحقيق بأسمائه إلى الأفق الأعلى، وهو نهاية الحضرة الواحدية.

الثالث: هو الترقى إلى عين الجمع والحضرة الأحدية، وهو مقام «قاب قوسين» ما بقيت الاثنينية (أى ما دام الاثنينية باقية<sup>(٢)</sup>) فإذا ارتفعت فهو مقام «أو أدنى» وهو نهاية الولاية.

الرابع: السير بالله عن الله للتكميل، ومقام البقاء بعد الفناء، والفرق بعد الجمع.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره جـ ١٤، ص ٧٣، والقرطبي جـ ١٨، ص ٢٥٥،

والسيوطي في الدر المنثور جـ ٦، ص ٢٦١.

(٢) الاثنينية: هي اعتقاد وجود العبد مع الرب.

• قوله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

المفسرون من أرباب التأويل قسموا الخلّة والمحبّة على أربعة أقسام:

**الأول:** هو المحبة الروحانية الراتبة المستندة إلى تناسب الأرواح في الأزل بقربها من الحضرة الأحدية، وتساويها في الحضرة الواحدية، التي قيل فيها: «فما تعارف منها ائتلف»<sup>(١)</sup>، فهم إذا برزوا في هذه النشأة اشتاقوا إلى أوطانهم في القرب، وتوجهوا إلى الحق، وتجردوا من ملابس الحس ومواد الرّجس، فلما تلاقوا تعارفوا، وإذا تعارفوا تحابوا لتجانسهم الأصلي، وتمثلهم الوصلى في الطريقة، وتعاونوا في أمور الدنيا والآخرة.. وهى الخلّة التامة الحقيقية التي لا تزال أبداً، كمحبة الأنبياء والأولياء والأصفياء والشهداء.

**الثاني:** هو المحبة القلبية المستندة إلى تناسب الأوصاف والأخلاق والسير الفاضلة، وتشابه الاعتقاد والأعمال الصالحة، كمحبة الصلحاء والأبرار فيما بينهم، ومحبة العرفان والأولياء إياهم، ومحبة الأنبياء، عليهم السلام لعامة أمهم.

**الثالث:** هو المحبة النفسانية المستندة إلى اللذات الحسية والأعراض الجزئية، كمحبة الأزواج لمجرد الشهوة، ومحبة الفجار والفساق التابعين في اكتساب الشهوات، واجتلاب الأموال.

**الرابع:** هو المحبة العقلية المستندة إلى تسهيل أسباب المعيشة، وسير المصالح الدنيوية كمحبة التجارة والصناعة، ومحبة المحسن إليه للمحسن، وكل ما استند إلى غرض فان وسبب زائل، زال بزواله وانقلب عنه فقدانه عداوة، لتوقع كل من المتحايين ما اعتاد في صاحبه من اللذة المعهودة والمنافع المألوفة، مع عدمه وامتناعه لزوال أسبابه.

(١) متفق عليه، فتح الباري ج٦، ص٣٦٩، صحيح مسلم ج٥، ص٤٩١.



ولما كان الغالب على أهل العالم أحد القسمين الآخرين، أطلق الكلام وقال تعالى: ﴿الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ بِغَضٍّ عَدُوٌّ﴾ لانقطاع الوصلة بينهم، وانتفاء الآلات البدنية عنهم، وامتناع حصول اللذة الحسية والنفع الجسماني، وانقلاهما حسرات، وصاروا خسراً، قد زالت اللذات والشهوات، وبقيت العقوبات والتبعات، وكل يبغض صاحبه ويلعنه.

ولذلك قسمت المحبة إلى أربعة أقسام، اعتباراً بالأركان؛ لأن الأعمال الظاهرة والباطنة لا تخلون من التزييع فى الأكثر، فى الحقائق الكونية وفى المراتب العلمية والمدارج العملية والمعارج بحكمته، كما سيذكر من بعد إن شاء الله تعالى.

• قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠].

قيل: نظر إلى الكيفيات الأربع، والعناصر الأربعة، التى خلق منها المركبات بالتركيب والتعديل سواء للسائلين، مستوية بالامتزاج والاعتدال للطالبين للأقوات والمعاش.. أى قدرها لهم.

قال بعض العلماء: الناس أربعة.. فواحد حلو كله، فلا يشبع منه.. والآخر مر كله فلا يؤكل منه.. وثالث فيه حموضة، فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك.. وآخر فيه ملوحة، فخذ منه وقت الحاجة فقط.

قال الغزالي فى الإحياء: لا بد للمريد الصادق والطالب الموفق أن يعتصم بأربعة أمور فى سلوكه:

الأول: الجوع.. فإنه ينقص دم القلب فيبيضه، وفى بياضه نوره.. ويذيب شحم الفؤاد، وفى ذوبانه رفته، وفى رفته مفتاح الم Kashفة، كما أن مثنوته<sup>(١)</sup> سبب الحجاب.. فلما نقص منه دم القلب، ضاق منه

(١) مثنوته: أى عدم ترقيه إلى عين الجمع والحضرة الأحدية.

مسلك العدو، فإن مجاريه العروق المملوءة بالشهوات.. قال عيسى، عليه السلام: «يا معشر الحواريين جوعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم».. وفائدة الجوع في القلب ظاهرة، يشهد لها التجربة.

**الثاني: السهر:** فهو يجلو القلب ويصفيه وينوره، ويصير القلب كالكوكب الدرى والمرآة المجلوة، فيلوح فيه جمال الحق، ويشاهد فيه درجات الآخرة وحقارة الدنيا، فإن السهر نتيجة الجوع، وهو لا يمكن مع الشبع.. أما النوم فيقسي القلب ويميته إلا إذا كان بقدر الضرورة.. لذلك فالسهر سبب للمكاشفة لأسرار الغيب.. وقيل في صفة الأبدال: إن أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة.. وقال سهل: ما صار الأبدال أبدالاً إلا بأربع خصال:

الأول: إخماس البطون.. والثاني: السهر.. والثالث: الصمت.. والرابع: الاعتزال عن الناس.

**الثالث: الصمت..** فإنه يسهل العزلة، ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقدم له طعاماً وشراباً أو تدبير أمر، لذلك ينبغي ألا يتكلم إلا بقدر الضرورة، فإن كثرة الكلام تميئ القلب.

**الرابع: الخلوة..** وفائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر، فإنهما وسيلة القلب، والقلب قد انصب فيه مياه كدرة قذرة من أنهار الحواس، وغير ذلك لوازم القلب من المشروبات والمأكولات.. والخلوة تحقق التخلص من كل هذه الكدورات.

• قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

— قال ابن عطاء، رضى الله عنه، في هذه الآية: الاستجابة على أربعة أوجه:

أولها: إجابة التوحيد.. والثاني: إجابة التحقيق.. والثالث: إجابة التسليم.. والرابع: إجابة التعزيز.

والآية فيها ترييع آخر كما قال صاحب العوارف في البيان: فالإجابة على قدر السماع، والسماع من حيث الفهم، والفهم على قدر المعرفة، والمعرفة بقدر الكلام.. (انتهى كلام صاحب العوارف).

وقيل: للصلاة أربع شعب: الأول: حضور القلب في المحراب.. والثاني: شهود العقل عند الملك الوهاب.. والثالث: خشوع القلب بلا ارتياب.. والرابع: خضوع الأركان بلا ارتقاب.

- وفيها ترييع آخر: لأن عند حضور القلب رفع الحجاب.. والثاني: عند شهود العقل رفع العتاب.. والثالث: عند خشوع النفس فتح الأبواب.. والرابع: عند خضوع الأركان وجوب الثواب.

وفيها ترييع آخر: فمن أتى الصلاة بلا حضور القلب فهو مصلٍ لاؤه.. والثاني: من أتاها بلا شهود العقل فهو مصلٍ ساء.. والثالث: من أتاها بلا خشوع الأركان فهو مصلٍ جافٍ، الرابع: من أتاها بخشوع فهو مصلٍ وافٍ.

ولذلك قيل: القلوب أربعة.. الأول: قلب أجرد فيه سراج أزهر، فذلك قلب المؤمن.. والثاني: قلب أسود منكوس، فذلك قلب الكافر.. والثالث: مربوط على علاقة، فذلك قلب المنافق.. والرابع: قلب مصفح فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه مثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والصدید، فأيهما غلبت عليه، حكم له بها.

• قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ خَسِيرٌ﴾ إلى آخر سورة العصر.

قال بعض العارفين من المحبين: فيها إشارة لأهل السلوك فى طريق الحق، ليعلم أن الوصول إلى المقاصد لا يمكن إلا بالمراتب.. وفيها إشارة إلى سر الترتيب ظاهراً و باطناً.. ومن أمعن النظر: يجد فيها شرائط الإسلام وأركانها مندرجة، فى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾.

الأول: الإيمان وهو مقابل الروح الإنسانى.. والثانى: العمل الصالح مقابل للقلب.. والثالث: المواصاة بالحق مقابل للجسد.. والرابع: المواصاة بالصبر مقابل للنفس.

وقيل: فيها إشارة إلى سلوك الإنسان، وهو أن يكون السالك فى جميع الأحوال على رأى الأستاذ بخلوص القلب، وياشر ويعتاد بالأعمال الصالحة، وبكل ما أمره الأستاذ من الأوامر والنواهي، وأن يأتمر وينتهى، وأن ينصح لكل من يقبل كلامه، وأن يتكل على مولاه، وأن يصبر على كل ما جاء من الحق من الخير والشر، بسبب النصيح والوعظ؛ لأن الأمر والنهى من شأنه أن يؤذى كما أودى الأنبياء، عليهم السلام، وأن يعلم أن المواصاة بالحق والصبر يجب تنفيذه أولاً على نفسه وتأديبه إياها، ثم للناس، كما قيل: «عظ نفسك ثم الخلائق» وقيل: «أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك». وهذا هو المراد ببيان أسرار الترتيب، فافهم وتأمل.

• وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

قيل: لها أربعة أسماء:

الأول: ليلة البركة.. والثانى: ليلة القدر.. والثالث: ليلة السلامة.. والرابع: ليلة الحائرة.

وسميت «ليلة القدر» لقدر أمة محمد ﷺ فى هذه الليلة، وهى خير من ألف شهر.. وسميت على أربعة أسماء بسبب سر عظيم، لو بسطنا الكلام فى بيانها لطال الكلام وما حصل المرام.

قال بعض العارفين فى تحقيق سر الترييع: قيل لذلك السر وقع ملك سليمان، عليه السلام، على أكمل الأعداد فى الترييع «أربعين سنة».. وبقي يحيى بن زكريا، عليهما السلام، فى الدنيا أربعين سنة، وبقي عيسى، عليه السلام، بعد نزوله أربعين سنة.. وثواب أمة محمد ﷺ خير من ثوابهم جميعاً.. كذا ورد فى كتب العلماء.

وهكذا انتهى الجزء الأول فى بيان سر ترييع البسملة وسورة الفاتحة، ومافهم من أسرار ترييع بعض الآيات القرآنية ونتقل إلى الجزء الثانى بعون من الله وفضله تعالى.

### تعليق على الجزء الأول<sup>(١)</sup>:

لقد عشنا أروع الأوقات مع تلك النفحات المباركات من بعض أسرار آيات القرآن العظيم الحق المبين.. ولا يسعنى إلا أن أسجد لله شكرًا أن أنعم علينا بذلك الدين القيم الذى يتناول بشرتنا بتلك الرعاية الفائقة، والعناية البالغة، حتى أصبحت أوقن حق اليقين أننا لم نخلق عبثًا وأنا سرجع إلى رب كريم حكيم.. فحكمته بالغة، وكل كلمة من كتابه الكريم تحوى من الأسرار والمعانى ما سوف يظل يغرّف منه الأولياء الصالحون العاملون المخلصون، الذين اصطفاهم الله بمحبته، وأفاض عليهم من حكمته ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وهذا الركن الأول من المخطوط يعتبر تفسيرًا جزئيًا للقرآن الكريم، يعطى إشارات عامة لفهم كنوز محتواه.

ورغم أن هذا الجزء الذى مرّ بنا يحوى كثيرًا من الفوائد والأسرار

(١) نقدم هذا التعليق مع نهاية كل جزء لتحقيق الترابط بين القارئ والكتاب من جهة، لتحقيق الترابط بين أجزاء الكتاب نفسه من جهة أخرى.

التي تكشف الستار عن عظمة القرآن، إلا أن الفائدة العظمى التي أدعو الله أن ينتفع بها كل قارئ، هي أن تكون تلك الإشارات بمثابة شرارات تفجر الطاقات الكامنة في النفس المؤمنة، لتسارع إلى فهم كتاب ربها، بتدبر معانيه، واستلهاهم نفحاته ومغازيه.

فالهدف الأسمى من العلوم الدنيوية، وهو القرب من حضرة الذات العلية، وتفهم الإشارات النورانية، التي جاءت بها الرسالة المحمدية لتحقيق الخلافة الإنسانية في أسمى صورها وأجل معانيها.

فاللهم وفقنا إلى مزيد من فهم كتابك الكريم، ونفع به المسلمين ليحققوا مدارجهم في أعلى عليين.

والصلاة والسلام على النبي الأمين المبعوث رحمة للعالمين بكتاب تجدد أسرارهِ ومعانيهِ إلى يوم الدين.

\* \* \*



## الجزء الثانى

### أسرار الترييع فى مراتب التوحيد، وفى الحرم المكى

#### وفى شمائل النبى ﷺ

#### أولاً: أسرار الترييع فى مراتب التوحيد

قال تعالى فى كتابه الكريم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].  
وقاله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ كُورٌ وَلِلَّهِ وَجِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾  
[البقرة: ١٦٣].

فنقول: للتوحيد أربع مراتب، على ما فهم من كلام الصدر، وهو  
منقسم إلى لب، ولب اللب، وإلى قشر، وقشر القشر.. ولنمثل ذلك  
تقريباً وتفهيماً إلى الأفهام الضعيفة:

فالمرتبة الأولى فى التوحيد: أن يقول الإنسان بلسانه «لا إله إلا الله»  
وقلبه غافل عنه، أو منكر له.. كتوحيد المنافق والملاحدة فى مذهب  
الخلافا.

والثانية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه، كما صدق به عموم المسلمين،  
وهو اعتقاد العوام.

والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وهو  
مقام المقربين.

والرابعة: أن لا يرى فى الوجود إلا واحداً، وهو مشاهدة  
الصدقين.. ويسميه الصوفية «الفناء فى التوحيد»؛ لأنه لا يرى إلا  
واحداً.. بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه.

فالأول: موحد بمجرد اللسان، وذلك يعصم صاحبه فى الدنيا عن  
السيف وإعطاء الجزية والسبى، والثانى: موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه



مفهوم لفظه، وقلبه خال عن التكذيب، والثالث: موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً، والرابع: مؤمن موحد، بمعنى أنه لم يحضر فى شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث أنه كثير، بل من حيث أنه واحد، وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد.

**الأول:** كالقشرة العليا فى الجوز.. **والثانى:** كالقشرة السفلى..  
**والثالث:** كاللب.. **والرابع:** كالدهن المستخرج من اللب.

**مراتب أرباب السلوك والعارفين:**

اعلم أن أرباب السلوك فى التوحيد على أربعة أقسام:

**الأول:** سالك مجذوب، **والثانى:** سالك متدارك بالجذبة، **والثالث:** مجذوب متدارك بالسلوك، **والرابع:** سالك متدارك بالسلوك.  
وقيل: للعارف أربع علامات:

**الأولى:** ذكر المنة.. **والثانية:** صدق الهمة.. **والثالثة:** عرفان الحبة..  
**والرابعة:** خوف الحرقه.

وقيل: فرغ الله من أربعة أشياء: الخلق والخلق والرزق والأجل.

**مراتب العبادة:**

قال الأنطاكى فى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

إنما نعبد الله على أربع: على الرغبة والرغبة والحياء والحبة.

وأفضلها الحبة.. يليها الحياء.. ثم الرهبة.. ثم الرغبة.. والكل منها على وفق المراتب الأصلية كما ترى عياناً، غير مستور للمتقين.

**قيل:** قبلة أرباب التوحيد أربعة:

**الأولى:** قبلة أهل السنة والجماعة، ومن يشأ الله تعالى من أهل الشرائع الماضية.

والثانية: قبله العارفين.

والثالثة: قبله الموحدين.

والرابعة: قبله الروحانى الإنسانى الحقيقى، الذى هو أكمل المراتب، وجامع المقامات.

**سر التزييع فى كلمة «لا إله إلا الله»:**

كلمة «لا إله إلا الله» على أربع كلمات؛ لأنه يتم بها أركان الإسلام، ويجمع فى قائلها جميع لوازم الإيمان؛ لأنها ركن له لا يحصل إلا بها، وركن جميع العوالم ظاهرها وباطنها، ليكون على أصول قائلها مطابقاً؛ لأن كل كلمة منها تكفر سيئة ركن من الأركان الأربعة الأصلية من الأصول والعناصر، وغيرها من الحواس الظاهرة والباطنة.

**اسم سيدنا محمد ﷺ:**

اسم محمد ﷺ أربعة أحرف، مطابقاً على سر التزييع السارى فى أكثر الحقائق.. وقيل: إشارة إلى موافقته اسم الله الجامع لجميع الأسرار الإلهية الذاتية والصفاتية.. ولفظه الله كذلك أربعة أحرف فى اللفظ. والخلفاء الراشدون أربعة.. وقس باقى الحقائق فى الأكثر على هذا الأصل والأصول.

وقد جرى وسرى فى الاسم «الله» وهو اسم لذاته تعالى، وفى اسم «محمد» وهو اسم لذات النبى ﷺ سر التزييع.. ولذلك فالأولى أن يسرى ويوجد فى أكثر المعارف والحقائق والأنفس والآفاق، على ما تفهم فى هذا المسطور المعبر.

ومن أراد مزيد من المعرفة فعليه بالرجوع إلى كتاب النفحات لمولانا الفاضل «جامى» قدس الله سره العزيز<sup>(١)</sup>.

(١) كتب الشيخ إبراهيم البثوى من كتاب (نفحات الأنس) صفحتين باللغة الفارسية عن معرفة الله فى مخطوطه هذا لم تتمكن من ترجمتهما.

## الفرق بين المعجزة والكرامة والاستدراج:

قال مولانا الفاضل جامى نقلاً ورواية عن التفسير الكبير للإمام الرازى رحمه الله: إذا ظهر فعل خارق للعادة على إنسان، فذلك إما أن يكون مقروئاً بالدعوى، أو لا يكون مقروئاً مع الدعوى.

والقسم الذى نتناوله: وهو أن يكون مقروئاً بالدعوى.. وتلك الدعوى إما أن تكون دعوى الألوهية.. أو دعوى النبوة.. أو دعوى الولاية.. أو دعوى السحر وطاعة الشيطان.

فهذه أربعة أقسام، وهذه الأربعة على كون نظم الأصول فى مراتب الإنسان وعلى أركانه الأصلية التى هى الروح والنفس والقلب والبدن.. فانهم سر التزييع كيف يجرى ويسرى فى الحقائق.

وأما القسم الأول من الأقسام الأربعة وهو: دعوى الألوهية.. جوّز أصحابنا ظهور خوارق العادات على يده من غير معارضة، كما نقل من أن فرعون كان يدعى الألوهية، وكان يظهر على يده خوارق العادات، كما نقل ذلك أيضاً فى حق كثير من الرجال.

قال أصحابنا: وإنما جاز ذلك لأن مشكلة خلقتة تدل على كذبه، فظهور الخوارق على يده لا يقضى إلا التلبس والنفاق.

والقسم الثانى هو: ادعاء النبوة.. وهذا إما أن يكون ذلك المدعى صادقاً أو كاذباً.. فإن كان صادقاً وجب ظهور الخوارق على يده، وأما من كان كاذباً لم يجر ظهور الخوارق على يده.

القسم الثالث: وهو ادعاء الولاية.. فالقائلون بكرامات الأولياء اختلفوا فى أنه: هل يجوز ادعاء الكرامة، ثم أنها تحصل على وفق دعواه أولاً.

القسم الرابع: وهو ادعاء السحر وطاعة الشياطين.. فعند أصحابنا

يجوز خوارق العادات على يده، وعند المعتزلة لا يجوز، والبعض يسمى هذا بالاستدراج، وهذا مردود عن طاعة الله تعالى.

ولذلك الأصول الأربعة فى الإنسان: بعضها روحانى، وبعضها نفسانى، وبعضها جسمانى، وبعضها قلبى صئوبرى تخفى معنوى، وهى لها مشابهة بهذه الأقسام الأربعة المذكورة.. ووجه الحصر إلى الأربعة فى وجوه، كما لا يخفى للمتقين الفطناء.. انتهى كلام الفاضل المذكور.

## ثانيًا: أسرار التربيع فى الحرم المكى

بالنسبة لبيت الله الحرام:

- قال علماؤنا وأنا من المشايخ (رحمهم الله): إن الله تعالى جعل هذا البيت الذى هو محل ذكر الله تعالى على أربعة أركان، كما جعل الله قلب الإنسان على أربعة طبائع يحملها، وعليها قامت نشأته، كقيام البيت على أربعة أركان، ومثل قيام العرش اليوم على أربعة حملة... كذا ورد فى الحديث «أنهم اليوم أربعة، وغداً يكونون ثمانية».

فإن الآخرة فيها حكم الدنيا والآخرة.. فلذلك يكونون غداً ثمانية، فيظهر فى الآخرة حكم سلطان الأربعة الآخرة، وكذلك يكون القلب فى الآخرة تحمله ثمانية (الأربعة التى ذكرناها والأربعة الغيبية وهى العلم والقدرة والإرادة والكلام) فلا يعجز سعيد فى الآخرة على تكوين شىء، فأرادته نافذة غير قاصرة، فما يهتم بشىء يظهر إلا حضر، وكلامه نافذ، فلا يقول لشىء كن إلا ويتكون، فالعلم له عين فى الآخرة، وليس له حكم هذه الصفات فى النشأة الدنيا مطلقاً، فاعلم ذلك.

فالإنسان فى الآخرة نافذ الاقتدار... فالله سبحانه وتعالى بيته قلب عبده المؤمن، والبيت بيت اسمه تعالى، والعرش مستوى الرحمن: ﴿إِنَّمَا نَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وهناك كثير من أسرار التزييع فى الحرم المكى نذكر منها باختصار ما يلى:

- بالنسبة لمقام سيدنا إبراهيم:

قال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِرِ إِبْرَاهِيمَ مَوْطِئًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

قيل: المقام أربعة.. الأول: مقام المحبة.. والثانى: مقام المعرفة.. والثالث: مقام المشاهدة... والرابع: مقام الجمع والتمكين.

- وكذلك كنى عن الحرم المكى عن مقام أربعة:

الأول: عن مقام القلب.. والثانى: عن مقام الروح.. والثالث: عن مقام السر.. والرابع: عن شهود الجمال المطلق.

- والأشهر الحرم أيضاً: كناية عن المقام الأربع: الأول: مقام الحضور.. والثانى: مقام المراقبة.. والثالث: مقام الأمن... والرابع: مقام التوكل.

- وكذلك المسجد الحرام كناية عن المقام الأربع:

مقام الفناء عما سوى الله تعالى.. ومقام التوحيد.. ومقام التنزيه.. ومقام الاستغراق.

- والمشعر الحرام أيضاً كناية عن المقام الأربع:

مقام الذكر.. مقام التفرد به.. مقام الملازمة فى حضرة قدسه... مقام الوصول إلى قربهِ.

- والمنى أيضاً: كناية عن الأركان الأصلية، وعن سر التزييع، وعن المقامات الأربع:

مقام الطلب والتمنى.. مقام إفناء النفس عن الشهوات وذبحها بسكين الرياضات.. ومقام عدم الاتحاد على الطاعات.. ومقام تمنى التقريب ببذل الموجودات والمعروفات.

- ورمى الجمار أيضاً: كناية عن أربع مقامات:

عن طرد الوسواس.. وعن ترك الاعتماد على المجاهدات.. وعن مقام التسليم إلى الحق في التصرف.. وعن مقام الاعتراض في أفعاله.

- الصفا كناية عن أربع مقامات:

مقام القلب.. ومقام الروح.. ومقام النفس.. ومقام السر.  
وهكذا فأكثر المناسك المكبة، والمشاعر البكية<sup>(١)</sup>، لا تخلو من سر التزييع، بعضها جلى، وبعضها خفى عن الأغيار.

من أسرار الكعبة المكرمة:

قال الوالد المرحوم في بعض تصانيفه، نقلاً عن الفتوحات المكية:  
إن الله تعالى جعل لبيته أربعة أركان، لسر إلهي اقتضى ذلك، وهى فى الحقيقة ثلاثة أركان لأنه شكل مكعب:

الركن الأول: الذى يلى الحجر فى الصورة مكعب الشكل، ولأجل ذلك يسمى كعبة تنبئها بالكعب، فإذا اعتبرت الأركان الثلاثة جعلتها محل الخاطر الإلهي.

والثاني: ركن الخاطر الملكي.

والثالث: ركن الخاطر النفسى.

والرابع: ركن الخاطر الإلهي.

فالخاطر الإلهي: ركن الحجر الأسود.. والملكي: الركن اليماني.. والنفسى: المكعب الذى فى الحجر لا غير.. وليس للباطل الشيطانى منه محل.

(١) البكية: نسبة إلى بكّة، وهو اسم من أسماء مكة، حيث يكثّر فيها البكاء، وتعج بالناس، وتبك بهم بكّا (أى تزدهم ازدحاماً شديداً).

وعلى هذا الشكل المثلث المكعب: تكون قلوب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وعلى آلهم وصحبهم.

قال المحرر الفقير إليه سبحانه وتعالى: مال قلبي إلى تحرير حقائق التثليث على ما فهم من كتب القوم من الصوفية.

وقال الوالد المرحوم (قدس الله سره العزيز): في أثناء تحرير أسرار الحج ومراتبه، لما أراد الله تعالى ما أراد من إظهار الركن الرابع، جعل للخاطر الشيطاني الركن العراقي.. والركن الشامي للخاطر النفسي.

وإنما جعلت الخاطر الشيطاني للركن العراقي؛ لأن الشارع شرع أن يقال عنده: أعوذ بالله من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق... وبالذكر المشروع في كل ركن تعرف مراتب الأركان...

وعلى هذا الشكل المربع قلوب المؤمنين، ماعدا الرسل والأنبياء المعصومين، ليميز الله رسله وأنبياءه عن سائر المؤمنين، بالعصمة التي أعطاهم وألبسهم إياها، فليس لنبي إلا ثلاثة خواطر: خاطر إلهي... وخواطر ملكي.. وخواطر نفسي..

ولغيرهم هذه الخواطر وزيادة، وهو الخاطر الشيطاني العراقي.. فمنهم من ظهر حكمه عليه في الظاهر، وهم عامة الخلق، ومنهم من يخطر له ولا يؤثر في ظاهره، وهم المحفوظون من أوليائه.

ولما اعتبرا الله الشكل الأول الذي للبيت، جعل له الحجر على صورته، وسماه حجراً لما حجر عليه (أى منع عليه أن ينال تلك المرتبة أحد من غير الأنبياء والمرسلين) حكمة منه، فلنا الحفظ الإلهي، ولهم العصمة.

وقال الوالد المرحوم، قدس الله روحه: أخير من بعض الأولياء في مكة، أن بعض العارفين رأى إبليس، فقال له: كيف حالك مع الشيخ

أبى مدين<sup>(١)</sup> (عبد صالح إمام فى التوحيد والتوكل) فقال إبليس: ما شبهت نفسك فيما يلقى إليه فى قلبه، إلا كشخص وقف على شاطئ البحر المحيط، فبال فيه، فقيل له: لم تبول فيه؟ فقال: حتى أنجسه فلا تقع به الطهارة .. فهل رأيتم أسفه من هذا الشخص؟! كذلك أنا وقلب أبى مدين، كلما ألقى إليه شىء قلب عينه<sup>(٢)</sup>.

فأخبر إبليس بذلك أنه يلقى فى قلوب الأولياء، وهو الذى ذكرناه .. وليس له على الأنبياء سبيل.

### مراتب أرباب الإحرام:

أعنى بأرباب الإحرام المحرمين .. وهم على أربعة أقسام:

الأول: المفرد بالحج... والثانى: المفرد بالعمرة... والثالث: القارن بهما... والرابع: المتمتع.

والقسم الأول: مقابل للقلب .. والقسم الثانى: مقابل للنفس.. والقسم الثالث: مقابل الروح الحيوانى.. والقسم الرابع وهو المتمتع: مقابل للجسم؛ لأن التمتع إنما يحصل بمقارنة لوازم الجسد، وكان فى التمتع حظ أكثر من غيره.

وقس على هذا سائر المراتب والأصول.

### مراتب المناسك الشرعية والمشاعر البكية:

اعلم أن المناسك الشرعية والمشاعر البكية قديمة عند وضع البيت الحرام، وهى أربعة أنواع:

الأول: ملكية.. والثانى: آدمية.. والثالث: إبراهيمية.. والرابع: محمدية صلوات الله عليه وسلامه.

(١) أبو مدين، رضى الله عنه: هو شيخ الإمام حسن الشاذلى، رضى الله عنه.

(٢) معنى قلب عينه: أى قلب ظاهره وباطنه... أى يعرف عين الشىء.



وظهر ما ظهر بسبب كل واحد منهم تفرع فى المناسك والمشاعر.  
قال بعض الأفاضل: فى وضع القبة الإبراهيمية على قاعدة التربع سر  
ظاهر، وكتب فى كل ركن بيت من أبيات العربية الجامعة مراتب التربع  
وأسراره:

### البيت الأول (فى جانب البيت الحرام):

يا كعبة الله يا حياتى يا منهج النور بإرشادى  
البيت الثانى (فى جانب المقبل قاصداً البيت قبالة الباب الكريم):  
يا قبلة أقبلت البهاء فى كل ربع وفى كل وادى  
البيت الثالث (فى جانب المنبر):

فيك المقام الكريم يزهو فيك السعادات لعبادى  
البيت الرابع (فى جانب بئر زمزم):

يا بيت ربى يا نور قلبى يا قرة العين يا فؤادى  
قيل: لذلك السر التربيعى الذاتى الأصلى، كانت فرائض العمرة  
أربعة: الإحرام.. والطواف.. والسعى.. والحلق.

### ثالثاً: أسرار التربع فى شمائل النبى ﷺ

من جملة أسرار التربع: أسرار شمائل النبى وخصاله ﷺ التى وقعت  
على أصول التربع.. قال علماء أهل السنة والجماعة فى وصف مناقبه  
وشرح شمائله:

إن أخلاق النبى وأوصافه على حد عجزت عن عددها وتحديددها ألسنة  
الفضلاء وعن فهمها أفهام العلماء.

ومن جملة أحواله وأخلاقه وآدابه ومعجزاته ﷺ، ما ظهر فى الحضر  
والسفر على ما أورده الفاضل «القاضى عياض» فى الشفاء.. ونحن  
نقتصر فى الشمائل والشواهد والمناقب اللطيفة، ونكتفى بالقليل خوفاً

من التطويل؛ لأن القطرة تنبئ عن الغدير، والقليل يدل على الكثير، ولا ينبئك مثل خبير، وهو المطلوب الموعود في هذا المسطور من أصول المراتب «الحصر والتقصير» حذرًا عن التغير في التعبير.

### أقوال عن شمائل النبي ﷺ:

- قال صاحب الشفاء، رحمه الله تعالى: أربعة من خصال النبي ﷺ مخصوصة بقلبه الشريف:

الأول: الجود.. والثاني: الكرم.. والثالث: السخاء.. والرابع: السماحة.

وقد فرّق بعض العلماء بينهم بفروق كثيرة.. فجعلوا الكرم: الإنفاق بطيب النفس فيما يعظم خطره ونفعه.. وسموه أيضًا حرّية وهو ضد النذالة (بمعنى الخسيس).

والسماحة: هي العفو عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس وهو ضد التشاكس والعناد.

والسخاء: سهولة الإنفاق، وتجنب اكتساب مال يكثر ويجمد.

والجود: ضد التقتير، وهو تضييق المعاش على العيال وغيرهم.

- وقال في وصف أجداد النبي وتعريفهم: قال النبي ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل.. واصطفى قريشًا من كنانة.. واصطفى من قريش بني هاشم.. واصطفاني من بني هاشم» (صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع) وهو يشير إلى سر التزييع المكي، الساري في العالم ظاهراً وباطناً.

- وقال رضي الله عنه: كان سكوته ﷺ على أربع:

الأول: الحلم.. والثاني: الحذر.. والثالث: التقدير.. والرابع: التفكير.

وأما تقديره ﷺ: ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس.

وتفكره: فيما يفنى ويبقى.. والحلم: هو صبره، فكان لا يغضبه شيء يستفذه.

وجمع له الحذر في أربع: الأول: أخذه بالحسن ليقتنى به.. والثاني: تركه القبيح لينتهى عنه.. والثالث: اجتهاد الرأي بما يصلح أمته.. والرابع: القيام لهم بما يجمع لهم أمر الدنيا والآخرة.

وأنا الفقير المحرر<sup>(١)</sup>: كتبت في هذا المسطور بعضاً من الشمائل والآداب على أربعة أقسام:

الأول: في تعظيم الغنى الأعلى لقدر هذا النبي قولاً وفعلًا.. وتوجه الكلام فيه أيضاً على أربعة أبواب.

الثاني: فيما يجب على الأنام من حقوقه ﷺ.. وهذا القسم أيضاً منقسم إلى أربعة أبواب.

الثالث: فيما يجب للنبي وما يستحيل أن يجوز عليه، وما يمتنع أو يصح من الأحوال البشرية.

الرابع: في تصرف وجوه الكلام من الأحكام فيما يُنقصه، أو يسند إليه من العيب والسب (حاشاه ﷺ من أن يضاف إليه ويسند عيب أو نقص).

وهذا القسم الرابع مناسب الركن العراقي من أركان الكعبة.. والركن الرابع من أركان الأصل خلق وركب منها هذا الشخص المسمى بالإنسان، وهي النفس الأماره، وهي مقابل الركن العراقي في التريع؛ لأن أركان الكعبة في الأصل والحقيقة ثلاثة.

وفي أكثر العوالم كذلك المصير والتثليث، ولكن على اقتضاء الذات

---

(١) المقصود هو: الشيخ إبراهيم البنوي صاحب هذا المخطوط، رضى الله عنه وأرضاه.

والمرتبة والحال تكون أربعاً وخمسة وستة وسبعاً على ما فهم فى المقدمة، وفى كتب المشايخ مذكور مستوفى ومنها: كتاب أصول الحكم والأجوبة للوالد المرحوم.

### شمائل النبى تامل أصول الكعبة:

وهذا النبى المكرم العربى، المكى مولداً، والإبراهيمى الحنفى مشرباً، أكثر أخلاقه وأوصافه وشمائله الشريفة على نط الكعبة المكرمة وأركانها وأصولها ظاهراً وباطناً، على ما فهم من كلمات أهل المعارف، خصوصاً فى كتابنا «أسرار الحج»، من طلبه يجده، ذكرت هناك مستوفى.. وكتابنا أسرار الحج كتاب موجز مختصر لطيف، ومن أراد التوفيق فيما نحن فيه من تطبيق أصول التزييع فى أخلاق النبى وشمائله الشريفة المماثلة لأصول الكعبة، فعليه بمطالعة كتاب الوالد فى أسرار الحج، وكتابنا المذكور هنا، وأن يعلم أن الركن الرابع العراقى خارج عن أصول الكعبة نقلاً، كذلك القسم الرابع من هذه الأقسام الأربعة خارج من جملة أحوال النبى وخصاله وآدابه عقلاً.

ولكن هذا القسم الرابع أورده النص، لتدل المشاق والآلام على كماله فى الصبر والتحمل على ما جاء فى مقابلة الدعوة والنصيحة والأمر والنهى؛ لأن العادة أن يؤذى الأمر والنهى دائماً، خصوصاً فى بدء الإسلام، ولكن حاشاه ﷺ، وهو مقدس ومنزه من العيب والنقص.

وقيل: هذا الركن الرابع داخل فى سائر الأركان من وجهه وخارج من وجهه بالاعتبار الخارجى، كما أن أكثر المراتب فى الأشياء بعضها داخلية وبعضها خارجية وصفت بالتدرج على وجه الاقتضاء.. والفاعل الحقيقى عالم فى صنعة الأزلى العلمى، على ما أشار إليه صدر المائة الخامس أو السابع على اختلاف الرواية «صدر الدين القونوى» رحمة الله عليه فى كتاب النصوص «فى باب الاقتضاء» وهو باب واسع نظر إلى

سائر الحقائق، فاطلبه يطلعك على أسرار المراتب التي أولها الفردية الأحدية والواحدية والتثليث والحضرات الخمس، وسائر مراتب التعددات من الأربعينية وغيرها إلى انتهاء الأعداد.

وننتقل إلى عرض ما كتبه الشيخ إبراهيم البثنوى، رضى الله عنه، عن شمائل النبي ﷺ وذلك فى أربعة أقسام:

### القسم الأول فى تعظيم الغنى الأعلى لقدّر هذا النبى قولا وفعلًا

وهذا القسم يشمل أربعة أبواب:

الباب الأول: ألّزم فيه أربعًا من الآيات والأحاديث الواردة فى ثنائه تعالى عليه ﷺ.

• الأولى: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقرأ من أنفسكم بفتح الفاء.

• الثانية: فى صلاته تعالى عليه ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• الثالثة: فى قسمه تعالى عليه.. قال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَإِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ ... إلى آخرها.

• الرابعة: فى ثنائه تعالى.. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

الباب الثانى: فى تكميله المحاسن خلقًا وخلقًا، الدينية والدنيوية.. وهذه الألفاظ أربعة أيضًا لتطابق أخلاقه الجميلة وخصاله الحميدة

لأصول الأركان الذاتية، ظاهرة وباطنة، بالأولية والآخرة والظاهرية والباطنية.

والتزم في هذا الباب الثاني أربعة من الآيات والأحاديث:

● الأول: في شمائله ﷺ.. كان أزهر اللون<sup>(١)</sup>، أدعج<sup>(٢)</sup>، أنجل<sup>(٣)</sup>، أشكل<sup>(٤)</sup>، أهدب الأشفار<sup>(٥)</sup>، أبلج<sup>(٦)</sup>، أزج<sup>(٧)</sup>، أفتى<sup>(٨)</sup>، أفلج<sup>(٩)</sup>، مدور الوجه، واسع الجبين، كث اللحية، علاء صدره، سواء الصدر والبطن، واسع الصدر، عظيم المنكين، ضخم العظام، عريض العضدين والذراعين والأسافل، رحب الكفين والقدمين، سائل الأطراف<sup>(١٠)</sup>، أنور المتجرد<sup>(١١)</sup>، دقيق المرتبة، ربة القد، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردد، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله ﷺ، رجل الشعر<sup>(١٢)</sup>، إذا ابتسم فتر ثغره عن مثل سنا البرق، وعن مثل حب الغمام.. إذا تكلم روى كالنور يخرج من بين ثناياه.. أحسن الناس عنقا،

(١) أزهر اللون: أى كاللؤلؤ فى الصفاء والبياض.

(٢) أدعج: أى شديد سواد العين، وشديد بياضها.

(٣) أنجل: أى اتسعت عيناه وحسنت.

(٤) أشكل: أى خالط بياض العين حمرة.

(٥) أهدب الأشفار: أى رموشه كثيفة.

(٦) أبلج: أسفر وأنار.

(٧) أزج: طويل الحاجبين ودقيقهما.

(٨) أفتى: فتى القوام.

(٩) أفلج: فيه ثغرة بين أسنانه.

(١٠) سائل الأطراف: أى فيها ليونة الحركة.

(١١) أنور المتجرد: المتجرد، هو الجسم الخالى من الشعر أو الملابس، والمقصود أنه منير الجسم.

(١٢) رجل الشعر: سواء وزينه.

وهو مطهم<sup>(١)</sup> وليس مكثم<sup>(٢)</sup>، متماسك البدن، ضرب اللحم، إذا ضحك يتلألأ في الجدر، سهل الحدين، ضخم الكرايس.. وكان فخمًا مفخمًا يتلألأ وجهه تلؤلؤ القمر ليلة البدر<sup>(٣)</sup>.

هذه الشمائل على أربعين عددًا، وقعت بيسر وحكمة على أصول التزيينية في الأربعين.

● الثاني: في فصاحته وبلاغته ﷺ.. قال الراوى رواية ونقلًا عن الصحابة، رضى الله عنهم، قالوا: ما رأينا الذى هو أفصح منك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: وما يمعنى وإنما أنزل القرآن بلسانى، ﴿لِسَانٌ عَكْرِفٌ ثَبِيثٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وبلاغته ﷺ تعرف في الكتب المرسلة إلى بعض الملوك، ولم تذكر في هذا الوجيز المؤخر خوفا من الإكثار والإطناب طلبًا للاختصار.. وذكر بلاغته وفصاحته وسائر أوصافه وشمائله في كتاب الشفاء، فليطلب هناك.

● الثالث: في نسبه ﷺ.. قال الراوى: أنه من قبيلة بنى هاشم سلالة قريش وصميمها، وأفضل العرب وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمه ومن أهل مكة أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده.

● الرابع: في بيان أخلاقه الحميدة.. فجميع الخلق قد كانت على الانتهاء في كمالها، والاعتدال في غايتها، حتى أننى الله تعالى عليه بذلك فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَكَلِمٌ حَلِيمٌ﴾ [القلم: ٤].

(١) مطهم: تام من كل شيء ومتاهى الحسن.

(٢) ليس مكثم: أى ليس ممتلئ لحم الحدين والوجه.

هذه الأوصاف كلها تبين تناسق جسمه ﷺ، فهو وسط في جسمه من حيث الطول، ومن حيث النحافة والسمنة، فهي تؤكد ملاحظته وامتلاء الجسم وحيويته دون أن يصل إلى درجة السمنة.

(٣) شرحنا فيما نص مفردات وصف شمائل النبى ﷺ.

**الباب الثالث:** فى عظم قدره وكرامته عند ربه تعالى.. وهذا الباب أيضاً يختص بأربعة من الأحاديث:

• **الأول:** فيما ورد بذكر مكانته ﷺ عند ربه.. قال ابن عباس، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ: «أنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»<sup>(١)</sup>.

• **الثانى:** فى فضائله ﷺ.. ومن جملة شرفه وفضائله قصة الإسراء وما انطوت عليه من درجات الرفعة، مما نبه عليه الكتاب العزيز.. قال الله تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۚ لَيْلًا مِّنَ اللَّيْلِ مِنَ اللَّيْلِ ۚ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، والإسراء قد يكون بالروح، وقد يكون بالجسد، وقد يكون بالسر النفسى الغيبى.

وهذه المراتب الأربع معتبرة عند المحققين.. ولكل واحد من الإسرائيات رجال مخصوصون بواحد منها.. فللأنبياء إسرائ.. وللأولياء إسرائ.. وللخواص إسرائ.. ولأخص الخواص إسرائ ظاهراً وباطناً فروى أن بعضهم أسرى بروحه، وبعضهم بجسمه وروحه معاً، وبعضهم بروحه فقط، وبعضهم بقلبه، وبعضهم بنفسه، يعنى بسرّه خاصة، كمن هو متوجه فى الصلاة إلى جانب الحق تعالى وأخلص نيته وأحسن فيها، لما جاء فى الحديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»<sup>(٢)</sup>، وكان لبنينا ﷺ إسرائيات مع جميع الخواص الظاهرة والباطنة، ولأمتة من الأولياء إسرائيات فى مراتبهم.

• **الثالث:** فيما ورد من مناجاته مع ربه، وكلامه معه.. قال تعالى: ﴿فَاَوْحَ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

• **الرابع:** فى تفضيله ﷺ بالمحبة والخلة.. قال رسول الله ﷺ: «أنا

(١) عن عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، سنن الترمذى.

(٢) بقية الحديث هو: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تراه فإنه يراك»، رواه أبو هريرة، رضى الله عنه، صحيح البخارى، متفق عليه.



حبيب الله وأول شافع يشفع ولا فخر،<sup>(١)</sup>.

وقال رسول الله ﷺ: قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وغير ذلك من الآيات والأخبار الواردة في كرامته وفضيلته عند الله تعالى، على ما أوردها قاضي عياض في كتابه الشفاء.. فاطلبه.

الباب الرابع: فيما أظهر الله على يديه من المعجزات، وتشريفه بالكرامات.. وفي هذا الباب أيضاً أربعة من الآيات القرآنية، ومن الأحاديث الصحيحة، كما ذكرنا بعضها من قبل في الأبواب المتقدمة.

ولابد أن يعلم أولاً: أن معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء، عليهم السلام، معجزة، هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها.. وهى على ضربين: ضرب هو من نوع قدرة البشر فعجزوا عنه، فعجزهم عن فعل الله تعالى دل على صدق نبيهم، كصرفهم عن تمنى الموت، وتعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن.. وضرب هو خارج عن قدرتهم، فلم يقدروا على الإتيان بمثله كإحياء الموتى، وقلب العصى حية، وإخراج ناقة من صخرة، وانشقاق القمر.. وغير ذلك من المعجزات مما فى القرآن والحديث، وهى على أربعة أوجه:

• الوجه الأول: فى حسن تأليفه والتمام كلامه وفصاحته مع إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام، قد خُصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به أحد من الأمم.. ومن جملة الإعجاز والإيجاز نزول سورة الكوثر.

(١) نص الحديث هو: «أنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة، فيفتح الله لى فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر». عن عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، سنن الترمذى.

• الوجه الثاني: فى إعجاز صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه.

• الوجه الثالث من الإعجاز: ما ينطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن، ولم يقع، فوجد كما ورد على الوجه الذى أخير، كما فى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِيظِهِمْ سَبَقِلْتُمْ﴾ ﴿٢﴾ فى بضع سنين ﴿[الروم: ٣، ٤].. وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، وقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامَيْنِ﴾ [الفتح: ٢٧].

فكان جميع هذا كما قال، فغلبت الروم فارس فى بضع سنين، ودخل الناس فى الإسلام.. ومات النبى ﷺ بعد الفتح.

• الوجه الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم النابذة، والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم من القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلم ذلك، فيورده النبى ﷺ على وجهه، ويأتى به على نضه، وهو أسمى لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك يخبرهم بصدق ما وقع فى السلف.

وهذا آخر الوجوه الأربعة التى أوردناها فى تعريف وجوه الإعجاز وأنواعه التى وقعت فى تصديق بلاغته، وإخباره على ما فى كلام الله تعالى من البلاغة والإعجاز.. ولولا خوف التطويل لبسطت الكلام فى أنواع البلاغة على التفصيل فذكر الأنبياء وذكر الصالحين كفارة.. وذكر الموت صدقة.. وذكر القبر يقربكم من الجنة.

والآن ننتقل إلى ذكر الأحاديث والآيات التى تدل على تشريفه بالكرامات:

- نقل عن معاذ بن جبل فى الجامع الصغير الحديث الأول من

الأحاديث الموعودة فى الباب الرابع، وقد ذكرنا فى الأبواب المتقدمة الآية فى محل الحديث.. والآن قد يراد من الحديث إخبار النبى ﷺ، وإثباته بآية وردت فى تصديق كلامه أو فى صدق دعواه، وذلك الإخبار بها يكون حديثاً عنه ﷺ.. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، يعنى من وجوه الإعجاز القرآنية المعدودة كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، مع تكفل الله تعالى بحفظه.

- الحديث الثانى: ورد فى انشقاق القمر.. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

- الحديث الثالث: عن أنس، رضى الله عنه، قال: «رأيت النبى ﷺ، وقد حانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء فلا يجدوه، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع فى ذلك الإناء يده، فأمر الناس أن يتوضأوا منه.. قال الراوى: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس كلهم»<sup>(١)</sup>.

- الحديث الرابع: ومن معجزاته ﷺ أنه يكثر الطعام ببركة دعائه، ومن ذلك حديث مشهور عن جابر، رضى الله عنه: «شبع يوم الخندق من طعامه ألف رجل من صاع شعير وعناق»<sup>(٢)</sup>.

ومعجزاته لا تحصى ولا تعد، ولكن سجلت تبركاً بعضاً من مناقبه وشماله الشريفة فى هذا المختصر الوجيز، كما قيل: «القليل فى الباب يدل على الكثير مما فى الكتاب».. ومن أراد تفاصيلها فعليه بمطالعة كتاب الشفاء فى بيان أخلاق المصطفى عليه أفضل الصلاة والتسليم.. قال صاحب الشفاء: اعلم أن علوم العرب ومعارفه أربعة: الأول: البلاغة.. الثانى: الشعر.. والثالث: الخبر.. والرابع: الكهانة.

والقرآن الحاذق أنزل لإعجاز هذه الأربعة.

(١) صحيح البخارى.

(٢) رواه جابر بن عبد الله، سنن الدارمى.

## القسم الثانى

### فما يجب على الأنام من حقوقه ﷺ

وهذا القسم أيضاً يحتوى على أربعة أبواب:

الباب الأول: فى فرض الإيمان على النبى ووجوب طاعته واتباع سنته ﷺ. وقد لخصنا ما فى هذا الباب على أربعة أحاديث:

- الحديث الأول: فى وجوب طاعته ﷺ.. قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤].

وعن النبى ﷺ: «من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله»<sup>(١)</sup>.

- الحديث الثانى: فيما ورد عن السلف الصالحين فى اتباع سنته ﷺ، روى عن الشافعى، رضى الله عنه، قال: ليس فى سنة رسول الله ﷺ إلا إتيانها. واتفق على هذا القول سائر الأئمة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، نفعا الله من علومهم ديناً وعقبى، عزاً وشرفاً.

- الحديث الثالث: فى وجوب اتباعه وتصديقه وفى اقتداء سنته، كما قال تعالى جلّ سلطانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وعن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين»<sup>(٢)</sup>.

الحديث الرابع: فىمن يخالف سنته وأمره.. قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ [النساء: ١١٥].

(١) عن أبى هريرة، رضى الله عنه، صحيح البخارى.

(٢) عن عرياض بت سارية، رضى الله عنه، سنن الترمذى.

وعن أنس، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «من رغب عن سنتي فليس مني، ومن أدخل في أمرنا ما ليس منه فهو رده»<sup>(١)</sup>، أى مردود.

**الباب الثانى:** فى لزوم محبته ﷺ: وهذا الباب أيضاً على أربعة من الأحاديث المشهورة المؤكدة بالآيات والأخبار.

- الحديث الأول: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [التوبة: ٢٤].

قال القاضى رحمه الله: فكفى بهذا دلالة وحجة على إلزام محبته ﷺ، كما قال فى الحديث: «لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»<sup>(٢)</sup>.

وعن أنس، رضى الله عنه: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.. وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله.. وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يعذب فى النار»<sup>(٣)</sup>.

- الحديث الثانى: ثواب محبته ﷺ.. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْقِدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وعن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحببني كان معي فى الجنة»<sup>(٤)</sup>.

(١) عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، صحيح البخارى.

(٢) عن عبد الله بن هشام، رضى الله عنه، مسند أحمد.

(٣) عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، صحيح البخارى.

(٤) عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، سنن الترمذى.

- الحديث الثالث: فى محبتهم النبى ﷺ خاصة.

عن عمرو بن العاص، رضى الله عنه، قال: «ما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ».

- الحديث الرابع: فى حقيقة المحبة وآثارها إلى حضرة النبى ﷺ: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. قال علماؤنا، رحمهم الله تعالى: آثار المحبة إلى حضرة الرسول ﷺ هى الاجتماع إلى سنته فى عباداته وآدابه جميعاً.

الباب الثالث: فى تعظيم أمره وتوقيره: وهذا الباب أيضاً على أربعة من الآيات والأحاديث:

- الحديث الأول: قال تعالى فى كتابه الكريم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٨، ٩].

- الحديث الثانى: كانت عادة الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، إذا جلسوا عند الرسول ﷺ أطرقوا رؤوسهم سكوناً، كأن على رؤوسهم الطير.. وإذا دقوا بابه، دقوا بأظافرهم سرّاً.. ويوقرونه أكمل توقير.

الحديث الثالث: فى حرمة بعد موته، وفى توقيره بعد الموت تعظيماً له، واتباع سنته فى جميع الأحوال، فى حركاته وسكناته والصلاة عليه، والرواية عنه، كذلك بالطهارة.. وعلماء الأمة من قبل، كانوا على هذا فى حياتهم، رضوان الله عليهم.

الحديث الرابع: فى توقيره ﷺ وتوقير آله وأصحابه وأمنهات المؤمنين من أزواجه رضوان الله عليهم أجمعين.. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

قال القاضي عياض فى كتاب الشفاء: الآل أربعة على وفق الأصول الأربعة، وأجداده ﷺ من الأنبياء، عليهم السلام، أربعاً على ما مر ذكرهم، والآل: جعفر.. وآل عقيل.. وآل عباس.. وآل على، رضوان الله عليهم أجمعين.

وعنه ﷺ: «من أحب أصحابى فقد أحبنى ومن أبغض أصحابى فقد أبغضنى»<sup>(١)</sup>.. وعن جابر، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله اختار أصحابى على جميع العالمين، واختار منهم أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً»<sup>(٢)</sup>.

الباب الرابع: فى حكم الصلاة على النبى ﷺ، وفرض ذلك على الأمة والفضيلة فى الصلاة عليه ﷺ: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وفى هذا الباب أيضاً أربعة من الأحاديث المعتمدة عند العلماء.

الحديث الأول: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على من أمتى كنت معه فى الجنة»<sup>(٣)</sup>.. وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة الواردة فى الصلاة عليه.

قال علماؤنا أهل السنة والجماعة، رحمهم الله تعالى: الصلاة واجبة

(١) أخرجه الترمذى (٣٨٦٢)، ٥٠ كتاب المناقب، باب حدثنا محمود بن غيلان.. وهو من حديث عبد الله بن مُقَلِّ بلفظ: «اللَّهُ اللَّهُ فى أصحابى.. الله الله فى أصحابى لا تتخلوهم غرضاً بعدى، فمن أحبهم فبحبى أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه».

وقال الترمذى: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٢) أخرجه ابن حبان فى كتاب المجروحين (٤١/٢)، من حديث جابر بلفظ مقارب.

(٣) لم نجده فى كتب الأحاديث.

على نبينا ﷺ في الجملة، والإكثار منها عبادة موجبة للقربى عند الله تعالى، وعند النبي ﷺ يوم القيامة، كما ذكر في كتب الأحاديث.

### الحديث الثاني: في مواطن الصلاة:

قال صاحب الشفاء وغيره من العلماء، مواطن الصلاة كثيرة منها: بعد التشهد، وعند الهم والغم، وفي سائر الشدائد.. قال رسول الله ﷺ: «من صلى على في كتاب، لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب»<sup>(١)</sup>.

الحديث الثالث: في كيفية الصلاة عليه ﷺ: في حديث عقبة بن عامر، رضى الله عنه، قال: «اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد»<sup>(٢)</sup>.

الحديث الرابع: في فضيلة الصلاة على النبي ﷺ: عن ابن مسعود، رضى الله عنه: «إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم على صلاة»<sup>(٣)</sup>.

## القسم الثالث

### فيما يجب للنبي ﷺ وما يستحيل من أحوال البشرية أن يضاف إليه

وهذا القسم أيضاً على أربعة أبواب:

#### الباب الأول: فيما يختص بالأموال الدينية:

والكلام في هذا الباب أيضاً على أربعة من الأحاديث المقبولة.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٨٣٥)، من حديث أبي هريرة، وذكره الميثمي في مجمع الزوائد (١٣٧/١)، وعزاه للطبراني في الأوسط.

(٢) في حديث عقبة بن عمرو (في الأصل: عامر) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في سننه (٩٨١): كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي بعد التشهد.

(٣) عن عبد الله بن مسعود، سنن الترمذي.



الحديث الأول: عن عائشة، رضى الله عنها: «أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة»<sup>(١)</sup>، وقال النبي ﷺ: «ما أشك ولا أسأل»<sup>(٢)</sup>، رواه قتادة، وعبادته ﷺ: «كان يعبد ربه حتى تورمت قدماه»<sup>(٣)</sup>.

الحديث الثاني: فى استغفاره ﷺ: قيل: «كان استغفاره للأمة» قاله ابن عطاء.

وقال غيره: استغفاره للحذر وشكر الله تعالى وملازمة العبودية.

الحديث الثالث: فى عصمته ﷺ: والناس خلاف ذلك، فالأنبياء معصومون.. وقد تعاهدت الأخبار والآثار عن الأنبياء، عليهم السلام، بتنزيههم عن النقصة.

الحديث الرابع: فى تنزيهه ﷺ عن النقائص والضلالة: عن ابن عباس، رضى الله عنه: «لم يكن له ضلالة ولا معصية».

وقال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].. يعنى وجدك بين مكة ومدينة، بين أهل الضلال، فأخرج من بينهم وأسلك مع أمته إلى طريق الهداية فهدى.. وغير ذلك من الآيات والأخبار على ما ذكر فى التفاسير.. فاطلبه.

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٨٢)، ٩١ كتاب التعبير، باب التعبير وأول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة. صحيح البخارى ٣٧/٩، طبعة الشعب، القاهرة.

(٢) رواه عبد الرزاق عن قتادة بلاغاً، المصنف: هل يسأل أهل الكتاب عن شيء؟ ١٢٥/٦، ١٢٦، طبعة المجلس العلمى لسنة ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م. بتحقيق/الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، وكذا رواه الطبرى عنه بلاغاً فى تفسيره ١٦٨/١١.

(٣) عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه، قال: «كان النبي ﷺ، ليقوم ليصلى حتى ترم قدماه أو ساقاه فيقال له، فيقول: أفلا أكون عبداً شكوراً»، صحيح البخارى.

الباب الثاني: فى عصمة سائر الأنبياء، عليهم السلام:

وفى هذا الباب أيضاً أربعة من الأحاديث المشهورة:

الحديث الأول: قصة يوسف، عليه السلام.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْثُ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف ٢٤]، وفى معنى هذه الآية اختلاف بين العلماء.. وأنا الفقير راقم الحروف سمعت ممن وثق بكلامه من كبار المفسرين فى الروم، قدس الله سره: أن همه يوسف، عليه السلام، ردها ومنعها بتأديبه إياها؛ لأنها كانت زوجة لمالكه.. وإن وقع ذلك لهم وصدر منه فليس عن قصد، وكان ذلك لهم قبل النبوة، ولا يؤخذ بذلك لهم فى مذهب الإسلام كما جاء فى الحديث القدسى: «إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها ما لم يتكلم أو يعمل بها».. وهم الأنبياء، عليهم السلام، ليس مثل همناء، وكذلك أرواحهم وسائر قواهم الجسمانية والروحانية، على خلاف قوى سائر الناس، خلافاً لأهل الاعتزال.. وسيجئ تأويل هذه الآية الكريمة فيما بعد إن شاء الله تعالى.

الحديث الثانى: فى قصة سليمان، عليه السلام، كما حكى عن بعض المفسرين لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾، أى: ابتليناه.. وتفصيل هذه القضية كتب فى الشفاء، فاطلبه.

الحديث الثالث: قصة آدم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١].. اتفق المفسرون على أن اعتراف الأنبياء بذنوبهم، وأن توبتهم واستغفارهم وبكاءهم فهو على ما سلف منهم من أحوال البشرية.

فإن قيل: هل يشفق ويستغفر من لا شىء عليه من الذنوب، فاعلم أن درجة الأنبياء عليهم السلام، فى الرفعة والعلو والمعرفة بالله تعالى، وخشيتهم مما يحملهم على الخوف منه تعالى جل شأنه، والإشفاق فى المواخذة بما لا يؤخذ به غيرهم.. وغير هذا من المحامل مذكور فى كتب

المشايع، فاطلبها تجدها كما قيل: «من جدَّ وجد».

**الحديث الرابع:** قيل: إن الأنبياء، عليهم السلام، يواخذون بذلة صدرت منهم في الدنيا، ليكون ذلك زيادة في درجاتهم ورتبتهم.. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَجْنَبْهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢]، وقال تعالى لداود، عليه السلام: ﴿فَقَفَرْنَا لَمْ ذَلِكَ﴾ [ص: ٢٥].  
وقال بعض العلماء: زلات الأنبياء، عليهم السلام، كرامات عند الله تعالى.

**الباب الثالث:** فيما يخصهم من الأمور الدنيوية ومن العوارض البشرية: وهذا الباب أيضًا مشتمل على أربعة أصول من الأحاديث النبوية الشريفة.

**الحديث الأول:** قال علماؤنا، رحمهم الله تعالى: إن هذه الطوارئ البشرية، والتغيرات المذكورة إنما تختص بأجسامهم البشرية، المقصود بها مقاومة البشر لمشاكله الجنس.. أما بواطنهم فمبتعدة غالبًا عن ذلك، معصومة منه، متعلقة بالملأ الأعلى.

**الحديث الثاني:** في منامه ﷺ، قال الرسول ﷺ: «إن عيني تنامان ولا ينام قلبي»<sup>(١)</sup>.. وهذا الحديث سبق ذكره، كما قيل: «كم من الإعادة لا تخلو من الإفادة».

**الحديث الثالث:** فيمن سحر رسول الله ﷺ، قيل: هذا ومثله لا يجوز

(١) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن: أنه سأل عائشة، رضى الله عنها: كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ فقالت: ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة.. يصلى أربعًا، فلا تسلم عن حسنهن وطوهرن، ثم يصلى أربعًا، فلا تسلم عن حسنهن وطوهرن، ثم يصلى ثلاثًا.. قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله أأنام قبل أن توتر؟ فقال: «يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي» صحيح البخارى.

فى حق النبى المكرم ﷺ.. ولكن فى حقه وفى حق الغير من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فإن الابتلاء بالأمراض جائز عقلاً ونقلاً.. وإنما السحر مرض من الأمراض، وعارض من العلل، يجوز عليه كأنواع المرض.

الحديث الرابع: فى إجراء الأمراض وشدها عليه، وعلى غيره من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿يَتْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

قال صاحب الشفاء، رحمة الله عليه: فامتحانه تعالى إياهم بضروب من المحن، زيادة فى مكائهم، ورفع فى درجاتهم.

الباب الرابع: فيما يتعلق بالجوارح من الأعمال: وهذا الباب أيضاً جامع لأصول أربعة من الأحاديث الحمديّة ﷺ.

الحديث الأول: قال القاضى، رحمة الله عليه: أجمع المسلمون فى الرواية عن النبى ﷺ على عصمة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، من الفواحش والكبائر الموبقات.

الحديث الثانى: فى المباحات.. هل يجوز وقوعها منهم؟.

قال صاحب الشفاء: جائز وقوعها منهم، ولكنهم لا يأخذون من المباحات إلا الضرورة، كما كان النبى ﷺ، يلاطف فى السفر مع رفقاءه، وأباح اللعب بالأولاد والأزواج كما جاء فى الحديث: «اللعب فى ثلاثة.... إلى آخر الحديث»<sup>(١)</sup>.

الحديث الثالث: فى السهو فى أفعالهم: كان النبى ﷺ إذا سهى فى

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عقبة مرفوعاً بلفظ: «وليس لله إلا ثلاث: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديبه فرسه، ورميه بقوسه»، مسند أحمد ١٤٦/٤، طبعة مؤسسة قرطبة، القاهرة.

الصلاة وغيرها يقول: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون»<sup>(١)</sup>.. وأكثر النسيان في حقه ﷺ إفادة علم وتقرير شرع، كتأخير أداء الفجر حين نام مع أصحابه في السفر.

أكثر الأئمة نبهوا إلى أن مثل هذا السهو تعليم منه، وتأديب له.. وله أيضًا سر غير ذلك مما يطول ذكره في هذا المسطور الوجيز.

**الحديث الرابع:** في الرد على من أجاز عليهم الصغائر، واحتجوا في ذلك بآيات كثيرة وأحاديث صحيحة، منها قوله تعالى: ﴿لَا يَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قيل: المراد ما تقدم لأبيك آدم وما تأخر من ذنوب منك.. حكاه السمرقندي عن ابن عطاء.. وقيل: المراد ما وقع من ذنبك وما لم يقع.

### **القسم الرابع في تصريف وجوه الأحكام فيمن ينقصه من أوصافه الشريفة**

حاشاه ﷺ من أن ينسب إليه نقص وعيب.. كيف وهو منزّه مقدس من النقائص البشرية من كل الوجوه.. إلهى وسيدى وخالقى ومعينى فى كل زمان وآن، فى الدنيا والعقبى، لا تحرمننا من شفاعته ﷺ فى كل حال من الأحوال: فى حياتى ومماتى، عند النزع والفرع، والصبر والحشر، والصراط، والميزان، وفى سائر المنازل من منازل الآخرة.

وليعلم أنى الفقير المحرر: قد تركت القسم الرابع من الأقسام الأربعة، تأديبًا من أن أذكر فى هذا الكتاب ما لا يليق بحضرة النبى ﷺ وعلى آله وبارك وسلم، من كلمات أرباب النفاق من الملاحدة والزنادقة.. وهذا آخر ما كتب فى كتاب الشفاء «للقاضى عياض»، رحمه الله تعالى ونفعنا من علومه ومدده.

(١) عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، صحيح البخارى.

واعلم أنه قد اختلف العلماء فى عصمة الأنبياء، عليهم السلام..  
وينحصر ذلك فى أربعة أقسام:

أحدها: ما يكون وما يقع فى باب الاعتقاد كالكفر والضلال.. وهذا  
غير جائز بإجماع الأمة، إلا على مذهب الخوارج، وهذا أشر المذاهب.

وثانيها: ما يتعلق بالتبليغ كالكذب والتحريف والتبديل.. وهذا لا  
يجوز صدورها منهم.

وثالثها: ما يتعلق بالاجتهاد والفتوى.. وأجمعوا على أنه لا يجوز  
جفاؤهم فيه على سبيل العمد، وأما على سبيل السهو، جوزه قوم،  
وأباح آخرون.

ورابعها: ما يتعلق بسيرهم وأفعالهم.. قال صاحب الكنز: إن أصناف  
أهل الإيمان والإسلام، غير الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، على أربعة  
أصناف:

المرتبة الأولى: العلماء الصديقون العاملون، وهم أشرف الناس  
وأجلهم بعد الأنبياء كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا  
مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، وهم ورثة الأنبياء، عليهم السلام، كما أخبر  
الصادق عليه الصلاة والسلام.

المرتبة الثانية: الشهداء.. وقد أثنى الله تعالى عليهم فى كتابه.

المرتبة الثالثة: الحجاج.. وقد شرحت أحوالهم فى كتابنا «أسرار  
الحج».

المرتبة الرابعة: عامة المؤمنين الموحدين والصالحين العابدين.

تعليق على الجزء الثانى:

لقد حاول الشيخ إبراهيم البثنوى، رضى الله عنه وأرضاه، أن يشرح

لنا جاهدًا فى هذا الجزء (عما سمع به المقام فى مخاطبة العقول والأفكار) بعضًا من أسرار التزييع فى مراتب التوحيد، وفى الحرم المكى، وفى شمائل النبى ﷺ.. وهو جهد مشكور، وخطوة على طريق اكتشاف الكنز المكنون، وهى الحقيقة العليا التى لا نستطيع معرفة أى شىء عنها إلا عن طريق من خاض بحارها، وارتشف من رحيقها، ثم عاد لنا منبهرًا بأضوائها، يحاول أن ينبهنا من غفلتنا.

والحق يقال: فإن كل من تكلم عن تلك الحقيقة العليا، فما زادنا إلا تشوقًا إليها، وزادنا يقينًا بجهلنا.. فتلك بحار عميقة، تحتاج منا سنيًا عديدة للخوض فى أعماقها، واكتشاف بعضًا من أسرارها.

وحتى لا نصل إلى مرحلة اليأس عملاً بقول الحق جلّ شأنه: ﴿لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

فإننا نستعين بالقاعدة الفقهية «ما لا يدرك كله لا يترك كله»، ونعتبر أن ما سجله لنا هذا الشيخ التقى الورع، هو إشارات نورانية تبتد كدورات البشرية، وتفجر أشواقنا إلى الحضرة الإلهية المحمدية، وتحدد تطلعاتنا إلى مزيد من الأسرار الإيمانية.

فرغم أن هذا الجزء يشتمل على مختصر مما كنا نود أن يتوسع فيه الشيخ، رحمه الله وأرضاه، إلا أنه يحمل أسرارًا عميقة، تفجر آفاقًا واسعة فى نفوس كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومع قراءتنا لهذه النفحات المباركات، فإننا ندعو الله أن يجعلها فاتحة خير لمزيد من الأنوار، حتى نتعرف وقع خطواتنا التعبدية فى حياتنا الروحية لنصل إلىسمى المعانى الإيمانية، آمين.... آمين.... آمين....  
آمين، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

## الجزء الثالث

### سر تربيع العلوم اللدنية فى كتب الصوفية

تقديم:

يتناول هذا الجزء سر تربيع العلوم اللدنية المخصوصة، تعلمها أرباب القلوب من الصوفية المعروفة المعتمدة عند العلماء، من علماء الشريعة والحقيقة، قدس الله أسرارهم، ونفعنا من علومهم ومددهم.. آمين.. ثم آمين.. ثم آمين.. ثم آمين.

ويذكر فى هذا الجزء الثالث:

● مراتب الإنسان.

● بعض أحوال العالم الواقعة على أول التربيع، وأسرار التربيع فى بعض العبادات.

### القسم الأول: مراتب الإنسان

لابد أولاً أن نعلم مدارج الأصول، وأن نشير صوب سهم مستفاد على عدة الفصول، وذلك على أربعة أصول معدودة بين الطائفة السنية الخلوتية الملامية:

الأول: فى مرتبة الذات والصفات، وذكر معانى الأسماء دقيقها وجليلها.

الثانى: فى ذكر مرتبة الأرواح وعالم الملكوت وتحقيق ظاهرها وباطنها.

الثالث: فى ذكر تعيين عالم المثال ومرتبة الأجسام إلى أن تكونت صورة آدم عليه الصلاة والسلام.



الرابع: فى ذكر نشأة الإنسان وأطواره الأولى من تلك الأصول الأربعة المذكورة آنفاً وهى: رتب الذات والصفات والأسماء.

### مدارج الأصول:

#### الأصل الأول: مرتبة الذات والصفات:

اعلم أن الله تعالى وتقدس، قال فى حديث قدسى: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف.. فخلقت الخلق لأعرف، فبى عرفونى»<sup>(١)</sup>.

وهو قد كنى فى هذا الحديث عن كنه الغيب، وإطلاق الذات الأقدس، وباطن الهوية والأزلية، بالكنز المخفى.. وذلك لأن الكنز عبارة عن عين مغيب مكنون، وسر مخزون، وكذلك كنه الجناح الأقدس. تعالى وتقدس، وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم، بلا نسبة تشبيه وتشكيك إليه وتمثيل، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله: «كنت» يخبر عن معين مسبق بالإطلاق، كما يوزن به بتكلمه تعيناً وظهوراً.

أما قوله: «كنزاً مخفياً»، يبين عن غيبه وإطلاقه، بحيث لا يدخل تحت حكم متعين يحكم عليه من حيث هذا الغيب والإطلاق، ولا تحت إحاطة به علماً من حيث تعيناته أصلاً، لا زمانياً ولا مكانياً؛ لأنه ليس عند ربنا صباح ولا مساء.

وقوله: «فأحببت» يخبر عن ميل أصلى، هو وصلة بين الخفاء والظهور المذكور، وما ثم إلا التعين الذى هو عين الوحدة، فكان الميل عن التعين عينه.

(١) أورده السخاوى فى المقاصد الحسنة، حديث رقم ٨٣٧، طبعة مكتبة الخانجي بتحقيق الشيخين، عبد الله بن الصديق، وعبد الوهاب عبد اللطيف، بلفظ: «كنت كنزاً لا أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقاً فعرفتهم بى، فعرفونى».

وقوله: «أن اعرف فخلقت الخلق لأعرف» يشير إلى ذلك الخفى، ويعرف أن تقدير المقدرات علماً ووجوباً يعقب ذلك الميل، ويترتب على متعلقه الذى هو الظهور الحاصل بذلك التعين.. ثم توجه إلى التعين الثانى النفسى المذكور، فسمى بأسماء كثيرة، حسب اعتبارات ثابتة فيه مع توجه عينه، وذلك لا يعرف إلا بمطالعة شروح الأسماء الحسنى.. ومن أراد ذلك فعليه أن يطالع شرح القصيدة التائية للشيخ الفرغانى.

### الأصل الثانى: مرتبة الأرواح وعالم الملكوت:

نتكلم هنا عن مرتبة الأرواح، وعالم الملكوت، والسابق فى هذا العالم الكنزى، المكنى عنه بالخفاء، وانتهاء الرجوع إلى الأصول السبعة المتفق عليها الحكم والأمر الإيجادى فى السماوات والأرضين، الروحانيين والجسمانيين وما فيهما من الأجسام والأرواح.

وهذه ثانى دورة معنوية للمحبة الأصلية، ووقع الانفعال والقبول، فانتفض الاسم الحى، وتقدم الاسم العليم، وتوجه الاسم المريد.. وكل اسم أخذ حكمه من الأسماء الإلهية المنسوب إليها التأثير والفعل.

فأول ما أقبل أمر التكوين بلا واسطة.. حقيقة القلم الأعلى.. ثم بواسطة العلم: حقيقة اللوح المحفوظ الذى انساب مظهريته إلى التعين والبرزخ والتجلى الثانى.. وما أجمل فى القلم كان مفصلاً فى اللوح، وتما أحكام ما فى اللوح تتم فى الأصول السبعة.

ولما كان التعين التالى (المسمى بمرتبة الألوهية) له أربعة أركان فى الحقائق الإلهية، ومع لوازمه يكون سبعة.. والأركان هى: الحياة.. والعلم.. والإرادة.. والقدرة.. فلا جرم أن عين الاسم البارى فى اللوح لكل واحد من هذه الأركان مظهراً خاصاً، وصورة روحانية.. فهذه أربعة أملاك فى الروحانيين:

— فكان إسرافيل مظهراً لركن الحياة الكلية الأصلية المشتمة على

جميع الكمالات، ولذا كانت نفخته الثانية سبباً للحياة الأبدية، فافهم.

- وأما جبريل فكان فى اللوح المحفوظ مظهرًا لركن العلم، ولهذا كان حاملاً للوحى المشتمل على أنواع العلوم.

- وأما ميكائيل: فكان مظهرًا لركن الإرادة، فإنه مرتب لما فيه بقاء الخلق، من الرزق المعنوى والصورى، علماً وفهماً وغذاءً.

- وأما عزرائيل: فكان مظهرًا لركن القدرة، فإنه يقهر الجبابرة، ويذهب بالموت والفناء.

وكما أن جميع الحقائق الإلهية والكونية فى توابع هذه الأربع، فكذلك جميع الأرواح والملائكة فى توابع هذه الملائك الأربعة وقواها، بعد القلم والمهيمن الذين هم العالون فى المرتبة.

**الأصل الثالث:** فى ذكر تعيين عالم المثال ومرتبة الأجسام إلى أن تكونت صورة آدم عليه السلام.

اعلم أن النفس الرحمانى الذى هو عين الرحمة السابعة الشاملة كل شىء ظاهراً وباطناً، مظهرًا أيضاً هذا النفس الرحمانى المذكور بصورة تفصيل حقيقى علمى وهو برزخ الثانى.. ثم أن أثر هذا النفس الرحمانى المفاض بحكم ذلك الاقتضاء الحسى، وتوجهات مظاهرها الكلية الروحانية، ظهر وجهه الرابع (الذى هو وجه تنزله وتصوره) بصورة الهباء الذى هو مادة قابلة لجميع الصور الطبيعية والعنصرية، البسيطة والمركبة.. فكان الهباء أصلاً مجملاً، ومعدناً مشتملاً على كل جوهر فرد، تركيب منها جميع الأجسام اللطيفة والكثيفة والصور الطبيعية والعنصرية، وله أركان أربعة هى: الحرارة.. والبرودة.. والرطوبة.. واليبوسة.

وسميت تلك المادة المرموقة عند جماعة بعنصر العناصر، فكان لهذا

العنصر الأعظم أربعة أركان، هي أركان الطبيعة.. فتتحرك هذا العنصر بأركانه، بحكم الاقتضاء والحركة الحية الأصلية السارية فيه، فارتفعت من الحرارة الدخان، فكان ذلك ردى السماوات.. ثم تميزت الأركان بعضها في بعض: فقسم منها ما كان كثيفاً، وقسم ما كان ألطف.. واسم الله والرحمن لما كانا متوجهين إلى تحقيق الكمال على الحكم والأمر الإيجادى، الذى يبنى قاعدة على الأركان والأصول الأسمائية وتوجهاتها ومظهريتها فى أربعة:

**الأول:** من حيث مظاهرها المعنوية التى عيَّنَها الاسم المريد.

**والثانى:** من حيث مظاهرها الروحانية التى عينها الاسم البارى.

**والثالث:** من حيث مظاهرها المثالية التى هى الأركان الطبيعية والأحكام بحكم اسم البارى.

**والرابع:** من حيث مظاهرها الجسمانية الحسية.. وكان هذا الرابع لإظهار الكمال الأسمائية.

وتفاصيل هذه الأركان مذكورة مبسطة فى شرح العقيدة التائية الفارضية للإمام الفراغانى.. فاطلبه هنالك.

**الأصل الرابع:** فى مراتب الإنسان وأطواره:

والإنسان من حيث هو إنسان: هو كل عارف عالم.. فهو بهذه الاعتبارات جامع جميع مراتب العالم الظاهر والباطن، بكمال الجلاء والاستجلاء، كنى بالجلاء لظهور تجلى الثانى الغالب عليه حكم الواحدية، ثم أنشأت السبع حقائق الإنسانية، وبالأستجلاء كنى بكمال الجلاء المنسوب إلى الكمال الأسمائى، وظهور صور الاعتبار الواحدية بصور آثار الأسماء الإلهية، والقوالب الكونية، وهى جامعة أيضاً فى السير والسلوك أنواعاً من المقامات.. ومن جملة مقاماته التى هى بمنزلة الصلاة

فى ذلك أربعة أركان:

الأول: هو القصد الصحيح فى التوجه عن بصيرة بحكم التجرد.

والثانى: الانقطاع عن كل ما يعوقه.

والثالث: العزم بقوة الأدب، الذى يظهر الخوف بصورة القبض، والرجاء بصورة البسط.

والرابع: الأدب يحفظ التوسط بينهما.. فلهذا يكون مقامًا للعزم.

مراتب قرب الإنسان إلى ربه تعالى:

اعلم أن قرب الإنسان من ربه هى العلة الغائية.. وسير الإنسان وسلوكه منحصر فى رتب أربع:

الأولى: رتبة المحبة المترتبة على الجذبة، بقوله: «ما تقرب عبدى إلى شى أحب لى من أداء ما افترضت.. وذلك التقرب إما المعنية كماذكروا، وإما بالسلوك، المعنى بقوله: «ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه».

الثانية: رتبة التوحيد المبنية على الرتبة الأولى، المشار إليها بقوله: «فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ولسانه».

الثالثة: رتبة المعرفة المبنية على الثانية، المعبر عنها بقوله: «فى يسمع وبى يبصر وبى يعقل.. وهى يعبر عنها فى لسان القوم بمقام البقاء والجمع.

الرابعة: رتبة التحقيق وهى رتبة الخلافة من وجه، والكمال من جميع الوجوه المشتملة فى هذه الرتبة الرابعة على الجميع، الجامعة بين البداية والنهاية وأحكامهما وأحكام مقام الجمع والتفرقة، والوحدة والكثرة، والحقيقة والقييد والإطلاق، وغير ذلك من الحقائق الإلهية والمراتب الكونية.. فافهم، فإن هذه المراتب من لوازم الإنسان الكامل الصادق.

### المرتبة الأولى: رتبة المحبة

قال عمر بن الفارض فى أول قصيدته (قدس الله روحه ونفعنا من ذوقه وشوقه ومن محبته):

سبقتنى حنيا الحب راحة مقلتى وكأس محياى عن الحسن جلستى

وقال الفاضل الفرغانى فى شرحه وإيضاح معناه:

يعنى محصول البيت أربعة: رؤية الحبيب.. وحب.. ووجهه.. وحسنه.

وتلك أربعة أنواع بحسب المفهوم والعرف على العموم:

الأول، حسى: وهو بين الأجزاء والأعضاء من جهة هيئاتها وألوانها وبهجتها ومضاداتها.

والثانى، عملى: وهو فى المعانى التى يتعلق إدراكها بالعقل، نحو العدل والرحمة والوفاق ونحو ذلك.

والثالث، روحانى: وهو فى الأخلاق خاصة.

والرابع، شرعى: وذلك فى الأمور الدينية، كراية أمر الشارع ولزوم الجماعة.

وقال، رحمه الله عليه: اعلم أن التحليات الواردة على أهل الله ثلاثة أقسام: فعلية.. وأسمائية.. وذاتية.. وأقول: ولا يبعد، بل يليق أن يقال: ورابعها صفاتية على ما تراه.. ولكل واحد طرق وموارد ومراتب شتى تفاصيلها فى الشرح فانظر هناك.

وقال الشارح، رحمه الله: إن أقسام هذا التجلى الفعلى والتعلق بالحب

بسببه، على أربعة أنواع، بحسب تفاوت استعدادتهم<sup>(١)</sup>:

**الأول:** من أوقفه قصور استعداده على صورة معينة، بحيث لا يحصل له التجلى الفعلى إلا من حبه تلك الصورة.

**والثاني** منهم: من تعطيه قوة استعداده الجواز عن المعين المقيد إلى المطلق، لكن يقع في معرض.

**والثالث** منهم: من يترقى إلى الإطلاق بسرعة عظيمة، مع أدنى توقف في منازله كحال الخليل عليه السلام.

**والرابع** منهم: من يكون ترقيه وجوازه بكمال استعداده في غاية سرعة عظيمة، وهى كالبرق الخاطف بلا توقف، كسير صاحب ذوق ﴿مَا تَرَأَى الْأَبْصَرُ وَمَا كُنَّ﴾ [النجم: ١٧]، فإنه لم ينزغ بصره إلى شهود مقيد متعين.

### المرتبة الثانية: رتبة التوحيد

قال الشارح (الفاضل الفراغانى، رحمه الله عليه): اعلم أن لقضاء عالم الإيجاد فنوناً وشعاباً متفرغة، بعضها كلية (وهى مقاماته) وبعضها جزئية (وهى منازله).

أما مقاماته فأربعة:

**أحدها:** التحقيق بظاهر الوجود العينى، وهو مقام «كنت سمعه وبصره»، وذلك السير من النفس وفناء ظاهرها وكثرتها إلى عين وحدة الوجود الظاهرى.

(١) كتب فى هامش المخطوط ما يلى:

- المحبة أربعة أقسام: الأول: هو التعظيم.. والثانى: إظهار الرضا.. والثالث: قلة الصبر.. والرابع: كثرة الاستئناس بذكر المحبوب دائماً (كذا فى حدائق الحقائق).
- والصحة فى أربعة أوجه: الصحة مع الله بالموافقة.. ومع الخلق بالنصحة.. ومع النفس بالمخالفة.. ومع الشيطان بالعداوة (كذا فى حدائق الحقائق).

**وثانيها:** التحقيق بباطن الوجود العلمى، وهو مقام أن الله تعالى قال على لسان عبده: «سمع الله لمن حمده، وذلك بالسير من الروح الروحانية وفنائها بوحدها وبساطتها إلى كثرة صور الشئون النسبية.

**وثالثها:** السير فى التقيد بحكم أحد التجليين (الظاهرى والباطنى) وفناء هذا المقيد وهو مقام جمع (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) وهو المعبر عنه بالفناء فى الفناء.

**ورابعها:** المختص بالحضرة الأحمدية، وهو السير فى بقية شىء من التميز وحكم الضدية، فيما جمعت هذه الحضرة والمقام الثالث، حتى فناء هذه البقية إلى الحضرة الأحمدية الجمعية السوائية، المنافية كل أثر تميز وحكم ضدية وغيرية بالكلية وهو مقام: ﴿إِنَّ الَّذِي يَبْتَغِيكَ إِنَّمَا يُبْتَغِيكَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ١٠].. ومقام: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنِكَ اللَّهُ الرَّحْمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

**وأما منازل الاتحاد فهى:** التحقيق بالأسماء الكلية كاسم الحى.. والمريد.. والعالم.. والقادر.

وقال الفرغانى فى شرح بيت شعر (باللغة الفارسية) إنه يتضمن أربع إشارات:

**الإشارة الأولى:** لا يمكن التحقيق بحقيقة ذوقه ومقامه ﷺ، ولكن حسب ما يفهم كل واحد من كلامه أو الإشارة فى كلام المولى تعالى إلى مقامه ﷺ.

**الإشارة الثانية:** أن الرؤيا الأحمدية كانت محفوظة عن الخطأ والخلل، بحيث أنه ما كان يرى ﷺ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ومنها ما يحتاج إلى غير ذلك من المحامل فى المناسبات.



الإشارة الثالثة: وهى التنبيه من الأئمة على أن الرؤيا الأحمدية تنسم بكمال الصحة والمطابقة، وهى اختصاصه فقط.

الإشارة الرابعة: أن الرؤيا المحسوسة مضافة إلى مزاجه وصورته المحمدية، أما قلبه ﷺ فهو صورة الحقيقة الأحمدية.

ومن أراد تفاصيل هذا الشرف الأحمدي، فعليه أن يطالع شرح القصيدة التائية للإمام الفرغانى (رحمه الله).

واعلم أن التلوين الحاصل لأرباب الشهود والتحليات أربعة أقسام:

الأول: يتعلق بمرتبة التحلى الظاهرى، وذلك بتوارد الأحوال الحاصلة من أحكام الأسماء الداخلة فى حیطة الاسم الظاهر، فتحجب أحوال كل اسم عن إدراك أحكام اسم آخر.

الثانى: ما يتعلق باسم الباطن بتوارد أحكام الأسماء الداخلة فى حیطته، فتحجب أحكام كل اسم منه وأحواله عن إدراك أحكام الاسم الآخر إلى وصول السائر إلى مقام جمعه وتمكينه.

الثالث: ما يتعلق بمقام جمع الجمع، وهو يتعلق ببدء التحليات الغيبية الكنهية، الغير منصبغة بحكم الاسم الظاهر والاسم الباطن.. وصاحب هذا المقام جامع بين الظاهر والباطن، ولكن يحجب لظهور ما لا ينصبغ بحكم الظاهر ولا الباطن ولا الجمع بينهما فيما يتعلق بمقام التمكين فى التلوين.

الرابع: هو تلوين التحليات الواردة من غيب الغيب، الغير منصبغة بحكم شىء من المراتب والمدارج.. أعنى جمع الجمع والظاهر والباطن، الذى مقابله تضمن تلك التحليات الكنهية أحكاماً غيرية خاصة لا يطلع عليها إلا صاحب مقام التمكين فى هذا التلوين، وهو صاحب مقام أحدية الجمع، لجمعه بين شىء من حكم الأحدية التى تتعلق تلك

التجليات الواردة من غيب الغيب بها، وبين أحكام الواحدية المتعلقة حقائق أحكامها وأسرارها بهذا المقام الأحدى الجمعى وظواهرها ومظاهرها أعنى من أحكام الواحدية دون الأحدية المتعلقة بمقام جمع الجمع وما دونه من المقامات.

### المرتبة الثالثة: رتبة المعرفة

قال فى العوارف: إن بناء أصل الطريق إلى الله أربعة:  
الأول: قلة الطعام.. والثانى: قلة المنام.. والثالث: قلة الكلام..  
والرابع: الاعتزال عن الناس.

وقال الشارح الفاضل المذكور فى الشرح، فى بيان معانى الحديث:  
«كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»<sup>(١)</sup>، قام هذا الرسول من حيث صورته  
الروحية العلمية بدعوة هؤلاء الأرواح الأربعة: الملكية.. والجنية..  
والإنسية.. والروحانيات جميعها، من قبل أن تتعين العناصر الأربعة التى  
هى: النار.. والهواء.. والتراب.. والماء.

وكذا قال الفاضل المذكور فى شرحه فى بيان المحو والفناء:  
اعلم أن كليات مراتب المحو بالنسبة إلى سائر السائر ثلاث،  
ورابعها مختص بالسير الأحدى.. فالجملة تكون أربعة، موافقة فى  
المراتب، مطابقة على الأصل المفروض:

الأولى: محو كثرة النفس وصفاتها الأصلية والعارضية، وفنائها نتيجة  
الجذبة والبقاء.

(١) أورده السخاوى فى المقاصد الحسنة، طبعة مكتبة الخانجى، الحديث رقم ٨٣٧،  
حيث قال: وأما الذى على الألسنة بلفظ: «متى كنت نبياً؟ قال وآدم بين الماء  
والطين».

وقال العلقمى فى شرح الجامع الصغير: حديث صحيح.. ورواه الترمذى بلفظ  
آخر عن أبى هريرة قال: قالوا يا رسول الله! متى وجبت لك النبوة؟ قال: وآدم  
بين الروح والجسد.

الثانية: محو الروح وصفاتها المخصوصة بها وفناؤها.. ونتيجة هذا المحو والفناء شهود كثرة الحقائق في مرآة العلم الوجداني الذي هو باطن الروح، وشهود كثرة شئون باطن الوجود من وراء أستار العلم والمعلومات بتميزاتها، غير مجردة عن كسوة مظاهر صور معلوميتها.

الثالثة: محو التقيد بحكم هذين الشهودين المتربين على المحوين السابقين، ونتيجة هذا المحو الثالث الجمع بين الشهودين، أعنى شهود الوحدة في عين الكثرة، وشهود الكثرة في عين الوحدة، ولكن مع بقاء الأثر في حكم المغايرة بين الوحدة والكثرة.

وأما المحو الرابع: الذي عليه اكتملت مراتب المحو، فهو أثر التقيد بحكم الوحدة والكثرة المتغايرين، ونتيجة التحقيق بوحدة جامعة بين نسبتى الوحدة والكثرة، ورؤية عدم المغايرة بينهما.

وقال الشارح، (رحمه الله)، في أول الكتاب (المقدمة)، في معرفة مراتب النفس ومعرفة الرب، أراد بذلك بيان معاني الحديث المشهور «من عرف نفسه فقد عرف ربه»<sup>(١)</sup>، وذلك التعرف لا يمكن إلا بالمراتب والمدارج.

قال القاشاني (رحمه الله): الأسفار أربعة:

الأول: هو السير إلى الله من منازل النفس للوصول إلى الأفق المبين وهو نهاية مقام القلب ومبدأ التحليات الأسمائية.

الثاني: هو السير في الله، بالاتصاف بصفاته، والتحقيق بأسمائه، إلى الأفق الأعلى، وهو نهاية الأحدية.

الثالث: هو الترقى إلى عين الجمع والحضرة الأحدية، وهو مقام «قاب قوسين» ما بقيت الاثنينية، فإذا ارتفعت فهو مقام «أو أدنى» وهو نهاية أو أدنى، وهو نهاية الولاية.

(١) أورده السخاوي في المقاصد الحسنة، حديث رقم ١١٤٩.

**الرابع:** هو السير بالله للتكميل، وهو مقام البقاء بعد الفناء والفرق بين الجمع، وسقوط الاعتبارات.. هو اعتبار أحدية الذات.

### المرتبة الرابعة: رتبة التحقيق

اعلم واستحضر: أن من أراد أن يكشف له الفرق والتحقيق بين معرفة النفس ومعرفة الرب، المرتبة على المحبة الذاتية فى المقام الأحدى الجمعى الأحدى المحدى، الذى هو غاية الغايات، فهذا لا يحصل إلا بعد تمهيد مقدمة، وأصول تنبنى عليها معرفة النفس والرب فى أربعة أصول من البيان المعجز من جهة دقة المعانى ورقة الألفاظ فى رعاية أبداع أصناف البديع، وأرفع أوصاف التصنيع، وأحلى فنون البيان، وأجلى عيون اللسان، وراعى فى كل أصول: ذكر أصلها على الإجمال والتفصيل.

**الأصل الأول:** فى تحقيق تعين الصفات الأربع الأصلية فى هذا المظهر الإنسانى من ظاهر هذه المشارع ، أحدها: اللسان.. وثانيها: العين.. وثالثها: الأذن.. ورابعها: البدن التى هى رقوم متضمنة جميع علوم عالم الحس، مرقومة فى ستور الهياكل البدنية المزجاة بين العوالم الغيبية والشهادة والخلقية والحقيقة.

**الأصل الثانى:** وهو يتضمن بيان أحكام الأسفار الثلاثة المختصة لسائر السائرين إلى مقام الكمال، وبيان حكم السفرة الرابعة الخصيصة بسير نبينا محمد ﷺ إلى مقام الأكملية المتعلقة تلك الأحكام بغاية كل سفرة منها، وتلك الغاية إنما هى التمكين فى تلوينات ذلك المقام وما تحتها.

**أما السفر الأول:** فهو فى ظاهر النفس المهممة فجورها وتقواها إلى ظهور ظاهر الوجود الواحد فى القلب الكامن فى النفس، وانفتاح عين السائرين من حيث رابع بطن من الأبطن السبعة.

وأما السفر الثاني: فيكون من ظاهر الوجود إلى باطنه من حيث روح هذا السائر، وظهور ذلك الباطن من الوجود في قلبه الكامن في روحه الروحانية، وانفتاح عينه من حيث النظر الخامس من الأبطن السبعة التي لصفاته الأربعة الأصلية، حتى يصير تقلبه المذكور، الذي هو صورة حقيقة الباطن في روحه الروحانية، آلة لنطق الحق الذي هو باطن الوجود المتجلي فيه أولاً وآخرًا.. وسبب تمكين هذا المقام الخلوة والعزلة، وأصحاب يمدونهم من الخيرات.

والسفر الثالث: هو الذي يوجب التقيد بالقيدين (الظاهري والباطني) إلى الحضرة، أى حضرة جمع الجمع.. وغاية هذا المقام التمكين في التلوينات الجمعية الأسمائية والصفاتية جميعها، بحيث لا يحجبه شيء من التحليلات المتعينة في مقام جمع الجمع، ولا التحليلات المختصة بالمقام الظاهرة وبالمقام الباطني، إلا أنه يحجبه التحليلات الغيبية الكنهية فاعلم ذلك وافهم.

وأما السفر الرابع: المختص بالحضرة المحمدية فهو في مقام جمع الجمع ومقام قاب قوسين الذي هو مقام الكمال إلى حضرة أحدية الجمع ومقام «أو أدنى» والبرزخية الكبرى التي هي رتبة الأكملية، وظهور التجلي الأحدى الأحدى الجمعي.. وحكم هذا المقام أن لا يحجبه شيء عن شيء، ولا تشغله أحوال العالم عن ذاته.

الأصل الثالث: وهو يتضمن ذكر أنه بعد شرف ظهور هذه المفاتيح بهذا المظهر الأشرف المحمدي، بظهور حكم اشتمال كل واحد منها على الجميع من حيثية جميع المراتب، بسبب كمال قابلية هذا المظهر المحمدي، وعروجه بجسده وروحه ومعناه وسره إلى عين هذه الحضرة الأحدية الجمعية، التي حكمها ظهور هذا الاشتمال بالكلية، في كل ما وصل إليها، وتحقق بها، بشرط أن يعود في بعض الأوقات إلى جزئية أوصافها، والظهور بقيد المراتب وأحكامها، وذلك الحكم هي النشأة

الدنيوية.. ألا ترى أنه ﷺ قيد هذا الرجوع إلى هذه الأحدية الجمعية بوقت ما، فيما قال: «لى مع الله وقت لا يسعنى فيه ملك مقرب ولا نبى مرسل»<sup>(١)</sup>.

وفى وقت ما كان ﷺ فى مقام الإسلام نائباً عن المؤمنين.. وغير ذلك من السير والسلوك فى العوالم كلها.

فهذه السير والسلوك تنبنى على أربع قواعد فى حصر مقامات السير إلى الله مع كل مقام:

القاعدة الأولى: اعلم أن كليات المقامات فى سير الإنسان من الطبع إلى النفس وإلى الرب فى ثلاثة مقامات (غير الرابع الذى هو مقام التمكين):

الأول: مقام الإنسان.. والثانى: مقام الإيمان.. والثالث: مقام الإحسان.. والمقام الرابع: تمكينه فى هذه المقامات. ولكل مقام منها تفصيل فى الشرح.

القاعدة الثانية: اعلم أن من خصائص الكامل أن يكون بروحه وسره غالباً مشاهداً حضرة الغيب وما فيها.. فى مقام الإحسان وبحواسه ومشاعره الظاهرة والباطنة، مشتغلاً بالآثار والعبر.. وفى مقام الإيمان مشتغلاً بالعبادة الدينية فى الأمر والنهى الشرعى.

القاعدة الثالثة: فى بيان تجسد الأعمال:

اعلم أننا قد بينا مراراً على أن العرش والكرسى والسموات كلها مظاهر الحقائق الإلهية، وأن الكواكب مظاهر الأسماء، وأن التشكلات والاتصالات والقرانات التى تؤثر بالوساطة وبحكم المظهرية فيما تحته من

(١) أوردته السخاوى فى المقاصد الحسنة، وقال: يذكره المتصوفة كثيراً وهو فى رسالة القشبرى، بلفظ: «لى وقت لا يسعنى فيه غير ربى»، حديث رقم ٩٢٦، طبعة مكتبة الخانجى.

عالم الكون والفساد، بل الأسماء تؤثر من ورائها، بل جمعية الحق تؤثر من ورائها، ومن وراء كل اسم من أسمائها.. كما أنها تؤثر بوساطة الأكل والشرب من ورائهما، ومن وراء اسم الرزق والباقي فى تحصيل الشبع والرّى فى البدن.. وكذلك الصور الإنسانية التى هى مظاهر تلك الحقائق والأسماء الإلهية وقواها وأعضاؤها، وغير ذلك من الأسمائية الشئونة الصفاتية.. فافهم ما فى هذا المسطور مجملًا، واطلب الشرح بتحد مفصلاً.

عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ذروة الإيمان أربع خلال: الصبر للحكم.. والثانى: الرضا بالقدر.. والثالث: الإخلاص للتوكل، والرابع: الاستسلام للرب»<sup>(١)</sup>، الخواطر التى ترد على القلب، من الخطاب والوارد الذى لا تعتمد للعبد فيه.. وما كان خطاباً فهو أربعة أقسام:

الأول، ربانى: وهو أول الخواطر ويسمى السبب الأول.. وفى الجملة كل ما فيه صلاح يسمى إلهامًا.

والثانى، نفسانى: وهو ما فيه حظ النفس.

والثالث، شيطانى: وهو ما يدعو إلى مخالفة الحق، كما قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].  
والرابع، ملكى: وهو الباعث على مندوب أو مفرض.

القاعدة الرابعة: تتضمن أن النفس المطمئنة الراضية المرضية بالشهود والتحقيق بهذه الأسماء الكلية والصفات الأصلية، إذا شاءت أن تظهر آثار

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان ٢١٩/١، حديث رقم ٢٠٢، طبعة دار الكتب العلمية، وأخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء ٢١٦/١، طبعة دار الفكر.. الحديث هو: ذورة الإيمان أربع خلال: الصبر للحكم، والرضا بالقدر، والإخلاص للتوكل، والاستسلام للرب.

هذه الأسماء والصفات المذكورة، فإظهارها تكون من حيث المفهومات الحاصلة من أخبار صادرة من مقام النبوة، يكون ذلك أجمع فائدة وأكمل نتيجة للخلق من مقام النبوة المضافة إلى الحضرة المحمدية العامة الشاملة لجميع الحضرات، مثل قوله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»<sup>(١)</sup>.

وعند أهل الشريعة وأرباب الطريقة: أن الإنسان فى مقام الإحسان يعبد ربه على تيقن، بحيث يحسبه بين يديه برعاية كمال التعظيم وقوته، بترك الالتفات إلى عدم الرؤية، فيراعى حق تعظيمه وكمال التوجه بكلية الظاهر الباطن إليه.

وأما أهل الكمال: فلهم مقامات أخر فى ذلك.. ومن أراد الوقوف بكماله، فله أن يطالع الشرح.

**الأصل الرابع:** فى بيان أن صاحب مقام أحدية الجمع، بعد تحققه بحقيقة مقام الإحسان فى مبدئه الذى حكمه «كأنك تراه»، يكون هناك بقية من آثار أنانيته المجازية، ثم يترقى إلى مقام الإحسان الذى حكمه، «فإن لم تكن تراه، لفناء جميع البقايا، حيث شاهد ربه فى أعلى مراتب الشهود، والمعبر عن ذلك بقوله: «تراه» فصارت آيات تجليات هذه الحضرة الأحدية الجمعية التى هى الآيات الكبرى، وتجليات الأسماء العظمى، مرئية له.. وآلات تصرفاته من جوامع الكلم: رؤية كل شىء فى كل شىء، وسماع كلام ربه من حيث كل شىء.

فاستحضر هذه المقامات والأصول تنتفع إن شاء الله تعالى، وينكشف لك أسرار مراتب التزيينية الأصلية، الجامعة لجميع المراتب الظاهرة والباطنة فى العلوية والسفلية.

انتهى الكلام من القصيدة الفارضية، قدس الله سره، ونفعنا من معارفه الوترية الأحمدية.

(١) عن أبى هريرة، رضى الله عنه، صحيح البخارى.



## القسم الثاني

### بعض أحوال العالم الواقعة على أصول التريب وأسرار التريب في بعض العبادات

حكمة غسل الأعضاء الأربعة:

قال صاحب كشف الأسرار (رحمه الله): السر والحكمة في غسل الأعضاء الأربعة، ومجيئها في الأصول التريبية، قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، حيث قال أهل الحكمة من العلماء: الإشارة في أمر غسل الأعضاء الأربعة الظاهرة، ليكون مطابقاً على مراتب الطبائع الأصلية الإنسانية.

وقال بعضهم من العلماء: الأصل فيه أن أحوال القيامة أربعة: الأول: الموت.. والثاني: القبر.. والثالث: القيامة.. والرابع: النار.

فإذا غسل وجهه يرفع الله تعالى عنه هول الموت، وإذا جاء ملك الموت يجيء إليه نور غسل الوجه، فينظر العبد ذلك النور، فيرى عرش ربه، ويرى مكانه في الجنة، ويسمع قول منادى الرب تعالى: ﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

- فإذا وضع في القبر: جاءه غسل اليدين، فيضئ له القبر، ويخرج الوحشة والندامة، فيحييه القبر ويقول: جئتني وأنا موضع الظلمة والوحشة، فأنتيتني بسراج منير، فطوبى لك أيها العبد.

- فإذا خرج من قبره، يجيء نور مسح رأسه، فيمشي أمامه، فتضئ له القيامة.. فذلك قوله تعالى: ﴿تُورِثُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ﴾ [التحریم: ٨].

ويسلم عليه الملائكة، ويستغفرون له، ويكون له يوم القيامة (الذي هو مقدار خمسين ألف سنة) قدر أربع ركعات من الفرض؛ لأنه قام فى الدنيا كل يوم خمس مرات، فصارت له كل صلاة مقدار ألف سنة.

— فإذا وصل العبد الصراط، فعليه يومئذ ظلمة، فيجىء نور غسل القدمين، فيضىء له الصراط، فيمر عليه كالبرق الخاطف بتوفيق الله تعالى.

فلأجل ذلك أمر الله تعالى بغسل الأعضاء الأربعة، وبإقامة أربع ركعات، لتجمع عليه أنوار الأربعة، وتكون إمامه إلى الجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَسَيَقُودُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣].

**موافقة الأعمال للأصول:**

— قال النيسابورى: ويقال: أن العمل للشواب والعقاب، لا للسعادة والشقاوة، والعلامة: جمود العين، وقسوة القلب، وحب الدنيا، وطول الأمل.. وتلك أربعة، لتكون الأعمال موافقة للأصول كسائر أحوال الناس، فانظر بالتأمل تجد التطابق بين الأصول.

وقال ذو النون المصرى، رضى الله عنه، علامة السعادة أربعة: **الأول:** حب الصالحين والدنو منهم.. **الثانى:** تلاوة القرآن.. **والثالث:** سهر الليل.. **والرابع:** مجالس العلماء ورقة القلب؛ لأن الطالب لا يستفيد من مجالسة العلماء ما لم يكن فى قلبه رقة وقابلية؛ لأن الأديان على أربعة أقسام:

**الأول:** سعيد بالنفس فى لباس السعادة، وهم الأنبياء عليهم السلام، وأهل الطاعة.

**الثانى:** شقى بالنفس فى لباس السعادة، مثل برصيصا وبلغم بن باعورا.

الثالث: شقى بالنفس فى لباس الشقاوة وهم الكفار.

الرابع: سعيد بالنفس فى لباس السعادة كبلال وسلمان.

وفى هذه الألفاظ سر التزييع ظاهر من عدة أوجه لأولى البصائر.

أسباب كفر إبليس:

قال علماؤنا (رحمهم الله): الأسباب فى كفر إبليس كثيرة جداً.. وبالقياس والحصر يعتبر على أربعة أوجه:

الأول: أنه قاس فى معرض النص (فلا قياس مع نص).

الثانى: أن الطين يتخذ منه المساكن وغيرها، وينبت فيه الأقوات، والنار من شأنها الإحراق والطيش.

والثالث: أن الطين طبعه الرزانة والثقل، والنار من شأنها الخفة والطيش، والطين خير منها.

الرابع: كفر لأنه استنقص آدم، عليه السلام، وهو نبي.. ولذلك كفر من استنقص الأنبياء، عليهم السلام، أو استنقص ورثة الأنبياء وهم العلماء إلى يوم القيامة؛ لأن من استنقص أو استحققر نبياً أو ولياً أو عالماً كفر.

- قال الشيخ فى الفتوحات: واعلم أن أهل النار الذين لا يخرجون منها أربع طوائف: المتكبرون.. والمعلقة.. والمنافقون.. والمشركون.. وجميعها كلها كلمة «المجرمون» فى قوله تعالى: ﴿وَأَمَنُوا أَلَيَّهَا الْفَاجِرُونَ﴾ [يس: ٥٩]، أى: المستحقون العذاب.. ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الأصل.

أسرار التزييع فى الرجاء والخوف:

تكلم علماؤنا، رحمهم الله، عن الرجاء والخوف وأيهما أفضل لتوحيد

الله: فقال بعضهم: الخوف أفضل؛ لأنه لولا الخوف ما قبل بنو آدم الأدب وسائر الحيوانات.. وقال آخرون: الرجاء أفضل لأربعة أشياء:

الأول: الرجاء إلى فضله والخوف من عدله، والفضل أفضل وأكرم من العدل.

والثاني: الرجاء إلى الوعد والوعيد من بحر الرحمة، والخوف من الوعد والوعيد من بحر الغضب، ورحمته سبقت غضبه.

الثالث: الرجاء بالطاعة، والخوف من المعصية.. ومن الطاعة ما لا يعلو على المعاصي كالتوحيد.

الرابع: الرجاء بالرحمة، والخوف من الذنوب.. والذنوب ذو نهاية، والرحمة لا نهاية لها.

وقال الشيخ (رحمة الله عليه في الفتوحات): اعلم أن أعلم الأرواح بالله عز وجل أرواح الجماد لكونها لا حظ لها في التدبير.. ودونهم في العلم بالله تعالى علم أرواح النبات.. ودونهم في العلم بالله تعالى أرواح الحيوان.. ودونهم في العلم بالله تعالى أرواح من تقيّد بالعقل.. وذلك لأن الثلاثة الأول مفلطرون على العلم بالله تعالى، بخلاف الرابع.

وقال بعضهم: الخوف أفضل لأربعة أشياء:

الأول: لأنه بالخوف وعد جنتين، ولم يعد بالرجاء إلا جنة واحدة<sup>(١)</sup>.

والثاني: الخوف يمنع من الذنوب، وترك الذنوب أفضل من فعل الخيرات، كما ورد في الأثر: «لترك ذنب أفضل من عبادة الثقلين».

والثالث: الخوف من مقام العارفين.

والرابع: من عبد الله تعالى بالخوف فهو مرتجى.. ومن عبد الله تعالى

(١) يقصد، قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [الرحمن: ٤٦].

بالحب فهو زنديق.. ومن عبد الله تعالى بالثلاثة فهو مستقيم.. وفي ذلك كله إشارة للأصول من الأركان والعناصر وغيرها مما لا يخفى على الفطن العارف الذكي الفهم.. يعنى من عبد الله بالقلب لا بالجسد فهو مبتدع.. ومن عبد الله تعالى بالروح يعنى بالسر والمحبة فهو زنديق ملحد.. ومن عبد الله تعالى بالجسد فقط، فهو ساه وغافل وصاحب خسران، ناقص ساقط فى درجة العبودية.. ومن عبد الله تعالى بالنفس، فهو من أهل الهوى.. وأما من عبد الله تعالى بالأركان الأربعة، وبجميع قواه وحواسه، فعبادته حقيقة معتبرة فى الشرع.

### السر فى تصوير آدم، عليه السلام، على أربعين سنة:

قال بعض الأفاضل: السر والحكمة فى تصوير آدم، عليه السلام، على أربعين سنة، قبل إدخال الروح فيه، أنه على طريق أكمل الأعداد وهى أربعون، ليعلم أن الحقائق فى الكون لا تخلو من أسرار الترتيب؛ لأن قواعد الكون وأصله وحملة العرش وغيرها لا يخلو من سر الترتيب، ولذلك لم يوحى ولم يبعث نبي من الأنبياء، عليهم السلام إلا بعد الأربعين.. فتركه مصوراً بعدد مدة الأنبياء، عليهم السلام.

وهذا المجال فيه أسئلة وأجوبة لم نلتزم ذكرها فى هذا المختصر، ومن أراد الوقوف على أمثال هذه، فعليه كتاب «أصول الحكم» لوالدنا المرحوم، قدس الله سره العزيز ونفعنا من علومه ومعارفه.

### أسرار الترتيب فى دعاء سيدنا إبراهيم:

قال صاحب كشف الأسرار فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

قال أهل المعرفة من المفسرين: سأل إبراهيم (عليه السلام) ربه ثناءً حسناً وفى هذا الشأن أربعة من المعانى:

الأول: سأل إبراهيم، عليه السلام، الصفات المحمودة التي يستحق بها الثناء؛ لأن الثناء تعينه.. كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، أى: أكرمنا بمناقب الأمة التي نصلح لها، وكما قال سليمان بن داود (عليهما السلام) فى قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، أى: احفظنى من الأشياء التى توجب زوال النعمة.

الثانى: ﴿وَجَعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، أى: بأن لا أغالى فى الأصدقاء، كى لا يقع أحد بسببى فى المعصية، كما قالت مريم: ﴿يَلَيَّتْنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، أى: قبل أن يقع أحد فى المعصية بسببى.

الثالث: أن عيسى، عليه السلام، كذبت عليه النصارى بأنه ابن الله، فيستحى يوم القيامة حيث يقول الله تعالى: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].. كذلك خشى إبراهيم، عليه السلام، أن يكذب عليه فيستحى من الله تعالى.

الرابع: اجعل لى ثناء حسناً لأن المؤمنين تشهدوا، والله لا يرد شهادتهم، وقيل: ومعنى صلاة الله على إبراهيم كتحقيق الدعاء والإجابة والقبول.. وقولك فى الصلاة: اللهم صلى على محمد كما صليت على إبراهيم، هذا أثر قبول دعاء إبراهيم، عليه السلام.

أربعة أسباب لابتلاء يعقوب عليه السلام:

قال أرباب التأويل من المفسرين: فى ابتلاء يعقوب، عليه السلام، أربعة أوجه:

الأول: لأنه لا شىء أشد من كى الولد.. ألا ترى أن نوحاً عليه السلام دعى على الكفار فأغرقهم الله، ولم يحترق قلبه.. فلما بلغ ولده

الفرق صاح، وقال: ﴿إِنَّ آتِيَّ مِنْ أَمَلٍ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَخْكُمُ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٥].

الثانى: لأنهم قالوا: ﴿لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَٰهٍ آتَيْنَا مَنَّا﴾ [يوسف: ٨]، لحسن صورته.

الثالث: لأن الله تعالى أراد ابتلاءه بيوسف عليه السلام، كما ابتلى كثيراً من الأنبياء، عليهم السلام، بسبب اقتضاه حكم القضاء من الله تعالى.

الرابع: لأنه كان يتيماً من الأم فيترحم عليه.. وفى الخير: أن الملك قال ليوسف، عليه السلام: إني أحبك، فقال: لا تحبنى فإن أبى أحبنى، ف وقعت فى العبودية بسببه، وزليخا أحبتنى، ف وقعت فى السجن بسببها.. ومن أحبنى يصيبنى منه محنة.

#### أسباب ابتلاء يوسف بالعبودية والسجن:

قال بعض العارفين: فى ابتلاء يوسف، عليه السلام، بالعبودية والسجن أربعة أسباب، واعتبار فى المراتب، مطابقاً للأصل الخلقى الذاتى:

الأول: ليرحم الممالك والمسجونين إذا صار ملكاً.

الثانى: ابتلاؤه بجفاء الأقارب ليعتاد الاحتمال من القريب والبعيد.

الثالث: ابتلاؤه بجفاء الحساد ليعتاد الاحتمال من البعيد والبعيد.

الرابع: ابتلاؤه بالقرب ليرحم الغرباء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَدُوهُمْ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤].. قال أرباب التأويل: فى الهم أربعة معان: الأول: همّت به حراماً.. والثانى: همّت به حلالاً.. والثالث: همّت به فراراً.. والرابع: همّت بها فراراً.. وغير ذلك من التمثيلات والمحامل.

### الترجيع فى أسماء عيسى عليه السلام:

قيل: كانت أسماء عيسى، عليه السلام، أربعة: الأول: عيسى.. والثانى: كلمة.. والثالث: مسيحًا.. والرابع: روح الله.. وهذه الأسماء مطابقة للأركان والأصول.

عيسى: هو الأبيض فى اللغة.. وروحًا: لأنه كان من ربح جبريل، عليه السلام.. ويقال: ولد من ساعته.. ويقال: ولد لثمانية أشهر.. وقيل غير ذلك.

وأما كلمة: فلا أنه صار بكلمته مخلوقًا.

وسماه مسيحًا: لأنه يسبح فى الأرض.

روى أن الله سبحانه وتعالى أكرم أربعة من الصبيان بأربعة أشياء: يوسف بالوحي فى الجب، وعيسى بالنطق فى المهد، وسليمان بالفهم، ويحيى بالحكمة.

### أربعة أوجه فى دعوة أيوب عليه السلام:

قيل: هناك أربعة أوجه فى سبب دعوة أيوب، عليه السلام، فى قوله  
تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ  
الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

الأول: أيمسنى الضر وأنت أرحم الراحمين؟.

الثانى: مسنى الضر أن أقول: «لا أصبر» فيكون جزعًا، أو اكشف  
عنى فيكون تحكمًا.

الثالث: أن الدود قصد قلبه الذى هو خزانة المعرفة والإيمان، ومحل  
الحب والعرفان.

الرابع: لانقطاعه عن الطاعة بسبب البلاء.



### حبس يونس فى بطن الحوت على سر الترييع:

قيل: حبس يونس، عليه السلام، فى بطن الحوت على أكمل الأعداد، أو فى الترييع لتكميل سر الترييع.. وفى هذا الأصل أسباب أربعة:

**الأول:** أن الحوت لما جرحه غمروء بسهم اشتكى إلى الله تعالى، وقال: «جرحنى عدوك بسهم» فأكرمه الله تعالى بيونس، عليه السلام.

**والثانى:** ثنى عليه بعجائب من الحيتان: حوت موسى عليه السلام، وحوت الذى تحت الأرض، وهو الذى رفع سفينة نوح عليه السلام، والحوت الذى أكل الطعام مع سليمان عليه السلام، والحوت الذى نزل على مائدة عيسى عليه السلام، وحوت قوم داود عليه السلام، وحوت يونس عليه السلام.

**والثالث:** تضرع قومه أربعين يوماً، لم يحمل أذاهم، فحبسه الله تعالى أربعين يوماً، وأنبت عليه شجرة يقطين لأن فيه خواص أربع:

**الأول:** لأن فيه شفاء للمعلولين.

**والثانى:** لا يقع عليه الذباب، ظلها أبرد ظل.

**والثالث:** أنه يشد قلب الحزين.

**والرابع:** هى ألطف الأشجار وأسرعها نباتاً.

وفى شجرة اليقطين خواص غير هذه، ولكن ذكر بعض خواصها فى هذا المسطور ليستدل بها على غيرها.. فافهم.

**سر خلق آدم على صورة الرحمن:**

قال أرباب التأويل من العلماء بالله فى قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم

على صورة الرحمن<sup>(١)</sup>، وفي رواية: «على صورته»<sup>(٢)</sup>، وفي الحديث أربعة معاني:

**الأول:** أن المراد من صورته صورة آدم، عليه السلام، والضمير يرجع ويعود إلى آدم عليه السلام.. والمعنى أنه خلقه على صورته التي خلقه عليها، وكان طوله ستين ذراعاً في عرض سبعة أذرع، وأن بنيهِ لم يزلوا يتقاصرون إلى ما نراه اليوم، وفي الحديث: «إن أهل الجنة يدخلون الجنة جرداً مردّاً جعلداً على طول آدم ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع»<sup>(٣)</sup>.

**الثاني:** أن المعنى بصورته: أى بصورة الرحمن.. والمراد أن الله خلق آدم وصوره.. فصورة آدم صورها الرحمن، وإضافتها إلى الله تعالى تشريف لآدم، عليه السلام.. وعندى أن هذا الوجه الثاني أوجه من سائر الوجوه الثلاثة، الله أعلم حقيقته.. وأما عند بعض الصوفية مذاهب شتى، أوردناها مفصلة في كتابنا كنز الأسرار، فاطلبه تجد أسراراً لطائف، نقلاً عن كبار المشايخ رحمهم الله، لا أنه خلقه على صورة الرحمن نفسه؛ لأن ذلك مستحيل على الله تعالى؛ لأنه ليس بجسم مصور.

**الثالث:** أن المراد بالصورة هي الصورة المعنوية، فالإنسان بطبعه يحب الكبير والعلو وهما صفتان للرحمن، فجعله سمياً بصيراً عالماً.. وهذه الأوصاف قد أطلقت على الله تعالى، وفيها إشارة إلى تكريم آدم،

(١) حديث: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن»، رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن ابن عمر، كتاب الآداب، باب النهي عن تقييح الوجه.. حديث رقم ٨٧٢، نشر مركز خدمة السنة والسيرة، المدينة المنورة بتحقيق د. حسين أحمد.

(٢) حديث: «إن الله خلق آدم على صورته»، رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة.. حديث رقم ٦٢٢٧، في كتاب الاستئذان، باب بدء السلام ٦٢/٨، طبعة دار الشعب.

(٣) رواه الإمام أحمد، عن أبي هريرة، رضى الله عنه.

وتكريم ذريته وتشريفاً له على سائر المخلوقات.

**الرابع:** ذكر الإمام في تفسيره: أن المراد صورة آدم.. والمعنى أنه خلقه من أول وهلة على صورته، ولم يجعله أولاً نطفة ثم علقه ثم مضغة.. بل خلقه ابتداءً على هذا الشكل، بخلاف بنيه، حيث خلقهم على التدريج.

### أسرار التبريع في دفع خاتم سليمان:

قال أرباب التأويل في دفع خاتم سليمان، عليه السلام، أربعين يوماً، على أكمل أعداد التبريع.. قيل دفع هذا في حق سليمان لأسباب أربع:

**الأول:** كان في داره صنم يعبد من دون الله تعالى، أربعين يوماً فسلب بعدده.

**الثاني:** أراد أن لا يعجب بدنيا وولاية تصلح لشیطان.

**الثالث:** إنما أراد أن الملك بيده، إذا شاء أعطاه، وإذا شاء منعه.

**الرابع:** نظر سليمان، عليه السلام، إلى أربعة أشياء: الأول: إلى علمه فابتلاه الله تعالى بالهدد.. والثاني: نظر إلى ملكه فابتلاه بأصف.. والثالث: نظر إلى ماله فابتلاه الله بشيطان.. والرابع: نظر إلى سياسته وحشمته، فابتلاه الله بنملة.

### أركان الصلاة الربعية:

قال أهل الحكمة والمعرفة.. جعل الله الصلاة مثني وثلاث ورباع؛ لأن الله تعالى خلق أجنحة الملائكة مثني وثلاث ورباع، على أركان الإنسان وأصوله الأربعة، لتكون كفارة.. فأراد أن يكفر بها ذنوباً صدرت بواسطة هذه الأركان؛ لأن الإنسان في الحقيقة: اثنان (أى الجسد والروح)، وقد يكون ثلاثة (باعتبار القلب والمعنى) ويكون أربعة بالنفس.. وهكذا يكون مطابقاً وموافقاً لأجنحة الملائكة.

وجعلت الصلاة على أربعة أركان: القيام.. والركوع.. والسجود.. والقعود.. يريد الله بها تكفير ذنوب الأعضاء الأربعة (كما مر ذكره) وليكون الإنسان مصلياً ومناجياً ربه بأركانه الأربعة مطابقاً للخلق؛ لأن الخلق أربعة أصناف:

الأول: قائم مثل الأشجار. والثاني: راكع مثل الأنعام.

والثالث: قاعد مثل الأحجار. والرابع: ساجد مثل الهوام.

فأراد سبحانه وتعالى موافقة الجسد في العبادات لجميع المخلوقات.. ولذا قال بعض الأفاضل: هذه الكلمات الأربع (سبحان الله.. والحمد لله.. ولا إله إلا الله.. والله أكبر) هي صلاة الخلائق من جميع الموجودات، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ إِلاَّ يُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فشرع الله جل شأنه الصلاة الشرعية على عدد الأركان الأربعة؛ لأن أسرار التزيين سارى فى أكثر الحقائق، خصوصاً فى الصلاة الجامعة للقيام والقعود والركوع والسجود، وحركة الرفع والخفض.. وقد كان أجملها فى: الساكن الذى هو الأرض، وفى الجارى الذى هو الماء، وفى المتحرك الصاعد الذى هو النار، وفى المتجدد المتحرك الذى هو الهواء.

— فجعل القعود المشبه بالسكون فى العالم (الأرض): التشهد.. والغرض من التشهد هو الشهادة بالتوحيد على كلمة «لا إله إلا الله»، وهى شهادة الموجودات له بالتوحيد.

— وجعل حركة الرفع والخفض، الذى هو شبيه الهواء فى تحده وحركته «الله أكبر».

— وجعل للركوع والسجود، (ويجمعهما جميعاً اسم السجود الذى هو بين القيام والقعود شبيه بالماء الذى هو بين الأرض والهواء) التسبيح..

سبحان ربى الأعلى، وسبحان ربى العظيم.

- وجعل للقيام فى الصلاة الذى هو شبيه لصعود النار الحمد لله..

وكذلك كان ﷺ إذا أشرف على شرف كبير، وإذا هبط سبّح، وإذا استهل هلل، وإذا صعد قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

فالأربع كلمات فى الأصول، وهى صلاة الخليفة.. وإنما هى على أربعة أصول: الهواء والماء والنار والأرض.. لكل واحد من هذه الأصول كلمة يختص بها من الكلمات الأربع.. ولما أوج الحق سبحانه وتعالى هذه الأصول بعضها فى بعض، ومازج بينهما، امتزجت الكلمات الأربع فى الأصول الأربعة، وتركت فى أحوال صلاتها، ففصلها حلّ جلاله فى الصلاة الشرعية على أربعة أركان:

قيامه حالة الحمد.. وقعوده حالة التشهد.. وركوعه وسجوده حالتان مخصوصتان، وتراها بجملة فى الصلوات الفطرية بتفصيلها بالتدبير وإعمال الفكر.

ولما كانت الشجرة فى الدنيا على أربعة أصول، وكان ذكرنا أربع كلمات، ومن ذكر واحدًا منها غرس له شجرة فى الجنة كما جاء فى الحديث: «أكثرُوا من غراس الجنة وهى سبحان الله، والحمد لله، وإلا إله إلا الله، والله أكبر»<sup>(١)</sup>.. وكذلك الصلاة جامعة لأربعة أشياء:

الأول: حضور.. والثانى: شهود.. والثالث: خشوع.. والرابع: خضوع.

فالحضور بالنفس.. فمن لم يحضر بالنفس فهو ساهى.

والشهود بالقلب.. ومن لم يشهد بالقلب فهو لاهى.

والخشوع بالسر (يعنى بالروح).. ومن لم يخشع بالسر فهو مضاهى.

(١) مسند أحمد، رواه عن أبى أيوب الأنصارى.

والخضوع بالجلسد.. والمطلوب التأنى فى الصلاة حتى تخضع أركان الإنسان لمولاه.

فانظر بالإنصاف تجد سر التزييع ممتزجاً فى العبادات وغيرها فى العوالم.

### الحكمة فى تخصيص الغسل فى الأعضاء الأربعة<sup>(١)</sup>:

قال بعض الأفاضل: ليكون مطابقاً بالأركان والأصول العارضة فى النشأة الإنسانية.

وقيل فى أول وضع الغسل: أول هذا الغسل وقع حين تناول أبونا آدم، عليه السلام، من الشجرة.. وسر ذلك وحكمته هى:

قيل توجه عند الأكل أولاً بالوجه، ولذلك كان يغسل الوجه أولاً.. وتناول باليد.. ومشى إليها بالرجل.. ووضع يده على رأسه.. فأمر بغسل هذه الأعضاء الأربعة.

وقيل: نق ظواهرك حتى أنقى باطنك.

أسباب جلد شارب الخمر أربعين:

قيل: سبب هذا أربعة أوجه:

الأول: لأن الخمر إذا شربه إنسان يسقى ويمجرى فى عظمه ولحمه أربعين يوماً.

والثانى: لا يقبل شهادته إلى أربعين يوماً، كما جاء فى الحديث<sup>(٢)</sup>،

(١) وهى المستمدة من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

(٢) روى ما يتعلق بعدم قبول صلاة شارب الخمر ونجاسته أربعين يوماً، كقوله ﷺ: «من شرب مسكراً لم يقبل الله له صلاة أربعين يوماً»، أخرجه الطبرانى فى الكبير ١٥٤/٧، والنسائى فى سننه بلفظ مقارب فى كتاب الأشربة (باب الروايات=

وبعد الأربعين تقبل صلاته؛ لأنه بعد الأربعين يذهب عنه آثار الخمر.

والثالث: أن شارب الخمر لا تقبل صلاته إلى أربعين يومًا.

والرابع: أن الخمر يسرى في عروقه (كما أن النطفة تسرى في الرحم أربعين يومًا، وفي عرق الأمهات) وعندما تسرى وتجري عند التلذذ، تؤثر تأثيرًا شديدًا لذيذًا في الأصول والأركان والعناصر الأربعة وسائر الحواس.

لذلك يجلد شارب الخمر أربعين جلدة بمقابلة كل يوم، وبمقابلة كل ركن عشرًا كاملة، لتكميل سر الترييع السارى في كل شيء، وذلك لسريان أسرار الترييع في كثير من الأشياء.

أنهار الجنة أربعة:

قيل: إن أنهار الجنة أربعة، ومن ذلك علمنا أن التحلى العلى لا يقع إلا في أربع صور: ماء.. ولبن.. وخمر.. وعسل.

فأنهار الماء: لأصحاب العلوم التى لا تدخلها الآراء.

وأنهار الحليب: الذى لم يتغير طعمه: فهى لأصحاب العلم بأسرار الشرع.

وأنهار الخمر: فهى للأمناء من أصحاب العلوم الذوقية، كعلم الخضر عليه السلام.

وأنهار العسل المصفى: فهى لأجل طريق الوحي.

كذا جاء فى الفتوحات.

من أسرار الترييع فى أقوال المصطفى الأمين ﷺ:

قوله ﷺ فى الوضوء: قال النبى ﷺ: «من توضأ نحو وضوئى هذا، ثم

=المغلظة فى شرب الخمر) وأخرج الطبرانى مرفوعًا: «من شرب الخمر كان نجسًا أربعين يومًا»، المعجم الكبير ١٢/٢٤٩، ١٦٨/٢٤، دار البيان العربى، القاهرة.

قام يصلى ركعتين، لم يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر<sup>(١)</sup>.

وقول الرسول ﷺ «نحو وضوئى» ولم يقل: «مثل وضوئى» فيه أربعة أوجه:

**الأول:** أنه ﷺ رتب حصول الثواب على الإتيان بوضوء يقارب وضوءه، ولم يقرب فى الحصول للإتيان بمثل الوضوء، لتمييز فى ذلك على الأمة، والتوسعة عليهم فى أبواب الغسل.. يقرب منه قوله ﷺ: «قاربوا فى العمل»<sup>(٢)</sup>، يعنى أنكم لن تستطيعوا الإتيان بما أمرتم به، فقاربوا الإتيان بمثله، والذي يقرب من الشئ هو النحو.

**الثانى:** أنه ﷺ إنما قال: «نحو»؛ لأن أحداً من الأمة لا يستطيع أن يأتى بالعبادة التى أتاها النبى ﷺ فى صفاتها الكاملة من الإخلاص وحضور القلب والخشوع وسائر الآداب.

**الثالث:** لابد من حصول ذلك فى مراعاة النحو، فيأتى بوضوء يقارب ذلك الفعل، ولا يأتى به بعيداً عنه؛ لأن مدلول النحو القصد، كما قيل: «نحاً إذا قصد».

**الرابع:** إشارة إلى مثلين متغايرين فى الذات واتحاد فى الصفات.. ويجوز أن يثبت لكل واحد ما يثبت للآخر، ويستحيل على كل واحد ما يستحيل للآخر.

### قوله ﷺ فى شهادة التوحيد:

روى عن أنس، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين

• (١) رواه البخارى فى صحيحه، حديث رقم ١٥٩، عن عثمان بن عفان، كتاب الوضوء، راجع ٥٠/١ طبعة دار الشعب.

(٢) روى فى كتب الحديث بلفظ: «سدّدوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة»، أخرجه البخارى (٦٤٦٤): ٨١ كتاب الرقاق، ١٨ باب القصد والمداومة على العمل من حديث عائشة، رضى الله عنها.



يصبح: اللهم إنى أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك، بأنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، أربع مرات، عتقه الله ذلك اليوم من النار<sup>(١)</sup>.

قال بعض الأفاضل: فيه سر الترتيب من عدة أوجه: الوجه الأول (فيه أربع نقاط): الأول: أشهد الله.. والثانية: وحملة العرش.. والثالثة: والملائكة.. والرابعة: وجميع الخلق.. فأعتق الله تعالى بشهادة كل شاهد من هؤلاء ربه<sup>(٢)</sup>.

الوجه الثاني: كما أن الإنسان يهدر دمه إذا شهد عليه أربعة في الزنا، كذلك يعصم دم هذا من النار، إذا شهد أربعة على إيمانه.

الوجه الثالث: قال بعض العلماء: تكرير هذه الكلمات أربع مرات، تبلغ حروفها ثلثمائة وستين حرفاً، وابن آدم مركب من ثلثمائة وستين عضواً، فأعتق بكل حرف منها عضواً من أعضائه، فإذا قالها مرة أعتق الله ربه.

والرابع: قال بعض العلماء: إن العبد إذا دعى ربه، وتوجه إليه بتوجه تام خالص، لا يخلطه بشيء آخر، ينادى ربه بلسانه، ويتوجه إليه بقلبه، ويصعد إليه بروحه وبسره، ويتعرض بنفسه لنفحات رحمته، فقد توجه بالأركان والأصول الظاهرة والباطنة.

واعلم أن الشافعين: واحد وثلاثة، فالواحد أرحم الراحمين، والثلاثة هم: الملائكة والنبيون والمؤمنون، وبقي أرحم الراحمين، فكل طائفة تخص حضرته.. فأرحم الراحمين يشفع في الذين لم يعلموا خيراً قط غير توحيدهم لله فقط.. فهم كصاحب السجلات، وهؤلاء هم الذين

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب ٤/٣١٧، حديث رقم ٥٠٦٩، طبعة المكتبة العصرية.

(٢) فإذا قالها أربع مرات أعتق نفسه كلها.

شهدوا مع شهادة الله والملائكة: أنه لا إله إلا هو.

تميز سيدنا محمد ﷺ بمنازل أربعة:

قال الشيخ فى الفتوحات: لقد أنزل الله محمدًا ﷺ أربع منازل لم ينزل فيها غيره من الأنبياء: أعطاه ضروب الوحي كلها.. وأعطاه علم الأحوال كلها.. وأعطاه علم إحياء الأموات معنى وحسًا.. وأعطاه علم الشرائع المتقدمة كلها، وأمره أن يهتدى بهداهم.. فهذه أربع منازل خص بها.

من أسرار التربع فى أصول الفقه:

قيل فى أصول الفقه: إن الشرع اقتصر على غسل الأعضاء الأربعة تيسيرًا فيما يكثر وقوعه.. وفيما عداه أبقي على أصل القياس (كالمنى والحيض والنفاس والتطهر من النجاسة وغير ذلك).

كذا فى المغنى، قال صاحب المغنى، رحمه الله: وكل ما تتعلق به أحكام الشريعة فهى أربعة:

الأول: السبب.. والثانى: العلة.. والثالث: الشرط.. والرابع: العلامة.

أما السبب فأربعة:

الأول: وهو ما يكون طريقًا إلى الحكم من غير أن يضاف إليه وجوب أو وجود.

والثانى: إن أضيف إلى السبب صار فى معنى العلة، مثل قطع حبل القنديل وغير ذلك.

والثالث: السبب الذى له شبهة العلة كحفر البئر فى الطريق.

والرابع: يسمى سببًا مجازًا كاليمين بالله، والنذر المعلق، وتعليق الطلاق والعناق بالشرط.

وأما العلة: فهي ما يجب الحكم به معه.

وأما الشرط: فهو ما يمتنع به وجود العلة، فإذا وجد وجدت العلة.

وأما العلامة: فهي ما جعل علماً على الوجود من غير أن يتعلق به وجود أو وجوب مثل الإحصان في باب الزنا.

وروى عن رسول الله ﷺ: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً في أمر دينها، بعثه الله يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء»<sup>(١)</sup>، والحديث فيه إشارة إلى سر التبريع.

وقال رضى الله عنه: العوارض المكتسبة أنواع، ومنها الجهل، وهو على أربعة أقسام:

الأول: جهل باطل بلا شبهة وهو الكفر.. وهو لا يصلح عذراً في الآخرة.

الثاني: جهل هو دون الأول، لكنه باطل لا يصلح عذراً في الآخرة أيضاً، وهو جهل صاحب الهوى في صفات الله تعالى، وفي أحكام الآخرة.

والثالث: جهل يصلح بشبهة وهو الجهل في موضع الاجتهاد الصحيح.

والرابع: جهل يصلح عذراً، وهو جهل من أسلم في دار الحرب، فيكون عذراً.

أيهما أفضل: المشرق أم المغرب؟

قال صاحب كشف الأسرار: اختلف العلماء في المشرق والمغرب، أيهما أفضل؟ وفي السماء والأرض، أيهما أفضل؟ احتجوا في هذه

(١) رواه البيهقي في الأربعين الصغرى (٢/٢٢)، نشر دار الكتب العلمية، بتحقيق أبي إسحاق الحويني، ورواه الدارقطني في العلل عن معاذ (٦/٣٣) طبعة دار طيبة.

الأسماء الأربعة بأربعة أوجه.. كل واحد من هذه الأسماء الأربعة مطابق ومشابه إلى ركن من الأركان الأربعة، أعنى النفس والقلب والروح والجسد.

فقلت المشاركة: الشرق أفضل، واحتجوا بوجوه أربع:

الأول: أن الله تعالى لم يذكر الجهتين في موضع إلا قدم المشرق.

والثاني: الفضاء يكون مظلمًا، فلا يضيء إلا بطلوع الشمس من المشرق.

والثالث: أن الأئمة الأربعة في الفقه من المشرق.

والرابع: أن الأرض التي بورك فيها بنص القرآن هي أرض مصر والشام وأرض الجزيرة (وأرض مصر حد بين المشرق والمغرب).

واحتج المغاربة أيضًا بوجوه أربعة:

الأول: أن الله تعالى بدأ بذكر المغرب في قصة ذى القرنين.

والثاني: ذكر في الحديث: «لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين»<sup>(١)</sup>، وفي رواية: «أهل المغرب ظاهرين».

وأجيب: بأن الشام غربى المدينة.

الثالث: أن المغرب اختص بظهور الأهلة التي هي مواقيت الصلاة والحج، ويرمقها أبصار الناس دون المشرق.. وعورض ذلك بطلوع الشمس من المشرق، وبأن القمر يطلع أولاً من المشرق ممجداً ثم يظهر بالمغرب.. وبأن باب التوبة سعتة أربعون عاماً، ثم أنه يغلق بالمغرب.

(١) أخرجهما الإمام مسلم في صحيحه، حديث رقم (١٩٢٠)، كتاب الإمارة،

٥٣- باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم»، جـ ٣/ طبعة دار إحياء الكتب العربية.

الرابع: أن المهدي يظهر بالمغرب.. وأجيب: بأن ظهوره بمكة.. وقال المغاربة: لا تظهر الفتن عندنا.

### رباعيات من أقوال الرسول ﷺ:

- «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان.. وإذا حدث كذب.. وإذا عاهد غدر.. وإذا خاصم فجر»<sup>(١)</sup>.

- «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: «سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»<sup>(٢)</sup>.

أمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع.. أمركم بالإيمان بالله وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة ألا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتعطوا من الغنم الخمس.. وأنهاكم عن أربع: «لا تشربوا في الدباء والنقير والظروف المزفة والخثمة»<sup>(٣)</sup>.

- «تنكح المرأة لأربع: لماها ولحسنها ولجمالها ولدينها.. فاضفر بذات الدين تربت يداك»<sup>(٤)</sup>، يخرج من النار أربعة فيعرضون على الله، فيلتفت أحدهم فيقول: أى رب إذا أخرجتني منها فلا تعيدنى فيها فينجيه الله منها»<sup>(٥)</sup>.

(١) أخرجه البخارى، عن عبد الله بن عمرو، رضى الله عنهما.

(٢) رواه ابن عباس، رضى الله عنهما.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٢/٣): ٩٧ كتاب التوحيد، ٥٦ باب قوله تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعلمون﴾ [الصفافات: ٩٦].

(٤) رواه أنس بن مالك، رضى الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٢): ٨٤ باب أدنى أهل الجنة منزلة.

— وأما تفصيل المساجد الأربعة: قال رسول الله ﷺ: «أول بيت وضع للناس للعبة ثم المسجد الأقصى.. قيل: يا رسول الله كم كان بينهما قال: أربعون سنة»<sup>(١)</sup>، أقول: وأفضل الأربعة هذان المسجدان ومسجد المدينة ومسجد قباء.. وعن البغوي، رحمه الله أنها أفضل المساجد.

— قال الرافعي، رحمه الله، في أسانيد صحيحة عن صلاة التسايح: قوله ﷺ لعنه العباس: «يا عماه ألا أمنحك ألا أحبك ألا أعطى لك أربع نصال، إن فعلتها غفر الله لك ذنبك أوله وآخره، قديمه وحديثه، تصلى أربع ركعات... إلى آخر الحديث»<sup>(٢)</sup>.

في هذا الحديث سر التزييع بوجهين ظاهر غير خفى، كما لا يخفى على الفطن العارف.

### كيفية تحسين الخلق:

قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قيل: المراد من هذه الآية الكريمة تحسين الخلق.. وهذا يوجد في أربعة أمور: الأول: القبيح والجميل.. والثاني: القدرة عليهما.. والثالث: المعرفة بهما.. والرابع: تهئية تمايل النفس إلى أحد الجانبين والتهئية أن تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل.

فالخلق عبارة إذن عن تهئية النفس؛ لأن كل إنسان خلق بالفطرة قادراً على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء عند شخص خلقه السخاء ولا يبذل، إما فقد المال أو لمانع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٦٦): ٦٠ - كتاب أحاديث الأنبياء، باب (١٠).

(٢) حديث صلاة التسايح، أخرجه الترمذي (٤٨٢): كتاب الصلاة، ١٩ - باب ما جاء في صلاة التسايح من حديث أبي رافع مولى النبي ﷺ.

آخر.. وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث معين أو لريائه.. وقس على هذا أمثلة أكثر أخلاق الناس (حسنة وقيحة) من التواضع والعفة والغضب، والجود والكرم والعفو، وغير ذلك من الأخلاق.. وذلك التمييز لا يحصل إلا بحفظ مراتب أخرى، وهى أيضاً أربعة؛ لأن من غلبت عليه البطالة يستثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، ولم يفهم ولم يعلم بأن ذلك لقصوره، فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها، والناس فى ذلك على أربعة مراتب:

**الأول:** هو الإنسان الغافل، لا يميز بين الحق والباطل، أو بين الجميل والقيح، بلبقى كما جبل عليه وفطر، خالياً من جميع الاعتقادات.

**الثانى:** أن يكون قد عرف القبيح، لكنه لم يتعود العمل الصالح، بل تزين بسوء عمله، وينقاد بشهوات نفسه، ويعرض عن صواب آرائه، لاستيلاء الشهوات النفسانية عليه.

**الثالث:** أن يعتقد فى الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة، وأنها حق وجميل، وهذا تكساد تمتنع معالجته وأن يرجى صلاحه، كمذهب الملاحدة وعقائد الزنادقة.

**الرابع:** أن يكون مع وقوع نشوئه على آرائه الفاسدة، ويرى الفضيلة فى كثرة الشد، يظن أن ذلك يرفع من قدره.. وهذا هو أصعب المراتب، وفى مثله قيل: «من التعذيب تهذيب الذئب».

وهذه القضية أربعة أيضاً:

**الأولى:** جاهل فقط.. والثانية: جاهل، وضال فقط.. والثالثة: جاهل، وضال، وفاسق فقط.. والرابعة: جاهل، وضال، وفاسق، وشرير فقط.

وأسباب ذلك كلها غاب عن الإنسان لعدم تعرف أحوال نفسه وعيوبه.. ومن أراد من العلماء ومن الطالبين أن يقف على عيوب نفسه، فأمامه أربعة من السبل:

**الأول:** أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، مطلع على خفايا الآفات النفسانية.. وهذا شأن المريدين والتلاميذ في معاملاتهم مع الأستاذ.. وهذا العمل دائر لأرباب القوابل من المريدين؛ لأن بعضهم مع عدم قبول النصيحة، كان أشد عداوة للمشايخ والأساتذة، ومبغضاً لهم من القلب، وهذا سبب لقلّة العلم وأهله وأهل الصلاح.. وأنا الفقير المحرر ساهمت في عصرنا هذا في تربية أشخاص من أرباب الغفلة والسفه، عصمنا الله وإياكم عن اختلاط الأضداد، وهذان وإياكم إلى طريق الرشد والسداد.

**الثاني:** أن يطلب صدوقاً بصيراً متديناً، ليلاحظ أحواله وأفعاله، فما يكرهه من أفعاله ينبهه عليه.. هكذا كان يفعل الأكابر من أئمة الدين، وكان عمر، رضى الله عنه، يقول: «رحم الله امرأاً أهدى إلى عيوبى» وكان قد سأل سلمان، رضى الله عنه، عن عيوبه لما قدم عليه.

**الثالث:** أن يستفيد عيوب نفسه من لسان أعدائه كما قيل شعر: «فإن عين السخط تبدى المساويا» ولعل انتفاع الناس قد يكون من عدو مشاحن يذكر عيوبه، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو، ولكن البصيرة لا تحيد عن الانتفاع بقول الأعداء.

**الرابع:** أن يخالط الناس، وكل ما يراه مذموماً بين الناس من الخلق، يجب أن يطالب نفسه به، وينسب نفسه إليه، فإن المؤمن مرآة المؤمن، فيرى في عيوب غيره عيوب نفسه، فيعلم أن الطبايع متقاربة في اتباع الهوى.

وقيل لعيسى، عليه السلام: من أدبك؟ فقال: كلما رأيت جهل الجاهل تجنبته، فإذا رأيت أدب الأديب العالم المتورع كنت متنصحاً منه.

**مقتطفات تربيعية من الأقوال السنية:**

— قال في العوارف: للمحبة أربعة وجوه متنوعة:



الأول: محبة الروح.. والثاني: محبة القلب.. والثالث: محبة النفس..  
والرابع: محبة العقل.

- قال يحيى بن معاذ الرازي: الابتلاء لأربعة أشياء:

الأول: التقيد.. والثاني: التفكير.. والثالث: التعريف.. يعرفك العجز  
والضعف.. والرابع: التفضيل بالتوبة.

- جاء في صحيح مسلم: «ما من رجل يموت، فيقوم على جنازته  
أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفّعهم الله تعالى فيه».

- وفي البخاري: «أما مسلم شهد له أربعة بخير، أدخله الله الجنة،  
فقلنا: وثلاثة؟ قال: وثلاثة.. فقلنا: واثنان؟ قال: واثنان.. ثم لم نسأله  
عن الواحد».

وفي هذا الحديث إشارة إلى مراتب التثليث والتثنية والواحدية،  
مخصوصة بذات واجب الوجود جلّ ذاته.

- إياكم والزنا فإن فيه أربع خصال: يذهب البهاء عن الوجه..  
ويقطع الرزق.. ويسخط الرحمن.. ويسبب الخلود في النار.

- للمؤمن أربعة أعداء: مؤمن يحسده.. ومنافق يبغضه.. وشيطان  
يضلّه.. وكافر يقاتله.

- قال أهل الحكمة والمعرفة: الختم على أربع، على عدد أركان  
الكون: الأول: ختم النبوة المحمدية ﷺ.. والثاني: ختم الخلافة..  
والثالث: ختم الولاية الخاصة والعامة.. والرابع: ختم المهدي.

- قيل لابن سيرين: أي الأدب أفضل مع الله؟ فقال: أربعة:

الأول: المعرفة بربوبيته.. والثاني: العمل بطاعته.. والثالث: الشكر  
على السراء.. والرابع: الصبر على الضراء.

- جاء فى الخبر: إذا جاء أربعة أشياء ذهب أربعة أشياء: إذا جاء القضاء ذهب البصر.. وإذا جاء الغضب ذهب العقل.. وإذا جاء الكبر ذهب الدين.. وإذا جاء الفقر ذهب الحياء.

### تعليق على الجزء الثالث:

يعتبر هذا الجزء هو لب الموضوع الذى يدور حوله المخطوط؛ لأنه يتناول ذكر نشأة الإنسان وأطواره الأولى وعناصره الأربعة الأصلية ومراتبه الروحية.

ولذلك فإن ما قبل هذا الجزء وما بعده، يبحث فى أسرار التربع التى تخاطب تلك النشأة الأصلية، وتحاول أن ترتقى بالإنسانية إلى مدارجها السامية، التى تستحق بها الخلافة الإلهية.

ورغم تميز هذا الجزء بشيء من الصعوبة على بعض الأفهام، إلا أنه يزخر بمعانى عالية وكنوز غالية لأولى البصائر والإبصار.. وهو كغيره من الأجزاء السابقة واللاحقة، يهدف إلى إثارة الأشواق الروحانية بتلك الإشارات النورانية، لتكون تلك الإشارة حافزاً لمزيد من البحث عن المعرفة التى يسعى العارفون دوماً إليها دون أن تنطفئ جذوة الشوق نحوها، مهما مرت السنون والأعوام؛ لأنهم مهما استزادوا من بحار المعرفة، يسمعون قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ أَلِيمٍ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فتتجدد أشواقهم وعزائمهم إلى محاولة اغتراف المزيد من بحار تلك المعارف السرمدية.

ومهما كتب العلماء الواصلون عن معارفهم اللدنية، فسوف تظل تلك العلوم ولا شك فوقية، لا يعرف معناها إلا من تذوق مغزاها كما قيل فى أساسيات العلوم الصوفية «ومن ذاق عرف».

ونحن لا نريد الاسترسال فى الكلام، ونترك لذوى المذاقات والأفهام

أن يغترفوا ما شاء لهم رب الأنعام.. وندعو المولى عزَّ وجلَّ أن يزيدنا  
 علمًا وفهمًا، وأن يوفقنا إلى فهم مراده من خلقه، ويجعلنا من المتنافسين  
 في حبه كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:  
 ٢٦].

\* \* \*

## الجزء الرابع أسرار التربيع فى العبادات والآداب والعادات وهذا العالم الظاهر الدنيوى

### كيفية تطهير القلب:

اعلم أنه لابد على كل عاقل أن يبدأ أولاً بتطهير القلب من الآثام الظاهرة والباطنة. أما ما هو الميزان الذى يزن به طهارة قلبه، فالإجابة كما يلي:

قال الفاضل القاشانى: الميزان أربعة:

الأول ميزان أهل الظاهر: هو الشرع.. والثانى ميزان أهل الباطن.. هو العقل المنور بنور القدس.. والثالث ميزان أهل الخصوص.. هو علم الطريقة.. والرابع ميزان خاصة الخاصة: هو العدل الإلهى الذى لا يتحقق به إلا الإنسان الكامل.

واعلم أن الطهارة لها أربع مراتب:

الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث والأنجاس والفضلات.

الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

الرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى، وهى طهارة الأنبياء والصديقين، عليهم السلام.

كما قيل: الطهارة نصف العمل فى كل رتبة.. وهذه الأربعة راجعة

إلى الأركان الأصلية الأربعة، ليست بخارجة عنها، والتوفيق ظاهر بين الطهارة المذكورة وبين الأركان المعهودة كما تراه.

وقيل: تشويش فراغ القلب والدين لا يتم جهاده إلا بفراغ القلب عن غير الله عز وجل، فإن لم يتم فراغه، فبقدر فراغه يتصور أن يشتغل بأمر الدين.. ولا يتصور فراغ القلب في الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية، ولكن يتصور تخفيفها وتقليلها، وقد نجح المخفون وهلك المثقلون وذلك لا يحصل إلا بالحمول وقطع العلائق، والغربة التي لا بد عنها لمن كثرت علاقته واتسع جاهه، ولا يتم مقصوده إلا بما ذكرنا من الانقطاع، حتى تبتعد نفسه مدة عن العلائق، ثم ربما يمدد الله تعالى بمعونة، فينعم عليه بما يقوى نفسه، ويطمئن به قلبه، فيستوى عنده الحضر والسفر.

### درجات الحلال والحرام:

قال صاحب الإحياء: درجات الحلال والحرام مراتبها كثيرة. ولكن الاحتراز والورع عن الحرام على أربع مراتب:

**الأول:** ورع العدل.. وهو الذى يجب الفسق باقتحامه، وتسقط العدالة به، ويثبت اسم العصيان به، والتعرض للنار بسببه.. وهو الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء.

**الثانى:** ورع الصالحين.. وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم، ولكن المفتى يرخص فى تناوله بناء على الظاهر.

**الثالث:** ما لا تحرمه الفتوى، ولا شبهة فى حله، ولكن يخاف أن يؤدى إلى محرم.. وهذا ورع المتقين.

**الرابع:** ما لا بأس به، ولكن ترك وخاف منه أن يؤدى إلى ما به بأس.

وهذه المراتب مر ذكرها فى أول الكتاب.

### فى بيان الحل والحرمه:

وقال الغزالى (رحمه الله) فى بيان الحل والحرمه: قال رسول الله ﷺ: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور متشابهات، لا يعلمها ولا يفهمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه»<sup>(١)</sup>.

وعدم احتراز الناس فى زماننا هذا، لعدم الاحتراز من الشبه والمشكوك.. وهذا مما لا بد منه لكل مؤمن، وهو أن يحتز من الشبهة الواقعة فى الحل والحرمه، وذلك أيضاً من جملة مزالق الأقدام بين أهل السلوك.. فلنقسم هذا إلى أربعة أقسام:

**الأول:** أن لا يكون الحل معلوماً من قبل، ثم يقع الشك فى المحلل، فهذه شبهة يجب احترازها واجتنابها، ويحرم الإقدام عليها.. مثاله: أن يرى الصيد فيخرجه ويقع فى الماء، فيصادفه ميتاً، ولا يدرى أنه مات بالغرق أو بالجرح فهذا حرام، وغير ذلك من المحرمات والشبهات.

**الثانى:** أن يعرف الحل، يشك فى المحرم.. والأصل الحل.

**الثالث:** أن يكون الأصل التحريم، ولكن طوى ما أوجب تحليله بظن غالب، فهو مشكوك فيه، والغالب حله.. فهذا ينظر فيه، فإن غلبت الشبهة الظن بسبب معتبر شرعاً فالذى يختار فيه أنه حل، فالاجتناب بسبب الورع فى مثل هذا أفضل.

**الرابع:** أن يكون الحل معلوماً، ولكن يغلب على الظن مجرى أنه محرم بسبب معتبر فى علة الظن شرعاً، فيرفع الاستصحاب فيقضى بالتحريم

(١) رواه النعمان بن بشير، فى صحيح البخارى.

إذا بان لنا أن الاستصحاب ضعيف، ولا يبقى له حكم مع غالب الظن.. مثال أن يؤدي اجتهاده إلى نجاسة أحد الإنائين بالاعتماد على علامة معينة توجب غلبة الظن فيه، فيوجب تحريم شربه، كما وجب منه الوضوء به، وأمثلة هذا مذكور في الأصل، فاطلبه هنالك تكن مستفيداً.

### الحل والحرمة في أموال السلاطين:

قال صاحب الإحياء (رحمة الله عليه) في باب الحل والحرمة:

المال في أيدي الناس من السلاطين ومن وكلائهم على أربع درجات: الأولى: أن لا يأخذ الإنسان من مالهم شيئاً أصلاً، كما فعله المورعون، على ما سيأتي في الخاتمة بيانه.. وكان الخلفاء رحمهم الله، لا يأخذون لأنفسهم من بيت المال إلا بحق أوجب ذلك.. حكى أن عمر، رضى الله عنه، كان يقسم بيت المال، فدخلت ابنة له وأخذت درهماً من المال، فنهض عمر، رضى الله عنه، في طلبها، حتى سقطت الملحفة عن أحد منكبيه، ودخلت الصبية إلى بيت أمها تبكى، وجعلت الدرهم في فيها، فأدخل عمر، رضى الله عنه إصبعه في فمها وأخرجه من فيها، وقال رحمه الله: جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «دع ما يريك إلى ما لا يريك»<sup>(١)</sup>.

والثانية: أن يأخذ السالك من مال السلطان، إنما يأخذه إذا علم أن يأخذه في جهة حلال.. وعلى هذا ما نقل من الآثار.

والثالثة: أن السلطان يأخذ بنفسه، ويتصدق على الفقراء من المستحقين.. وأما في زماننا هذا، فإن أكثر أموال السلاطين ووكلائهم من الحرام، أخذوها ظلماً وجوراً، لا يجوز التصديق منها على الفقراء وغيرهم، ولا يجوز أخذها للفقراء كما قال صاحب الشريعة.

(١) رواه الحسن بن علي، رضى الله عنهما، في سنن الترمذى.

والرابعة: أنه لا يتحقق أنه حلال، وإن كان لذلك لا يفرق ولا يأخذ ولا يأكل منه.

وكما قال الإمام فى الإحياء: «إن أموال السلاطين فى زماننا هذا حرام كلها أو أكثرها»، وكيف لا والحلال (الصدقات والفى والغنيمه) لا وجود لها فى هذا الوقت، ولا يدخل شىء فى أيدى السلاطين فى عصرنا إلا الجزية، فإنها تؤخذ بأنواع من الظلم.

### معنى الأخوة فى الله:

قال الإمام الغزالى (رضى الله عنه) فى بيان معنى الأخوة فى الله: أنها تنقسم فى أربعة أقسام:

الأول: حبك الإنسان لذاته، فذلك ممكن وهو: أن يكون هو فى ذاته محبوباً عندك لإدراكك جماله على معنى: أنك تلتذ وتسعد برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له، فإن كل لذىذ محبوب، واللذة تتبع الاستحسان، والاستحسان يتبع الملائمة والموافقة بين الطباع.. قال الفضيل، رحمه الله: نظر الرجل إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة.

الثانى: أن يحبه لينال من ذاته غير ذاته، فيكون وسيلة إلى محبوب غيره، والوسيلة إلى المحبوب محبوب، كما أن الذهب والفضة (لا تطعم ولا تلبس) ولكنها وسيلة إلى المحبوبات.. وكذلك حب التلميذ أستاذه، ليكون وسيلة إلى العلم والمعرفة.. وغير ذلك من الأمثلة المقررة المحررة فى الأصل، يعنى فى كتاب الإحياء، فاطلبه هنالك.

الثالث: أن يحبه «لا لذاته» بل لغيره.. وذلك الغير ليس راجعاً إلى حظوظه فى الدنيا، بل يرجع إلى حظوظه فى الآخرة.. وكذلك شيخه وأستاذه؛ لأنه يتوسل به إلى تحصيل العلم، وتحسين العمل بالعلم، ومقصوده بالعمل والفوز فى الآخرة، فهذا من جملة المحبين فى الله.



الرابع: أن يحب الله وفي الله، لا ينال به علماً أو عملاً، أو يتوسل إلى أمر وراء ذاته، وهو أعلى الدرجات وأدقها وأعظمها، وهذا القسم أيضاً ممكن.. وإن من آثار غلبة الحب، أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه، كما أن من أحب إنساناً حباً شديداً، أحب محب ذلك الإنسان، وأحب محبوبه، وأحب من يخدمه.. وغير ذلك من الأمثلة في الأصل المشروح، وقد اكتفينا بهذا القدر في هذا المسطور، ولو رسمنا كل ما في الأصل من الأمثلة، لطال الكتاب.

### من آداب أهل الطريقة:

من جملة آداب أهل الطريقة وعاداتهم: حسن السماع، وهو على أربع درجات:

**الدرجة الأولى:** النظر والتلذذ في المبصرات الجميلة، كالوجه الحسن والماء الجاري، والحضرات، وسائر أنواع الألوان الجميلة.. وبالنظر في كل ذلك تلذذ النفس، وبذلك تتحرك نفس الإنسان بالسماع وبالشم وبالرائحة الطيبة، داخل في ذلك تلذذ النفس بالصفات الحسنة بسبب تحرك آلات السماع وسائر أسبابها، وهو المقصود بهذه الدرجة الأولى؛ لأن مراتب السماع منحصرة إلى أربع درجات: **الأولى:** النظر في الصورة الحسنة الموزونة وهي الشعر؛ لأنه يخرج من حنجرة الإنسان، بخلاف الدرجة الثانية وهي: النظر فيه من حيث أنه محرك القلب، ومهييج لما هو الغالب عليه.. **والثالثة:** مطابق لحواس النفس.. **والرابعة:** نظير لحسن الباطن في الروح، ونفحات الباطن المنسوبة بالروح الحيواني، كما ستقف إن شاء الله تعالى على مراتب أنواع من الروحانية وأذواقها مستوفاة في مواضع كثيرة.

وهذه المراتب في السماع موجودة في مراتب الإنسان، وفي أكثر أصوله وحواسه. ونقول عن الدرجة الأولى في السماع: وهي النظر فيه

فى الصوت الحسن الطيب، عن النبى المكرم ﷺ أنه قال: «لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن»<sup>(١)</sup>.. وجاء فى الخير: أن داود، عليه السلام، كان حسن الصوت فى تلاوة الزبور، حتى يجتمع الإنس والجن والوحش والطير لسماع صوته.

والصوت الحسن ممدوح، والصوت القبيح مذموم، كما جاء فى القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

وقيل: «إن من الشعر لحكمة».. ولو قيل هذا الجواز فى القرآن فقط، للزمه أن يحرم صوت العندليب وغيره، فافهم هذا فإنه لازم الفهم لأرباب السلوك من أهل السماع والوجد.. ومن أراد الاطلاع على جواز السماع وعدمه، فعليه أن يطالع كتاب العوارف للشيخ السهروردي.

**الدرجة الثانية:** النظر فى الصوت الطيب الموزون، فإن الوزن وراء الحسن فكم من صوت حسن خارج عن الوزن، وكم من صوت موزون غير مستطاب.

والأصوات الموزونة باعتبار مخارجها على أنواع: إما أن يخرج من المزامير والأوتار والطبل وغير ذلك، وإما أن يخرج من حنجرة الحيوانات.. وذلك الحيوان إما إنسان وغيره.. وتحريم أوتار المزامير من قبيل الاتباع كشرب الخمر، كما حرمت الخلوة بالأجنبية؛ لأن الخلوة مقدمة الجماع وسببها.. والخمر وإن كان لا يسكر إلا أنه يدعو إلى السكر، وكذلك السماع، إن كان سبباً لتذكر الشوق إلى المحرمات، والتشبه بمجالس أهل الفسق، فذلك يدعو إلى التحريم، وإلا لا؛ لأن «من

(١) عن فضالة بن عبيد، فى سنن ابن ماجه.

تشبه بقوم فهو منهم<sup>(١)</sup>.. والاحتراز عن السماع فى زماننا أولى، والمنع من التشبه بأهل الأهواء والبدع أفضل.

**الدرجة الثالثة:** الموزون المفهوم وهو الشعر، وذلك لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان؛ لأنه كلام مفهوم موزون، والكلام الموزون والمفهوم غير حرام، كما حكى عن سماك بن جابر، رضى الله عنه، قال: «كنا نجلس إلى رسول الله ﷺ فكانوا يتناشدون الأشعار، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية، ورسول الله ﷺ ساكت، فرمما تبسم<sup>(٢)</sup>، وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة الواردة فى حق الصوت الحسن، على ما عرّفه الغزالي وغيره فى كتبهم.

**الدرجة الرابعة:** النظر فيه من حيث أنه يحرك القلب، ومهيج مما هو الغالب عليه، فالنغمات الموزونة لها مناسبة للأرواح، وتؤثر فى القلب والأرواح تأثيراً عجيّباً.. ومن الأصوات ما يفرح، ومنها ما يحزن، ومنها ما ينعدم، حتى قيل: «من لم يحركه الربيع وأزهاره، والعود وأوتاره، فهو فاسد المزاج يحتاج إلى العلاج.. وقيل: ليس له علاج»، كذا ذكر فى الأحياء وغيره من المعبرات، وتأثير ذلك يشاهد فى الصبى وهو فى مهده، فإنه يسكنه الصوت الحسن الطيب عن بكائه.. وقيل: الحمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء، تأثير يستخف معه الأحمال الثقيلة، لقوة نشاطه فى سماعه.

ومن طلب الخوض والاستقصاء فى بحث السماع، فالتفتيش فى الرد والقبول بين العلماء مشهور ومسطور فى كتب الصوفية.. ولو ذكر فى هذا المسطور شروط السماع بلوازمه، لطال الكتاب.

### أحوال المستمع:

يشترط أن يكون للمستمع أربعة أحوال؛ لأن فهم السماع يختلف

(١) عن عبد الله، رضى الله عنهما، ستن ابن داود.

(٢) رواه سماك بن جابر، فى مسند أحمد.

باختلاف أحوال المستمع:

أحدها: أن يكون سماعه بمجرد الطبع، أى لاحظ له فى السماع إلا استلذاذ الألحان والنغمات.. وهذا مباح، وهو أحب رتب السماع، إذ الإبل شريكة له فيه، وسائر الحيوانات؛ لأن لكل حيوان نوع يتلذذ به من الأصوات الطيبة.

الحالة الثانية: أن يسمع بفهم، ولكن لا ينزله على صورة مخلوق.. وهو سماع أرباب الشهوات النفسانية، وهو مذموم عند جميع الناس.

الحالة الثالثة: أن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه فى معاملته.. وهذا سماع المريدين؛ لأن مراد المريد ومقصده: معرفة الله تعالى ولقائه، والوصول إليه تعالى بطريق المشاهدة والكشف.. فإذا سمع، أراد به الخطاب أو الوصول أو الخوف أو البعد أو التلهف على فائت، أو انتظار أو شوق إلى وارد، أو وفاء بالعهد أو نقض للعهد، أو خوف فراق، أو فرح وصال، أو ذكر ملاحظة الحبيب، أو غير ذلك مما يشوقه إلى انبعاث الشوق وهيجانه، ويهجم بسببه عليه أحوال مخالفة لعادته، ويكون له مجال وحب فى تنزيل الألفاظ على أحواله.. ويظهر أحوال شتى للمستمع عند الاستماع، ونحن نستغنى عنها فى هذا الموجز المفيد خوفاً من التطويل.

الحالة الرابعة: سماع جاوز الأحوال والمقدمات، فغرب عن فهمه ما سوى الله تعالى، حتى غرب عن نفسه: نفسه وأحوالها ومعاملاتها، وكان كالمدهوش الفائض فى عين المشهود، وتلك الحالة تضاهى حال النسوة التى قطعن أيديهن فى مشاهدة جمال يوسف، عليه السلام.. وهذا السماع مقام القلب وسماع القلب، وكذلك سماع سائر الأركان من القلب والجسد والروح والنفس، وذلك على أربعة أوجه:

الأول: سماع الجسد.. والثانى: سماع النفس.. والثالث: سماع

الروح.. والرابع: سماع القلب.. وسائر الشروط المذكور في الأصل.

### الواردات الإلهية:

جاء في شرح النصوص: الواردات الإلهية على أربعة أقسام: الأولى: الرحمانية.. والثانية: الملكية.. والثالثة: النفسانية.. والرابعة: الشيطانية.

وهي أن كل ما يكون سبباً للخير بحيث يكون أبدياً، ولا يكون سريع الانتقال إلى غيره، ويحصل بعده توجه تام إلى الحق، ولذة عظيمة في العبادة، فهو ملكي أو رحماني، وبالعكس الشيطاني.. وما يظهر من اليمين أو الأمام أكثر ملكي، ومن جانب اليسار والخلف أكثره شيطاني.. وما كان من الاطلاع بالخواطر والضمائر فهو ملكي؛ لأن الجن لا يقدر على ذلك.

وغير ذلك كثير من التصرفات ومن العوارض، فقس الباقي على هذه الأربع، وافهم سر المراتب الأربع كيف يسرى في أكثر الظواهر والخواطر والضمائر، تكن عارفاً بسر التزييع.

### آداب الإنسان الكامل:

قيل: من جملة آداب الإنسان الكامل علمه أولاً بكسر الشهوات، وعلمه طريق الرياضة، وهذا واجب على المريدين والطلابين للعلم والحكم.. وهذا الطريق يتم بأربع خصال من المراتب:

— الخصلة الأولى: أن لا يأكل إلا حلالاً، فالعبادة مع أكل الحرام كالبنیان على أمواج البحر، وهذا ضعيف غير محكم في المريد إلا مع الترقى في أربع درجات:

الأولى: أن يرد نفسه إلى قدر القوام الذي لا يبقى دونه، وهو عادة الصديقين من المشايخ رحمهم الله.

الثانية: أن يرد نفسه في اليوم والليلة إلى نصف مد، وهو رغب



وشئ من المأكولات، وكان ذلك عادة عمر، رضى الله عنه، إذا أكل، تناول سبع أو تسع لقمات.

الثالثة: أن يرد إلى مقدار المد وهو رغيفان ونصف.

الرابعة: أن يزيد على المد إلى المن، وما وراء ذلك يشبه إسرافاً، ودخل فى نهى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

- **الخصلة الثانية:** فى وقت الأكل ومقدار تأخيره.. قيل: أكل المؤمن عند الضرورة. وبعض المريدين ردّ الرياضة أولاً إلى الطى، لا إلى المقدار، حتى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يوماً<sup>(١)</sup>، وأربعين يوماً.

- **الخصلة الثالثة:** فى نوع الطعام.. قيل: أعلى الطعام البر وأوسطه الشعير المنخول، وأدناه شعير لم ينخل.. وأعلى الإدام اللحم والحلاوة، وأدناه الملح والخل.. وعادة سالك طريق الآخرة: الامتناع عن الإدام على الدوام، بل الامتناع عن الشهوات حتى يكثر خيره ويحصل مرامه.

- **الخصلة الرابعة:** لابد وأن يحتز الطالب فى جميع ذلك عن الرياء، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾  الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ  الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ﴾ [الماعون: ٤ - ٦].

قال مجاهد (وهو من كبار المفسرين) فى المتقدمين: هم أهل الرياء.. وفى المنع عن الرياء آيات غير هذه، وأحاديث وأخبار كثيرة.. وقيل: المرائى ينادى يوم القيامة.

### مراتب الرياء:

الرياء داء قاتل، يهدم بنيان الإيمان.. وقيل: المرائى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء، مرائياً بالأركان، والطبايع، والعناصر، والحواس، فذلك إشارة إلى أربع مراتب:

(١) المقصود: أنه لا يوقد النار لإنضاج الطعام إلا كل شهر أو أربعين يوماً.

الاسم الأول: يقال له يا مرائى.. والثانى: يا غادر.. والثالث: يا فاجر.. والرابع: يا خاسر.. اذهب فخذ أجرك ممن عملت له، فلا أجر لك عندى.

وقيل: لا ينبغي لذى لب أن يشاور أحد من الأربعة: الجاهل.. والعدو.. والمرائى.. وأهل الجبن (يعنى الجبان الخائف).

وقال الفضيل: كان الناس فى الصدر الأول يراؤون بما يعملون، والآن يراؤون بما لا يعملون ويكذبون.

**أما المحمود من الرياء فأربعة:**

الأولى: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله؛ لأنه لما اطلع عليه الخلق، علم أن الله تعالى أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله، فيستدل على حسن صنع الله به، ونظره له، ولطفه به: أن الله يستر عنه المعصية ويظهر الطاعة، ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل، فيفرح العبد بحميد نظر الله إليه، لا بحمد الناس وقيام المنزلة فى قلوبهم، فيستر المعصية كما سترها الله، ويظهر الطاعة.

الثانية: أن يستدل بإظهار الله الجميل، وستره القبيح عليه فى الدنيا، أنه كذلك فى الآخرة.. كما جاء فى الحديث: «من أذنب ذنباً فى الدنيا، فستر الله عليه وعفا عنه فالله أكرم من أن يعود فى شيء قد عفا عنه»<sup>(١)</sup>.

الثالثة: أن يظن رغبة المطلقين على الاقتداء به فى الطاعات، فيتضاعف بذلك أجره، فيكون له أجر العلانية بما ظهر، وأجر السر بما قصده أولاً.. ومن اقتدى به فى الطاعة فله أجر أعمال المقتدين، من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

(١) عن على، رضى الله عنه، فى مسند أحمد.

الرابعة: أن يحمد المطلقين على طاعته، فخرج بطاعتهم لله في مدارجهم من محبتهم وتميل قلوبهم إلى الطاعة.. إذ من أهل الإيمان من يرى أهل نعمة فيحسده أو ينسبه إلى الرياء.

وهذه الأربعة من الرياء ممدوحة، ولكن الخامسة مذمومة جداً.. وأحوال الرياء ومراتبه معلومة عند العلماء، ولكن لا بد لكل مسلم أن يتخلف عن الرياء.

### والتخلف في دفع خواطر الرياء على أربع درجات:

الأولى: أن يرد على الشيطان مكيدته، ويشغل بمجادلته.

الثانية: أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان في السلوك، فيقتصر على تكذيبه ودفعه، ولا يشتغل بمجادلته.

الثالثة: أن لا يشتغل بتكذيبه أيضاً، بل يعقد في ضميره كراهية الرياء، وكذب الشيطان.

الرابعة: أن يكون قد علم أن الشيطان يسجد عند جريان أسباب الرياء، فيكون قد عزم على أنه كلما نزع الشيطان، زاد هو فيه من الإخلاص، والاشتغال بالذكر، وإخفاء الصدقات، غمطاً للشيطان حتى لا يرجع.

وللرياء علامات وأحوال كثيرة يطول إحصاؤها في هذا المسطور.. ومن أراد الوقوف عليها، فعليه بمطالعة إحياء العلوم للغزالي، رحمة الله عليه.

### مراتب الغرور:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْفَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال رسول الله ﷺ: «حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يغلون الحمقى واجتهادهم. ولثقال ذرة من صاحب



تقوى ويقين، أفضل من ملء الأرض من المغترين»<sup>(١)</sup>.

وغير ذلك كثير مما جاء من الآيات والأحاديث في ذم الغرور، ولكن يجمعهم أربعة أصناف:

الأول: صدر من عالم الأجساد، وهم أرباب الأموال.

والثاني: صدر من النفس وهم العبّاد.

والثالث: صدر من عالم المثال، يعنى من عالم الأرواح، وهم العلماء.

والرابع: صدر من عالم القلب، وهم المتصوفة.

- فالعلماء المغرورون يحصلون لأجل الدنيا، وأهمّلوا علم الأخلاق المحمودة، ولم يتصفوا بها، فهم مغرورون، إذ قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، ولم يقل: «من تعلم كيفية تزكيتها» فإن العلم بالدواء لا يزيل المرض.

- وأما أرباب العبادة، فالمغرورون منهم فرق كثيرة:

منهم من غروره فى الصلاة.. ومنهم من غروره فى القرآن.. ومنهم فى الذهب.. وكذلك كل مشغول بمسلك من مسالك الأعمال.

- وليس خاليًا عن الغرور إلا الأكياس، وهم الذين جمعوا العلم والعمل، وعملوا بالعلم وتركوا اعتبارات الناس، ولم يرغبوا فى الرياسة والجاه. إنهم متصوفة أهل زماننا (عصمهم الله) تميزوا بالزى والمنطق والهيئة.. فقاعدوا الصادقين من الصوفية فى زيهم وهياتهم وألفاظهم وآدابهم ومراسمهم فى السماع والطهارة والصلاة، وكل ذلك أوائل منازل التصوف، ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم من الصوفية ولا يحوموا حولها.

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٢١١/١)، من قول أبى الدرداء.

— أما أرباب الأموال والمغتزون منهم: فمنهم من يحرص على بناء المساجد والمدارس والرباط والقناطير، وما يظهر للناس كافة، لخلود ذكرهم وبقاء أثرهم بعد موتهم، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك.. وقد اغتروا فى ذلك بوجهين:

أحدهما: أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشاوى، والجهات المحظورات، فهم قد تعرضوا لسخط الله فى كسبها.. فإذا كانوا عصوا الله فى كسبها، فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله تعالى، ورد الأموال إلى مالكيها وأصحابها.

الثانى: أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير فى الإنفاق على الأبنية، ويبنون المساجد للرياء، ليظهر ذلك بين الناس، ويصرفون المال لزخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش التى هى منهى عنها؛ لأنها تشغل قلوب المصلين، والمقصود فى الصلاة الخشوع والخضوع وحضور القلب.

وبعض أرباب الأموال فى زماننا يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لا يحتاج فيها إلى نفقة، كصيام النهار، وقيام الليل، وقراءة القرآن، وهم مغرورون فى ذلك.

### أحوال التوبة وأسبابها:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [التحريم: ٨].. ومعنى النصوح: أى الخالصة لله تعالى، الخالية عن الشوائب، مأخوذة من النصح، وتدل على فضيلة التوبة.

وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُصْطَفِينَ﴾

[البقرة: ٢٢٢]، وتتضح أحوال التوبة وأسبابها بذكر أربعة أركان:

### الركن الأول: في نفس التوبة، وحقيقة التوبة وحدها:

قيل في حد التوبة: خلع لباس الجفاء، ونشر لباس الوفاء.. وقال الشيخ التستري، رحمه الله: التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلا بالصمت والخلوة وأكل الحلال، وصحبة الأصدقاء من العلماء.

والتوبة واجبة على كل بالغ عاقل مؤمن، يؤمن بأمر الآخرة.. وقيل: «من لم يؤمن بأمر الآخرة ولم يخف الله، فليفعل ما يشاء من المنكرات».. كما روى عن الرسول ﷺ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»<sup>(١)</sup>. وروى كذلك في الأثر أن: «التائب حبيب الله»، و«التائب حبيب الرحمن».

**ومراتب التوبة وسر تربيعها ليس بخارج عن مراتب الإنسان وأصوله الأصلية على ما تراه، وذلك لأن بعض التوبة قد يكون بالجمسد، كالتوبة من الزنا وشرب الخمر، وغير ذلك من لوازم الجسم الكثيف؛ لأن التلذذ بفعل الزنا وشرب الخمر حاصل بالجمسد، والجسم والنفس تلتذ بهما، والروح والقلب يتضرر ويتألم منهما.**

وبعض الأحوال والأفعال المذمومة تتعلق بالقلب، مثل الحسد والعداوة وغيرهما، ولا يمكن التوبة منها إلا بالندامة والفراغ بالقلب.. وقد تكون بالنفس كالنظر إلى الأجنبية، والطمع إلى ما في أيدي الناس.. وبعضها مخصوصة بالروح الحيواني، مثل: الحبة والميل إلى المحرمات من الغلمان والجواري، وإلى كل ما لا يحوز النظر إليه ومحبه عند الشرع الأحمدي، عليه أفضل الصلوات وأكمل التسليمات وعلى آله وبارك وسلم.

وقيل: شرائط التوبة أربعة.. الأول: الفراغ عن المعصية.. والثاني:

(١) عن عقبة بن عمرو أبي مسعود، صحيح البخارى.

الندامة على فعلها.. والثالث: عدم العود إليها.. والرابع: إن كانت المعصية تتعلق بآدمي استيراً من صاحبها بطلب عفو واستحلال (إن أمكن) وإلا يتضرع إلى الله تعالى.

كذلك تعتبر أنواع التوبة، اعتباراً بجوارح الإنسان، على أربعة مراتب:

الأولى: الندامة بالقلب.. الثانية: التوجه بالروح بالتعرض إلى النفحات الرحمانية.. الثالثة: التوبة بالنفس الرحيمية.. الرابعة: التوبة بالجسد الكثيف مع حواسه الظاهرة والباطنة.

كما قيل في التوبة: الندامة بالحنان.. والاستغفار باللسان.. وجريان العيون بالدموع.. والعمل بالجوارح (وهذه أيضاً على أربعة أقسام).

قيل: سئل ذو النون المصري، فقال: لكل جارحة توبة:

فتوبة القلب: النية على ترك ما كان من المخطورات والسيئات.. وتوبة العين: الغمض عن المحرمات.. وتوبة اللسان: ترك الغيبة والنميمة.. وتوبة السمع: ترك الإصغاء.. وتوبة الرجل: ترك السعى إلى المعصية، والإصل في الكل هو القلب.. لذا قال علماؤنا، رحمهم الله تعالى: التوبة واجبة في أول الأمر، قبل أن يتراكم الدين في القلب، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

الركن الثاني: فيما يجب عند التوبة وهي ترك الذنوب صفاتها وكمياتها:

اعلم أن التوبة هي ترك الذنوب، ولا يمكن ترك شيء إلا بعد معرفته.. وإذا كانت التوبة واجبة، كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً.. والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى من ترك أو فعل.

وأقسام الذنب أيضاً على أربعة صفات: صفات ربوية.. وصفات

شيطانية.. وصفات بهيمية.. وصفات سبعة.

وذلك أن طينة الإنسان عجنّت من أخلاط مختلفة:

**الأول:** ما يقتضيه النزوع إلى صفات الربوبية، مثل الكبر والفخر وحب المدح والعز والجاه، وحب دوام البقاء فى الدنيا.. ومن هذا تشعب كبار الذنوب التى غفل عنها الخلق، فلم يعدوها ذنبًا، وهى المهلكات.

**الثانى:** وهى الصفة الشيطانية، التى يتشعب منها الحسد والبغى والحيلة والفساد، وغير ذلك من المنكرات.

**الثالث:** الصفة البهيمية، ومنها يتشعب الشره، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتشعب الرياء واللواط والسرقة، وجميع الحطام لأجل الشهوات.

**الرابع:** الصفة السبعية، ومنها يتشعب الغضب والحقد، والتهجم بالضرب على الناس، والشتم والقتل.. فهذه الأوصاف أمهات الذنوب، ثم تتفجر الذنوب منها على الجوارح.. فبعضها فى القلب.. وبعضها فى الجسد.. وبعضها فى النفس.. وبعضها تلذ بها الروح.. على ما مرّ فى تقسيم المراتب، وقد مرّ التوفيق والتطبيق فيها مرارًا من قبل، وعليك بحفظ الأصول فى المراتب، تسبح فى بحر الفوائد.

وفى هذا الركن الثانى طرق أربع لحفظ الأموال، وللتحرز من تناول مال الغير:

**أحدها:** الخفية وهى السرقة.. فإنه إذا لم يطلع عليها غالبًا، فكيف يتداركها؟.

**والثانى:** أكل مال اليتيم.. وهذا أيضًا فى الخفية، وأعنى به فى حق المتولى والوحي، وليس له خصم سوى اليتيم، وهو صغير لا يعرفه.

والثالث: تقويته بشهادة الزور.

والرابع: أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس، لا يمكن فيها التدارك.  
قال صاحب الكتاب فى هذا الركن الثانى: الناس فى الآخرة ينقسمون بالضرورة إلى أربعة أقسام: هالكين.. ومعذبين.. وناجين.. وفائزين.

أما الأولى (وهى الهالكين): فهم الآيسون من رحمة الله تعالى.. وهذه الدرجة لا تكون إلا للمجاهدين والمعرضين، المتجردين للدنيا، المكذبين بالله (تعالى عن ذلك علواً كبيراً) والمكذبين برسله وكتبه.

الرتبة الثانية: (وهى المعذبين): فهى رتبة من تحلى بأصل الإيمان، ولكن قصر فى الوفاء بمقتضاه، فإن رأس الإيمان هو التوحيد، وهو أن لا يعبد إلا الله.. ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه، وهو توحيد باللسان لا بالحقيقة.. وهو فى العذاب الدنيوى والأخروى، فكل من ابتلى ببلاء فهو معذب بمعذاب تجلى عقدة الإصرار.

الركن الثالث: شفاء التوبة:

اعلم أن شفاء التوبة لا يمكن إلا بالدواء، ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء.. فكل داء حصل من سبب، فدواؤه حل ذلك السبب ورفع وإبطاله.

ولا يطل شئ إلى بضده، ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة، والغفلة رأس الخطايا.. فلا دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم، ومرارة الصبر.. وهذا المعجون له أربع شرائط فى المراتب المعهودة:

الأول: أن المريض لا بد أولاً أن يصدق الطبيب، ويسلم نفسه إليه، وهذا هو الإيمان بأصل الطب، كذلك لا بد لكل طالب تائب أن يتوب،

ويوفى بأصل الشرع، وهو أن للسعادة سبب وهو العبادة، وللشقاوة سبب وهو المعصية، وحصوله إما فى تحقيق أو تقليد، وكليهما من جملة الإيمان.

**الثانى:** وهو أنه لابد أن يعتقد المريض فى طبيب معين، أنه عالم بالطب صادق فيه لا يكذب، فإن إيمانه بأصل الطب لا يفى دون هذا الإيمان، كالعالم بصدق الرسول ﷺ، والإيمان بأن كل ما يقوله حق لا كذب فيه.

**الثالث:** أنه لابد أن يصفى إلى الطبيب فيما يحذره منه، من سائر الأسباب المضرة.. ويوازنه مما نحن فيه من الدين: الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب فى التقوى، والتحذير من ارتكاب الذنوب.

**الرابع:** أن يصفى إلى الطبيب، ويلزم نصحه فيما يخص مرضه، وفيما يلزمه الاجتناب عنه، ليعرف أولاً تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه.. فليس كل مريض ينفعه الاحتماء عن كل شئ، ولا ينفعه كل دواء، بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص.. ويوازن هذا فى الدين: أن كل عبد ليس مبتلى بكل شهوة، وارتكاب كل ذنب، بل لكل مؤمن ذنب مخصوص، ثم لابد أن يعلم بكيفية التوصل إلى الصبر، ثم إلى العلم بأحواله، فهذه علوم يختص بها علماء الدين، وهم العلماء ورثة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

والعاصى إن علم عصيانه، فعليه طلب العلاج من الطبيب (وهو العالم) من غير تأخير، لئلا يزداد مرضه.

وغير ذلك من الأمثلة كثير، ومن أراد تفصيل الأمثلة فى أحوال التوبة، فعليه بمطالعة الإحياء.

**الركن الرابع: مقاصد التائب:**

قيل فى الأصل: التائب يحتاج فى ترك الذنوب إلى أربعة مقاصد:

**المقصد الأول:** أن تذكر أولاً ما فى القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين، وكذلك ما ورد فى الأخبار والآثار مثل قوله ﷺ: «ما من يوم يطلع فجره، ولا ليلة غاب شفقها، إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات، يقول أحدها: ليت هذه الخلائق لم يخلقوا، ويقول الآخر: ليتهم إذ خلقوا علموا لما خلقوا، فيقول الآخر: يا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا، ويقول الآخر: ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا عما عملوا».

قال بعض العلماء من السلف: «إذا أذنب العبد، أمر صاحب اليمين صاحب الشمال أن يرفع عنه القلم ساعات، فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه»<sup>(١)</sup>.

وجاء فى الأثر: «ما من عبد يعصى فى الأرض إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا.. فيقول الله سبحانه وتعالى للأرض والسماء: كفا عن عبدى وأهملاه، فإنكما لم تخلقاه، ولو خلقتما لرحمتما، لعله يتوب إلى فاغفر له، لعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسناً».

**المقصد الثانى:** تذكر حكايات الأنبياء، عليهم السلام، والسلف، وذلك شديد الوقع وظاهر النفع فى قلوب التائب القابل للنصح، مثل أحوال آدم عليه الصلاة والسلام فى عصيانه وتوبته.. قيل للخضر، عليه السلام: بم أطلعك الله الغيب؟ قال: بترك المعاصى لأجل الله تعالى.

وقال يوسف، عليه السلام: ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، قال الله تعالى: ﴿فَأَنسَنَهُ السَّيِّطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]، ولا بد أن يعلم أن الأنبياء، عليهم السلام، لم يتجاوز عنهم فى الذنوب الصغائر، فكيف يتجاوز عن غيرهم؟ نعم

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٢٩٥/٨ رقم ٧٩٧١)، من حديث أبى أمامة، مرفوعاً.



كانت سعادة لهم بأن عوجلوا بالعقوبة فى الدنيا، ولم يؤخروا إلى الآخرة، وهذا منتهى الفوز.

**المقصد الثالث:** أن يعلم التائب ويقرر أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقف على الذنب، وأن يعلم أن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو سبب جنائته، فربَّ عبد يتساهل فى أمر الآخرة، ويخاف من عقوبة الله تعالى فى الدنيا أكثر، وذلك لفرط جهله، فينبغى أن يخوف به، فإن الذنوب كلها تستعجل فى الدنيا بشؤمها فى غالب الأمر، حتى يضيق على العبد رزقه بسبب الذنب، وقد تسقط منزلته عن القلوب، ويستولى عليه أعداؤه، كما قال النبى ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»<sup>(١)</sup>.

**المقصد الرابع:** أن يذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة، وغير ذلك من الكبائر والصغائر، مما لا يمكن حصره، ويشغل بعلاجها بقرائن الأحوال والعلل على خفايا الصفات، وليتعرض لما وقف عليه من اقتداء بالرسول ﷺ «حيث قال له واحد: أوصنى ولا تكثر على»، فقال له: لا تغضب»<sup>(٢)</sup>.. وقال له آخر: «أوصنى، قال: عليك باليأس عما فى أيدي الناس، فإن ذلك هو الغناء، وإياك والطمع، فإنه فقر حاضر، وصل صلاتك ولا تعتذر»<sup>(٣)</sup>.

وقال رجل لمحمد بن واسع: أوصنى، قال: أوصيك أن تكون ملكاً فى الدنيا والآخرة، قال: كيف لى ذلك؟، قال: الزم الزهد.. وقال لآخر: «كن رحيماً أكن بك زعيماً بالجنة».

(١) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، مسند أحمد.

(٢) عن أبى هريرة، رضى الله عنه: أن رجلاً قال للنبى ﷺ: أوصنى.. قال: «لا تغضب، فردد مراراً.. قال: لا تغضب»، فى صحيح البخارى.

(٣) أخرجه ابن أبى عاصم فى الأحاد والمثنائى (٢٢٤٩)، وأخرجه الحاكم فى المستدرک (٣٢٦/٤)، (٣٢٧)، وكلاهما عن طريق محمد بن أبى حميد، عن إسماعيل الأنصارى، عن أبيه، عن جده.

وقال النبي ﷺ: «من التمس رضا الله بسخط الناس، كفاه الله تعالى مؤنة الناس.. ومن التمس رضا الناس بسخط الله تعالى، وكله الله إلى الناس»<sup>(١)</sup>.

وقال بعض العلماء: عليك بتقوى الله تعالى، فإنه رأس كل خير.

### مراتب النعم الظاهرة والباطنة:

قال تعالى في شكر النعمة: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال جل شأنه: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، لذا لا بد للعبد أن لا يغفل عن الشكر في كل يوم، بل في كل ساعة وآن، إلى الله تعالى المنعم على العباد.

واعلم أن النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها، وإلى ما هي مطلوبة ليست لغاية.

أما الغاية فهي: سعادة الآخرة، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور:

الأول: بقاء لا فناء له.. والثاني: سرور لا غم له.. والثالث: علم لا جهل معه.. والرابع: غناء لا فقر معه.

وتلك الغاية هي النعمة الحقيقية كما قال رسول الله ﷺ: «لا عيش إلا عيش الآخرة»<sup>(٢)</sup>.

(١) عن عائشة، رضى الله عنها، سنن الترمذى.

(٢) عن أنس، رضى الله عنه، فى صحيح البخارى رقم (٢٦٢٢)، ونص الحديث هو: حدثنا أبو إسحاق عن حميد قال: سمعت أنسًا، رضى الله عنه، يقول: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة، فلم يكن لهم عيب يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدًا على الجهاد ما بقينا أبدًا

أما الفضائل، فتقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس وفضائل البدن، وإلى ما يليه فى القرب إلى غير البدن، كالأسباب المتعلقة بالبدن من المال والأهل والعشيرة، وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس، وبين الحاصلة للنفس على التوفيق والهداية.

فهذه الفضائل إذن على أربعة أنواع:

**الأول:** هو فضائل النفس.. وهذه الفضائل لا تتم إلا بأسبابها بعد ترك الشهوة والحقد والغضب، وسائر الأخلاق المذمومة.. وأسبابها الخاصة النافعة لها كالترياق للمرض وهى: المال والولد والأهل والأقارب والعز والجاه؛ لأن الفقير بلا مال فى طلب العلم، كالغازى بلا سلاح، ولا يمكن دفع الفقر إلا بسلاح المال.. وأما الأهل والولد الصالح فنعم العون على الدين، والمرأة الصالحة كذلك.. ولا بد من ولد صالح يدعو له إما فى الدنيا وإما فى الآخرة بعد الموت، فهو فى الدنيا يعينه، وفى الآخرة يشفع أو يشفع، فينتفع به الوالد.. والمراد فى الدنيا بالعز والجاه: أن يدفع عن نفسه الذل والفقر، ولا يندفع فى الشواغل الدنيوية وبلباتها إلا بالعز والجاه، ونعنى بهما: العلم التام؛ لأن الإنسان بالعلم مالك لقلوب الناس، ومن ملك القلوب سخر له أصحاب هذه القلوب.. ومع ذلك لابد من الهداية، فلا سبيل لأحد إلى طريق السعادة إلا بها، ولا بد أيضاً من الرشد، ونعنى به العناية الإلهية.

ولما كانت أقرب الفضائل إلى الإنسان فضائل نفسه، حيث أعطاها الله الكثير من النعم الظاهرة والباطنة، لذا لابد من تيسير الحركات الداعية بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد من تلك النعم الظاهرة والباطنة.

**ثانى الفضائل:** فضائل البدن.

**والثالث:** كل ما يتعلق بالبدن من المال والأهل والأقارب.

والرابع: الخارج عن البدن وهى الهداية والتوفيق.

فهذه مراتب أربع تفاصيل أحوالها موجودة فى الأصل، فاطلبه هنالك.

### منازل الأرواح:

قال الإمام النسفى فى بحر الكلام: الأرواح على أربعة أوجه:

الوجه الأول: أرواح الأنبياء، عليهم السلام، تخرج من أجسادها، وتصير مثل صورها، ريحها مثل المسك والكافور، وقد تكون فى الجنة تأكل وتشرب وتتعم، وتأوى بالليل إلى قناديل معلقة تحت العرش.

كذلك أرواح الشهداء: تخرج من أجسادها، وتكون فى أجواف طير خضر فى الجنة، تأكل وتتعم، وتأوى بالليل إلى قناديل معلقة تحت العرش.

الثانى: أرواح المطيعين فى رياض الجنة، لا تأكل ولا تمتع، ولكن تنظر إلى الجنة.

الثالث: أرواح العصاة من المؤمنين: تكون بين السماء والأرض فى الهواء.

الرابع: أرواح الكفار: فهى فى سجين، فى جوف طير سود تحت الأرض السابعة، وهى متصلة بأجسادها، فتعذب الأرواح، وتتألم الأجساد منه، كالشمس فى السماء، ونورها فى الأرض.

### ديار النفس:

قال ابن القيم: للنفس أربعة دور، كل دار أعظم من التى قبلها:

الأول: بطن الأم، وذلك محل الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث.

الثانى: هذه الدار الدنيا التى نشأت فيها وألفتها، واكتسبت فيها الخير والشر.

الثالث: دار البرزخ، وهى أوسع من هذه الدار الدنيا وأعظم، ونسبة الدنيا إلى البرزخ كنسبة بطن الأم إلى الدنيا.

الرابع: دار انقار (الجنة أو النار).

والنفس فى كل دار من هذه الدور حكم وشئون غير شئون الأخرى.

### أحوال أهل القبور:

قال بعض الأفاضل: أهل القبور على أربعة أقسام فى قبورهم:

١- منهم القاعد على منكبيه حتى يعود الجسم ترأباً، ولا يزال بعد ذلك طوافاً فى الملكوت دون السماء الدنيا.

٢- ومنهم من يرسل الله عليه بمغفرة، ولا يدرى ما فعل، حتى يتنبه إلى النفخة الأولى ثم يموت.

٣- ومنهم من لا يقيم فى قبره أكثر من شهرين، ثم تركب نفسه فى طير يهوى به فى الجنة، وهو الحديث الصحيح، حيث قال صاحب الشرع رحمه الله: «نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجرة الجنة»<sup>(١)</sup>.

٤- أرواح الأنبياء والأولياء: لهم الحياة.. فمنهم من اختار الأرض أن يكون طوافاً حتى تقوم الساعة، وكثيراً ما يرى فى النوم.. وأظن الصديق والفاروق منهم (رضى الله عنهما).

والرسول ﷺ له الخيار فى طواف العوالم الثلاثة.. وعن هذه الإرادة

(١) عن كعب بن مالك، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «إنما نسمة المؤمن طائر فى شجر الجنة، حتى يبعثه الله عز وجل إلى جسده يوم القيامة»، سنن النسائي.

قال ﷺ تنبيهاً وإشارة: «أنا أكرم على الله من أن يدعى فى الأرض فى ثلث»<sup>(١)</sup>، وكان الثلث عشر مرات؛ لأن الحسين، رضى الله عنه، قتل رأس الثلاثين سنة، فغضب على أهل الأرض، وعرج به على العرش الأعلى، وقد رآه بعض الصالحين فى النوم، فقال: يا رسول الله بأبى وأمى: ما ترى فتن أمتك؟ فقال ﷺ: «زادهم الله فتنه، قتلوا الحسين وما لم يحفظونى فيه».

### أصول وآداب التوكل:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].. وللتوكل أصول وآداب:

ونبدأ أولاً بالأصول.. وأصول التوكل أربعة: الأول: بلا سعى.. والثانى: التوكل بالسعى الشرعى.. والثالث: التوكل بعد السعى.. والرابع: التوكل لا بسعى ولا بغير سعى، ولكن بعد وصول ما وجب من عند الناس بلا طلب، وإظهار ذلة إلى معطيها.

مثال الأول: وهو المتوكل على الله تعالى فقط، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

مثال الثانى: وهو السعى الشرعى.. قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَقْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩].

---

(١) المقصود بكلمة ثلث: أى أحد العوالم الثلاثة وهى: عالم الملك والملكوت والجبروت، ومعنى هذا: أن من كرم الله للرسول ﷺ: أن يبيع له الطواف فى هذه العوالم، فى أى منها شاء، ولم نجد حديثاً بهذا اللفظ، والذى وجدنا بلفظ: «أنا أكرم على الله من أن يدعى تحت الأرض مائتى عام».

قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/١٦١ رقم ٢١٧): هو أحد الأحاديث الأربعة التى تدور على الألسنة فى الأسواق عن رسول الله ﷺ، وليس لها أصل على ما نقل ابن الصلاح عن الإمام أحمد.

قال علماؤنا (رحمهم الله): فى السعى تأثير عظيم فى أحوال الناس.

ومثال الثالث: ما دلت عليه الأحاديث المتواردة أن: «الكاسب حبيب الله»، وقيل: من له أهل وأولاد فسعيه بعد أداء الفريضة عبادة.

مثال الرابع: قيل: «أداء الشكر واجب على كل عبد».. كما قيل: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله».. وغير ذلك من الأمثلة المشهورة بين العلماء.

وقال ابن معاذ: وجود رزق العبد من غير طلب، دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد.

وقال ابن أدهم (رحمة الله عليه): سئل بعض الربانيين: من أين تأكل؟ فقال: ليس هذا العلم عندى، ولكن سل ربي من أين يطعمنى (وهذا مثال أيضاً للأصل الأول من أصول التوكل).

وقال هرم بن حبان لأويس القرنى: أين تأمرنى أن أكون؟ فأوماً إلى الشام، فقال هرم: كيف المعيشة بها؟ قال أويس: إن هذه القلوب قد خالطها الشك، فما تنفعها الموعظة (وهنا مثال للأصل الرابع) يعنى الاستناد بالأسباب الظاهرة، والاتكال بالمال المباح، وذلك نوعان: اكتساب بشبهة، وبغير شبهة. ووجه الاكتساب ذكر فى كتاب الإحياء للغزالي، فاطلبه هنا لك.

ثانياً: آداب التوكل: وهى أربعة كأصوله وشروطه.

قال المصنف (رحمه الله): للمتوكل آداب فى متاع بيته:

الأول: إذا خرج عنه أغلق الباب، ولا يلتمس الحفظ من الجيران.. وعن بعض العلماء: إذا خرج لا يغلق الباب، ولكن يشد بابيه بشئ، فقال: ما شددته لولا الكلاب.

والثانى: أن لا يترك فى البيت متاعاً، لو عرض عليه السراق، يكون

هو سبب معصيتهم، أو يكون إمساكه سبب هيجان رغبتهم.. كذلك إن لم يكن في قلب السالك طمع، وكان قلبه خاليًا عن تشويش المال والجاه، لا يشتغل الشيطان بوسوسة قلبه؛ لأجل ذلك قال الصوفيون: «الدنيا رأس كل خطيئة».

**الثالث:** إن اضطر إلى ترك المتاع في بيته، فعليه أن ينوى عند خروجه الرضاء بالقضاء من تسليط العدو، أو جبر الظالم، أو تسليط السارق عليه، ويقول: كل ما أخذ منه فهو عنده في حل، كما قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»<sup>(١)</sup>، والنصرة إلى المظلوم ظاهرة، وأما إلى الظالم فهي العفو عنه، ومنعه من الظلم إن أمكن.

**الرابع:** أنه إذا وجد المال قد سرق وأخذ جبرًا، ينبغي أن لا يحزن، بل يفرح إن أمكن ويقول: لو كان فيه الخير والثواب لما سلبه الله تعالى.. فينبغي للمرء إذا سرق منه مال أو أخذ وقال: «في سبيل الله» أن لا يستزده ثانيًا؛ لأنه يضره ذلك، كما ذكر في الإحياء سبب الضرر نقلًا عن كبار العلماء، فاطلبه هنالك تجد نصحاء ينفعك، إن شاء الله تعالى.

### مراتب الحسد:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]، قيل: لا بد لكل مسلم ابتلى بالحسد ويريد تركه أن يعلم أولاً مراتب الحسد، ويعلم علاج تركه، وتلك المراتب أربع:

**الأولى:** تمنى زوال النعمة عنه.. وهذا غاية الخبث.

**الثانية:** أن يريد زوال النعمة، لرغبته في تلك النعمة، مثل رغبته في دار حسنة أو امرأة حسنة ومثلهما.

**الثالثة:** أن لا يشتهي عينها، بل يشتهي مثلها لنفسه، فإن عجز عن

(١) عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، في صحيح البخارى.



مثلها أحب زوالها، كى لا يظهر التفاوت بينهما.

**الرابعة:** أن يشتهى لنفسه مثلها، فإن لم يحصل فلا يجب زوالها منه، بل يريد حصولها له.. وهذا الأخير مغفوع عنه.

هذه الأربعة هي مراتب الحسد.. أما أسبابه فكثيرة جداً، تقتصر على أربعة: الأول: العداوة.. والثاني: التعزز.. والثالثة: الكبر على الغير.. والرابع: الرياسة، وحب الجاه بين الأقران والأمثال.

وكذلك للدواء أسباب شتى، ولكن تقتصر على أربع:

**الأول:** لابد أن تعلم بأن الشيطان هو الذى يلقي الحسد والبواغث إلى الحسد فى القلب، وينازعك إلى الحسد للحسد، لذا يجب أن تتدارك وتحترز من وسوسه بالذكر الدائم.

**الثاني:** لابد أن تعلم أن الحسد مهلك، وضرر الحسد لصاحبه أشد من ضرر النار وتأثيرها، كما قال على، رضى الله عنه، وكرم وجهه: «كفى للحسود حسده» (يعنى شره).

**الثالث:** لابد أن يتأمل الحسود فى أن الحسد قد يظهر فى اللسان تارة، وأخرى فى القلب وسائر الجوارح، وهذه كلها أسباب لنقص الثواب والمرتب عند الله والناس.

**الرابع:** متى قنعت باليسير من الدنيا فى المطعم والمشرب والملبس، ورضيت بقضاء الله وقدره فى جميع ذلك، عرفت أن الحسد والطمع لا يزيدان الإنسان إلا مقناً ونقصاً عند الله تعالى، وعند الناس.. أعاذنا الله من سوء الخصال فى جميع الأحوال.

**أسباب الوقوع فى الذنوب:**

اعلم أن هذه الغفلة مع عدم الفراغ من الذنوب لا يكون إلا من ضعف الإيمان.. فكل مؤمن مصدق يعلم بأن المعصية سبب البعد عن الله

تعالى ورسوله ﷺ، وسبب العقاب فى الآخرة.. ولتعلم أن سبب الوقوع فى الذنب أربعة أمور:

**الأول:** أن العقاب الموعود غيب، ليس بحاضر، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر.

**الثانى:** أن الباعث على الذنوب لذات النفس، وهى فى الحال آخذة بالتنوع وفيها قوى، لذلك استولت بحب الاعتياد والعادة والطبيعة على ذات الإنسان.. كذلك النزوع عن العاجلة لخوف الآجل جديد على النفس، لذلك قال تعالى: ﴿يَلْجَأُ الْفُلُوجُ إِلَى الْغَايَةِ ۖ وَيَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠ - ٢١]، وغير ذلك من الآيات والأخبار كثير.

**الثالث:** أنه ما من مذنّب مؤمن إلا وهو فى الغالب عازم على التوبة، وتكفير السيئات بالحسنات، وقد وعد بأن ذلك يشغله، إلا أن طول الأمل غالب على الطباع، فلا يزال يؤجل التوبة والتكفير.. فمن حيث رجاءه مع الإيمان، ربما يقدم عليه توفيق التوبة.

**الرابع:** أنه ما من مؤمن موفق إلا وهو يعتقد أن الذنب لا يوجب العقوبة إيجاباً، بل يمكن العفو عنها، فهو مذنّب وينتظر العفو اتكالاً على فضل الله تعالى.

انتهى إلى هنا كلام الإمام من كتاب الإحياء، رضى الله عنه، ونفعنا من علومه ومدهه.

### من الصور الإنسانية:

قال الغزالي فى كتابه معراج السالكين: إن الصورة الإنسانية تنقسم إلى أربعة أرباع: الرأس.. اليدين.. البدن.. الرجلان.

وغذاء الإنسان استقر فى المعدة، وتخدم المعدة أربع قوى: الجاذبة.. الماسكة.. الهاضمة.. الدافعة.

وقال آخر من العلماء: حكى أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية ابن أبي سفيان (رضى الله عنهما) يسأله عن أمثلة منها: الأربعة الذين لهم الروح، ولم يركضوا في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء.

فأجابه بأنهم: آدم عليه السلام.. وحواء.. وعصا موسى عليه السلام.. والكبش الذى فدى الله به إسماعيل عليه السلام.

وقيل لبعض من كبار العلماء: من أكرم الناس؟ قال أربعة:

الأول: أفقهم وأصدقهم لليمين. والثانى: أبذلهم للمسلمين.

والثالث: أكرمهم للفقراء والعلماء.

الرابع: أطعمهم للمساكين والمحتاجين.

وقيل له: فمن أثقل الناس؟ قال أربعة:

الأول: المنقر فى الكلام، أى المدقق أو المجادل.

والثانى: الضنين بالسلام.

والثالث: المهذار فى الكلام.

والرابع: المنفتق على الطعام، أى شره.

وقيل: فمن خير الناس؟ قال أربعة:

الأول: أكثرهم إحسانًا. والثانى: أقومهم ميزانًا.

والثالث: أدومهم غفرانًا. والرابع: أوسعهم ميدانًا.

وقيل: فمن العاقل؟ قال: فى العاقل أربع علامات:

لا يتكلم.. ولا ينظر سرارًا.. ولا يضمّر غدرًا.. ولا يطلب عذرًا.

وقيل: فمن الجاهل؟ قال: فى الجاهل أربع علامات:

الأولى: المهدار في كلامه.. الثانية: المنان في طعامه.. الثالثة: المتناول على إمامه (يعنى على الحكام أو المشايخ والأساتيد).. والرابعة: الفاحش على غلامه.

ما هو الكون؟

قال العلماء في كتب الأصول: الكون عبارة عن حصول الجوهر في الحيز.. ويندرج تحت الكون أربعة أشياء:

الحركة: وهى عبارة عن حصول الجوهر في حيز آخر.

والسكون: وهو عبارة عن حصول الجسم الواحد في حيز واحد، أكثر من زمان واحد.

والاجتماع: هو عبارة عن حصول المتحيزين في حيزين، بحيث لا يتوسطهما ثالث.

والافتراق: عبارة عن حصول المتحيزين في حيزين، بحيث يتوسطهما ثالث كذا قال العلماء في علم الكلام.

فى تعريف العرش وبيانه:

قال صاحب كنز الأسرار فى تعريف العرش وبيانه: الكلام فيه على أربعة وجوه:

الأول: فى عظمه ووجوده.. قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الثانى: فى كون العرش مخلوقاً قبل السماوات والأرض ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، وذلك يدل على أنه مخلوق قبل ذلك.

وفى حديث عمران بن حصين: «كان الله ولم يكن معه شيء، وكان

عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض»<sup>(١)</sup>.. والظاهر أن ثم للتدرج (أى التدرج).

والثالث: فى حقيقة العرش.. وفى تفسير الثعلبى: أن الله خلق العرش فى جوهرة خضراء له ألف ألف رأس، فى كل رأس ألف ألف وجه وستمائة ألف، والوجه الواحد كطباق الدنيا ألف ألف مرة، وستمائة ألف ألف مرة، وفى الوجه الواحد ألف ألف لسان، كل لسان يسبح الله تعالى بألف ألف لغة، يخلق الله تعالى بكل لغة من لغاته خلقاً فى ملكوته يسبحونه ويقدمونه بتلك اللغات.

الرابع: فى ملائكة العرش.. وهم أربعة أملاك اليوم، فإذا كان يوم القيامة أصبحوا ثمانية.. وقالوا: إنهم اليوم ثمانية، وهذا مروى أيضاً عن النبى ﷺ، وسبب ذلك وتضعيفهم ذكر فى كتابنا أسرار الحج.. وفى قانون القاضى أبى بكر بن العربى:

أن العلماء اختلفوا فى أول المخلوق.. فقيل: العرش.. وقيل: الهواء.. وقيل: الماء.. وقيل: العماء.. (وهى أربعة أيضاً، والعماء هو السحاب الرقيق عند الحكماء، وعند الصوفيين فيه مذهب آخر، أشير إليه فى هذا الكتاب فى مواضع، ومن طلب وجد).

وفى الكرسى وعظمته وجوه أيضاً:

- حملة الكرسى من الملائكة أربعة أملاك، لكل ملك أربعة وجوه، أقدامهم فى الصخرة التى تحت الأرض السابعة السفلى مسيرة خمسمائة عام.

وصور الملائكة كما يلى:

- ملك على صورة سيد البشر آدم، عليه السلام، وهو يسأل الله

(١) مسند أحمد، حديث رقم (١٩٠٣٠).

للآدميين المطر والرزق من السنة إلى السنة.

- وملك على صورة سيد الأنعام، وهو الثور، وهو يسأل الله للأنعام الرزق من السنة إلى السنة، وعلى وجهه غضاضة منذ عبد العجل من دون الله.

- وملك على صورة سيد الطيور، وهو النسر، وهو يسأل الله الرزق للطيور من السنة إلى السنة.

وبين حملة العرش وحملة الكرسي سبعين حجاباً من ظلمة، وغلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام، ولولا ذلك لاحتزقت حملة العرش من حملة الكرسي (حكاه الثعلبي).

### الأجسام السفلية وعناصرها:

وقال صاحب الكنز، رواية عن الإمام فخر الدين الرازي، رحمهما الله تعالى: الأجسام السفلية إما بسيطة أو مركبة.

أما البسيطة: هي العناصر الأربعة المذكورة في أول الكتاب: أحدها: كرة الأرض في المفاوز والجبال والبلاد المعنورة.. ثانيها: كرة الماء وما فيها من الأودية والعيون والأنهار والبحار.. وثالثها: كرة الهواء.. ورابعها: كرة النار.

أما المركبة: كالمعادن والنبات والحيوانات، وسائر الأشجار، والأعراض المتحيزة وغير المتحيزة.

### أما الرياح:

قال فخر الدين: الرياح أربعة.. الأول: الشمال (من نقطة الشمال).. والثاني: الجنوب (من نقطة الجنوب).. والثالث: الصبا (مشرقية).. والرابع: الدبور (مغربية) وإنما سمي الصبا «قبولاً»؛ لأنها مستقبله الدبور.. وما بين كل واحد من هذه الأمهات تسمى مكباً..

والجملة تحت أجنحة الكروبيين حملة العرش.. ولكل واحد ممر ومخرج.  
وكما أن للرياح ممر ومخرج، كذلك لكل أصل من أصول الإنسان ممر  
ومخرج، على ما فهم من تعريفها: أما الشمال: فإنها تمر بجنة عدن،  
فتأخذ من عرق طيها فتمر على أرواح الصديقين، وحديها من كرسى  
نبات نعش.

أما الدبور: فحدها ومخرجها من مطلع الشمس إلى كرسى نبات  
نعش، فلا تدخل ريح على أخرى في حدها.

وقال الإمام فخر الدين رواية عن ابن عمر، رضى الله عنهما: إن  
الرياح ثمان، أربع منها عذاب، وهى: القاصف، والعاصف، والصرصر،  
والعقيم.

وأربع منها رحمة، وهى: الناشرات، والمبشرات، والمرسلات،  
والذاريات. وتفصيل ذلك فى كتاب كنز الأسرار.

### الكلمات التى تلقاها آدم من ربه:

قال صاحب الكنز: الكلمات التى تلقاها آدم من ربه فيها أربعة  
أقوال:

الأول: ما روى عن ابن عباس (رضى الله عنهما): قول آدم، عليه  
السلام: «يا رب ألم تخلقنى بيدك من غير واسطة؟ قال: بلى.. قال: يا  
رب ألم تسكننى جنتك؟ قال: بلى.. قال: يا رب ألم تسبق رحمتك  
غضبك؟ قال: بلى.. قال: يا رب أرايت إن أصلحت ورجعت وتبت  
أفتردنى إلى جنتك؟ قال: بلى»<sup>(١)</sup>.

الثانى: رواية عن ابن عباس، أن الكلمات التى تلقاها آدم من ربه

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرک (٢/٥٤٥)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم  
يخرجاه، ووافقه الذهبى.

فتاب عليه قال: علم الله آدم وحواء أمر الحج، فهي الكلمات التى فى الحج.. فلما فرغا من الحج أوحى الله تعالى إليهما أنى قبلت توبتكما.

والثالث: رواية عن قتادة ومجاهد، أن الكلمات التى تلقاها آدم هى قوله<sup>(١)</sup> تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

والرابع: رواية عن سعيد بن جبير، وعن ابن عباس، رضى الله عنهما، أنها هى: «لا إله إلا أنت، سبحانهك اللهم وبمحمدك، عملت سوءاً وظلمت نفسى، فاغفر لى فإنك أنت الغفور»<sup>(٢)</sup>.

### تحديد الكفر وأسبابه:

اختلف العلماء فى تحديد الكفر وأسبابه، وانحصروا على أربعة أركان فى الأقوال:

الأول: الجحد بالله ﴿سُبْحَنُكَ وَعَظَمُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣]، واتفق أهل الإسلام بواحدنيته تعالى، فيلزم تكفير من يجحده وينكره ويشركه.

الثانى: هو تكذيب الرسول ﷺ، هذا القول للغزالي، رحمه الله.

الثالث: للإمام فخر الدين: بإنكارهم ما ينقل عن محمد ﷺ من الأخبار، من حج وزكاة وصوم.. وهم ينكرون نبوته، وبكل ما جاء به عن ربه تعالى.

الرابع: بما يدل بأقوالهم كالشرك والإنكار.. وبما يدل بأفعالهم كتعليق

(١) رواية عن قتادة، أخرجه البيهقى فى الشعب (٧١٧٤)، رواية بمجاهد: أخرجه ابن أبى حاتم فى التفسير (٩١/١ رقم ٤١٠).

(٢) رواية عن سعيد بن جبير، وعن ابن عباس، رضى الله عنهما: عزاه السيوطى فى الدر المنثور (١١٨/١)، لهاد بن السرى فى الزهد.



الصليب وشد الزنار.. فهذه الأفعال يكفر صاحبها بالإجماع. ومع هذا فكثرة فرقهم لا تخصي، ولو التزمنا شرح أحوالهم لطال الكتاب.

ما المراد بالأجلين؟:

اختلف العلماء في المراد بالأجلين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٢]، وهذا الاختلاف على أربعة أقوال:

الأول: أن الأجل الأول أجل الماضين.

والثاني: أجل الباقين.

والمراد بالأول أجل الموت، وبالثاني أجل حياة الأرض؛ لأنه لا آخر لها ولا انقضاء، إلا يعلم الله تعالى.

والثالث: أن الأجل الأول هو ما بين خلق الإنسان إلى موته، والثاني ما بين موته إلى بعثه.

والرابع: أن الأول هو النوم، والثاني هو الوفاة.

وبعض العلماء اعتبر وجهًا خامسًا: وهو ما بقى في عمر الإنسان، وما نقص من عمره.

من الدعاء ما يكون كفرًا:

قال بعض العلماء: من الدعاء ما يكون كفرًا، وهو على أربعة أقسام:

القسم الأول: كقول القائل: «اللهم لا تعذب من كفر واغفر له»؛ لأنه تكذيب للقواطع التي دلت على تعذيب الكفار؛ ولأن الله تعالى لا يغفر لمن يشرك به.. وغير ذلك من الأمثلة.

الثاني: وهو أن يطلب الداعي خلود المسلم في النار، كقوله: «اللهم خلد فلانًا المسلم في النار»، رغم أن هذا المسلم لا بد له من الجنة.. أو أن يقول: «أحبني أبدًا حتى أسلم من سكرات الموت»، وهذا أيضًا مخالف

للتصوص القاطعة كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، أو أن يقول: «اللهم اجعل إبليس مجباً ناصحاً لى ولبنى آدم».

الثالث: أن يطلب الربوبية، بسؤله عدم قدرته تعالى، أو بسلب علمه تعالى وغير ذلك من الأمثلة.

الرابع: يسأل الداعى الله أن يحل له بعض محرماته، وأن يفوض إليه أمور العالم، وغير ذلك من الأمثلة.

### مواقف يوم الحشر:

قال صاحب الكتاب: إن مقدار الوقوف يوم الحشر أربعون عاماً.

قال المكي: روى أن الناس يقومون يوم القيامة حتى يلحقهم العرق، فيقومون مقدار أربعين عاماً.. وحكى أيضاً عن ابن مسعود، رضى الله عنه، أنه قال: يمشون أربعين سنة على أكمل الأعداد.. وفى ذلك سبب وأصل ووجه، لا بد من بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى، وقد أشير إليه فى المقدمة فى حديث الجمع والتخليق، منه قوله عليه الصلاة والسلام: «إن أحدكم يجمع فى بطن أمه»<sup>(١)</sup>، إلى آخر الحديث.

وقيل: مقدار الوقوف فى الحشر على أربعة أوجه:

الأول: الوقوف أربعون عاماً أو زيادة، وهذا على أقوال لم تذكر فى هذا المستور، ولو ذكرت لطال الكتاب.

(١) عن عبد الله بن مسعود، صحيح البخارى، حديث رقم (٢٩٦٩)، ونص الحديث هو: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصطفى قال: «إن أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ووزقه وأجله، وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح.. فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة.

الثاني: فى دنو الشمس يوم القيامة من رعوس الخلائق.. وفى رواية مسلم عن رسول الله ﷺ: «تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أفعالهم فى العرق لكثرة حر الشمس»<sup>(١)</sup>.

الثالث: من العلامات التى يمتاز بها المسلمون عن غيرهم فى الحشر ما جاء فى الحديث: «يأتون يوم القيامة غراً محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض»<sup>(٢)</sup>، والغرة والتجليل على طريق التشبيه.

الرابع: فى العلامة التى يمتاز بها الكافرون يوم القيامة عن غيرهم.. وهذا الوجه أيضاً على أربعة أنواع:

الأول: أسوداد الوجه لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

الثاني: زرقة العيون.. قال تعالى: ﴿وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].

الثالث: عبس الوجوه.. قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ كَالسُّبْحَةِ﴾ [القيامة: ٢٤].

الرابع: غبرة الوجوه.. قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّاءُ﴾ [عبس: ٤٠]، أى عليها غبار البهائم.

التفاوت بين أهل الجنة: قال بعض العلماء: التفاوت الذى بين أهل الجنة على أربعة أقسام:

الأول: من يستفتح له أبواب الجنة محمد ﷺ.

(١) عن عقبة بن عامر، مسند أحمد، حديث رقم (١٦٧٩٨).

(٢) عن أبى هريرة، رضى الله عنه (النسائى وابن ماجه) وفى موطأ مالك، حديث رقم

الثاني: الذين يكون وجوههم كالقمر ليلة البدر.. عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر»<sup>(١)</sup>، ويحتمل أن يكون هؤلاء فقراء أمة محمد ﷺ، كما جاء في الحديث «يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»<sup>(٢)</sup>.

الثالث: الذين يدخلون الجنة على أضواء كوكب درى.  
الرابع: فى أهل الأعراف.. وفى هذا القسم الرابع أقوال عند المفسرين لا تحصى.

واعلم أن الأعراف جمع عُرف، وهو كل مرتفع، ومنه عرف الديك، سمي به لارتفاعه. وفى معناه عند العلماء أربعة معان فى الأقوال:

الأول: أنه أعلى الحجاب المضروب بين أهل الجنة وأهل النار، وهو السور الذى ذكره الله تعالى فى قوله جل شأنه: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا﴾ [الحديد: ١٣].

الثاني: أنه الصراط.. وهذا القول روى عن ابن عباس، رضى الله عنهما<sup>(٣)</sup>.

الثالث: أنه جبل أحد، كما جاء فى الأثر من أقوال السلف الصالح.

الرابع: قال الحسن البصرى: أن معنى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]، أى رجال قادرون على معرفة أهل الجنة وأهل النار بسيماهم.. قيل للحسن البصرى: أهم أقوام استوت حسناتهم وسيئاتهم؟ فضرب على فخذه فقال: هم قوم جعلهم الله على تعرف

(١) فى صحيح البخارى، حديث رقم (٣٠٨٠).

(٢) عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو وجابر وأبى سعيد الخدرى، سنن الترمذى.

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى التفسير (١٤٨٣/٥)، رقم (٨٤٨٩)، (١٤٨٥/٥)، رقم

(٨٥٠٢)، وأخرجه البيهقى فى البعث (١٠٠).

أهل الجنة والنار.. والله لا أدري أبعضهم معنا.

قال المحرر الفقير إلى الله القدير: هذا الوجه الأخير موجه عندى، ومعوّل عليه عند العلماء، وقريب من هذا ما قاله الإمام القرطبى فى تفسيره لهذه الآية: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾، وقسم أهل الأعراف اثنى عشر قسماً.

### من رباعيات الكلم الطيب لأحاديث الرسول ﷺ:

- «للمؤمن أربعة أعداء: مؤمن يحسده.. ومنافق يبغضه.. وشيطان يضلّه.. وكافر يقاتله»<sup>(١)</sup>، «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: صدق الحديث، وحفظ الأمانة، وحسن الخلق»<sup>(٢)</sup>.

- «أربع حق على الله تعالى عونهم: الغازى، والمتزوج، والمكاتب، والحاج»<sup>(٣)</sup>.

- «أربع دعوات لا ترد، دعوة الحاج حتى يرجع.. ودعوة الغازى حتى يصدر.. ودعوة المريض حتى يبرأ.. ودعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب»<sup>(٤)</sup>.

- «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن

(١) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس، عن أبى هريرة، وأشار السيوطى فى الجامع الصغير (٧٣٥٢)، لضعفه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٧٧/٢)، من حديث عبد الله بن عمرو، رضى الله عنهما.

(٣) عزاه السيوطى بهذا اللفظ للإمام أحمد فى مسنده، كما فى فيض القدير (٤٦٣/١)، وأخرجه الترمذى (١٦٥٥)، ٢٣- كتاب فضائل الجهاد، ٢٠- باب ما جاء فى المجاهد والناكح والمكاتب وعون الله إياهم.

(٤) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس، ورمز السيوطى لضعفه كما فى فيض القدير (٤٦٣/١).

كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»<sup>(١)</sup>.

- «أربع من كن فيه حرمه الله على النار، وعصمه من الشيطان: من ملك نفسه حين يرغب، وحين يرهب، وحين يشتهي، وحين يفضب»<sup>(٢)</sup>.

- «وأربع من كن فيه نشر الله عليه رحمته، وأدخله الله جنته: من آوى مسكيناً، ورحم الصغير، ورفق بالملوك، وأنفق على الوالدين»<sup>(٣)</sup>.

- «أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة: لسان ذاكراً، وقلب شاكراً، ويدن على البلاء صابراً، وزوجة لا تبغيه حوباً فى نفسها ولا فى ماله»<sup>(٤)</sup>.

- «أربع من سنن المرسلين: الحياء، والتعطر، والنكاح، والسواك»<sup>(٥)</sup>.

- «أربع من سعادة المرء: أن يكون له زوجة سالحة، وأولاد أبرار، وغلطاء صالحون، وأن يكون رزقه فى بلده»<sup>(٦)</sup>.

- «أربع من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، والحرص، وطول الأمل»<sup>(٧)</sup>.

(١) أخرجه البخارى (٣٤)، ٢- كتاب الإيمان، ٢٤- باب علامة المنافق عن عبد الله ابن عمرو، رضى الله عنهما.

(٢) أخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أبى هريرة.

(٣) هو الشطر الثانى من الحديث السابق.

(٤) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٣٤/١١)، رقم (١١٢٧٥)، والأوسط (٧٢١٢).

(٥) أخرجه الترمذى (١٠٨٠)، ٩- كتاب النكاح، عن أبى أيوب الأنصارى.

(٦) عزاه السيوطى فى الجامع الصغير لابن عساكر، والديلمى فى مسند الفردوس عن على، رضى الله عنه.

(٧) أخرجه ابن الجوزى فى الموضوعات (١٥٩٠)، من حديث أنس مرفوعاً.

- «أربع لا يشبعن من أربع: عين من نظر، وأرض من مطر، وأنثى من ذكر، وعالم من علم»<sup>(١)</sup>.

- «أربع قبل الظهر ليس فيهم تسليم تفتح لهن أبواب السماء»<sup>(٢)</sup>.

- «وأربع بعد العشاء يعدلن ليلة القدر»<sup>(٣)</sup>.

- «أربع لا يقبلن في أربع: نفقة من خيانة أو سرقة أو غلول أو مال يتييم، في حج ولا عمرة ولا جهاد ولا صدقة»<sup>(٤)</sup>.

- «أربع أُنزلت من كنز تحت العرش: أم الكتاب، وآية الكرسي، وخواتيم البقرة، والكوثر»<sup>(٥)</sup>.

- «أربع حق على الله تعالى أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها: مدمن خمر.. وأكل الربا.. وأكل مال اليتيم بغير حق.. والعاق لوالديه»<sup>(٦)</sup>.

- «أربعة دعوتهم مستحابة: الإمام العادل.. والرجل يدعو لأخيه بظهر الغيب.. ودعوة المظلوم بعد الصلاة.. ورجل يدعو لوالديه»<sup>(٧)</sup>.

(١) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٤٦٢، ٤٦٣)، من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وأخرجه (٤٦٤)، من حديث عائشة مرفوعاً.

(٢) أخرجه أبو داود (١٢٧٠)، كتاب الصلاة، باب الأربع قبل الظهر وبعدها.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٧٣٣)، من حديث أنس مرفوعاً، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٣٠/٢).

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل (٧٨/٦)، في ترجمة كوثر بن حكيم.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣٥/٨)، رقم ٧٩٢٠، من حديث أبي أمامة.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٧/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٥٣٠)، كلاهما من طريق إبراهيم بن خيثم بن عراك بن مالك عن أبيه، عن جده، عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٧) عزاه السيوطي في الجامع الصغير لأبي نعيم في الحلية، ولم نجده في النسخة المطبوعة.

- «أربعة لا ينظر الله تعالى إليهم يوم القيامة: عاق، ومنان، ومدمن، وحمز، ومكذب بقدر»<sup>(١)</sup>.

- «أربعة يبغضهم الله: البياع الخلاف، والفقير المختال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر»<sup>(٢)</sup>.

- «أربعة يجرى عليهم أجورهم بعد الموت: من مات مرابطاً في سبيل الله.. ومن علم أجرى له عمله ما عمل به.. ومن تصدق بصدقة فأجرى ما يجرى له ما وجدت.. ورجل ترك ولدًا صالحًا فهو يدعو له»<sup>(٣)</sup>.

- «أربعة يؤتون أجورهم مرتين: أزواج النبي ﷺ.. ومن أسلم من أهل الكتاب.. ورجل كانت عنده أمة فأعجبته فأعتقها ثم تزوجها.. وعبد مملوك أدى حق الله وحق سادته»<sup>(٤)</sup>.

- «أربعة من كثر الجنة: إخفاء الصدقة، وكتمان المصيبة، وصلة الرحم، وقول لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله»<sup>(٥)</sup>.

- «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»<sup>(٦)</sup>.

### من رباعيات نصائح العلماء:

السفر على أربعة أنواع وأقسام:

- (١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤٠/٨)، رقم (٧٩٣٨).
- (٢) أخرجه النسائي (٢٥٧٦)، عن أبي هريرة مرفوعاً.
- (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦١/٥)، والطبراني في معجمه الكبير (٢٠٥/٨)، رقم (٧٨٣١)، كلاهما من حديث أبي أمامة مرفوعاً.
- (٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢١٢/٨)، رقم (٧٨٥٦).
- (٥) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٨٦/٣)، من حديث علي رضي الله عنه، مرفوعاً.
- (٦) أخرجه مسلم (٩٣٤)، ١١ - كتاب الجنائز، ١٠ - باب التشديد في النياحة.



الأول: محرم.. والثاني: مكروه.. والثالث: محمود.. والرابع: مندوب.

أما المحرم: كإباق العبد من سيده وسفر العاق.

والمكروه: كالفرار من بلدة الطاعون.

والمحمود: كالحج وطلب العلم.

والمندوب: كزيارة العلماء والشهداء، وغير ذلك من الأسفار، ظاهرًا وباطنًا.

• قال الشافعي، رحمه الله: آداب الأكل بين الصلحاء على أربعة أنحاء:

- الأكل بأصبع واحد من المقت.

- الأكل بإصبعين من الكبر.

- الأكل بثلاثة أصابع من السنة.

- الأكل بأربع أو خمس أصابع من الشره.

• وقال: أربع تقوى البدن:

أكل اللحم.. وشم الطيب.. وكثرة الغسل من غير جماع.. ولبس الكتان.

• وأربع توهن البدن:

كثرة الجماع.. وكثرة الهم.. وكثرة شرب الماء على الريق.. وكثرة أكل الحموضة.

• وقال: أربع تقوى البصر:

الجلوس نحو القبلة.. والكحل عند النوم.. والنظر إلى الحضرة.. وتنظيف الملابس.

• وأربع توهن البصر: النظر إلى القدر.. والنظر إلى المصلوب..  
والنظر إلى فرج المرأة.. والجلوس فى استديار القبلة.

• وأربع تزيد فى الجماع:

أكل العصافير.. وأكل الأطرفيل الأكبر.. وأكل الفستق.. وأكل  
الجرجير.

• وقيل: النوم على أربعة أنحاء:

النوم على القفا، وهو نوم الأنبياء، عليهم السلام، يتفكرون فى خلق  
السموات والأرض.

ونوم على اليمين: وهو نوم العلماء والعباد.

ونوم على الشمال: وهو نوم الملوك ليهضم طعامهم.

ونوم على الوجه: وهو نوم الشياطين.

• نقل عن الحكماء: لا يفرنكم أربعة أشياء: الأول: زهد النساء..  
الثانى: ضحك العدو.. الثالث: حر الشتاء.. الرابع: سكون الحبل.

والسالك هذا يكون فى سلوكه معاملاً فى أكثر أحواله فى الأصول  
والمراتب.

• قيل: المشورة راحة لك وتعب لغيرك..

ولا تشاور أربعة من الخلق: الأول: الجائع حتى يشبع.. والثانى:  
العطشان حتى يروى.. والثالث: الأسير حتى يطلق.. والرابع: المقل حتى  
يكثر خيره ويحصل مرامه.

• ويقال: من أعطى أربعاً لم يمنع أربعاً: من أعطى الشكر لم يمنع  
المزيد.. ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول.. ومن أعطى الاستخارة لم يمنع  
الخير.. ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب.

• قال صاحب الإحياء فى كتاب عجائب القلب: اعلم أن الإنسان قد مزجت فى خلقته وتركبت أربع شوائب، فلذلك اجتمعت عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهى: الصفات السبعية، والبهيمية، والشيطانية، والزبانية.

• وقيل: أربع تزيد فى العقل:

ترك الفضول من الكلام، والسواك، ومحالسة العلماء، ومحالسة الصالحين.

وأربع تزيد فى العبادة: أن لا يخطو خطوة إلا على وضوء.. وكثرة السجود.. ولزوم المساجد.. وكثرة قراءة القرآن.

تعليق على الجزء الرابع:

يعتبر هذا الجزء بلورة وتطبيقاً لما سبق من أجزاء، فهو يحول فى العبادات والآداب والعادات، ليبين ما فيها من أسرار التزييع، مما يشكل منهاجاً لفكر المسلم، بحيث يتعمق فى فهم حقيقة الإسلام والإيمان، ويعلم علم اليقين عظمة هذا الدين القيم، الذى يهدف إلى رشد الإنسان بمعالجته من كافة الأركان.

ونحن نعتبر أن ذلك الجزء يعتبر رؤية جديدة للعبادات، فى رباعيات توقظ الوجدان والعقول، وتستثير ما فيها من الفهم المكنون، بأبعاد جديدة، وحقائق مثمرة غزيرة.. ولا شك أن هذا أسلوب جديد فى مجال الدعوة، وفى نفس الوقت مفيد إلى أبعد مدى؛ لأن الإنسان يحتاج دائماً إلى الجديد فى العلم وطرق الفهم لتوسيع مداركه وإثراء أفكاره.

ولذلك فنحن ندعو كل من كان له قلب أن يلقى السمع وهو شهيد لهذا الكلام الرشيد؛ لأنه يحمل فى مراميه ومغازيه كنوزاً هائلة، تخاطب

أصحاب القلوب النيرة، المتعطشة إلى ما يزيدهما فهما لدينها، لتحقيق العروج المطلوب إلى ربها.

كما يعتبر هذا الجزء رحلة ممتعة مع أقوال الصالحين في كتبهم، مما يبين الجهد المشكور الذى بذله صاحب المخطوط (الشيخ إبراهيم البشنوى، رضى الله عنه وأرضاه) فى البحث العلمى الدائم حول أصول الحقيقة، التى يسعى إليها دومًا العلماء الأولياء الأتقياء.. وهذا البحث العلمى هو المطلوب لإثراء الفكر الإسلامى؛ لأنه يودى إلى تلاحق الأفكار لإعلاء بنیان الإيمان، ونضج بنى الإنسان.

فاللهم وفق علماءنا لإضافة مزيد من اللبنة لهذا البنيان، حتى يصير شامخاً يهر أولى الألباب، ويرتفع معه هؤلاء العلماء مصداقاً لقولك الحق: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

[المجادلة: ١١].



## الخاتمة

### فى مراتب العلم والعلماء الواقعة على أصول الترتيب

مقام العلم:

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، قال علماؤنا، رحمهم الله تعالى: العالم أفضل من العامل بأربعة أشياء:

الأول: أن العلم قد يكون بغير عمل كما ورد فى الحديث<sup>(١)</sup>.. ولأنه كفى به شفاعة يوم القيامة ، وسبباً لخلاصه من النار، ولا يمكن العمل بغير علم.

الثانى: مقام العلماء مقام الأنبياء، عليهم السلام، ومقام العمل مقام الأولياء.

الثالث: العمل لازم، والعلم متعدد كالسراج.

الرابع: ينفع العلم بغير عمل، ولا ينفع العمل بغير علم. وغير هذا مذكور فى الأصول.

من غرائب العلوم:

جاء فى الخبر: «أربعة من بلاد الدنيا من الجنة، الأول: مكة.. والثانى:

---

(١) أخرج ابن ماجه فى سننه (٢١٩)، المقدمة، ١٦- باب فضل من تعلم القرآن وعلمه، من حديث أبى ذر مرفوعاً، ما نصه: «يا أبا ذر لأن تعذو فتعلم آية من كتاب الله، خير لك من أن تصلى مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم، عمل به أو لم يعمل، خير لك من أن تصلى ألف ركعة».

المدينة.. والثالث: القدس.. والرابع: دمشق (يعنى به الشام)»<sup>(١)</sup>، رواه أبو هريرة هكذا وجدها مكتوبة فى مناقب القدس.. فعلى الناظر فى هذا المسطور، الراغب فى استجلاء مراتبه وأسراره، أن يتأمل بين السطور، يجد مناسبة قرينة لا يجدها فى غيرها، ويعلم ما أودع له فيها من غرائب العلوم والحكم ومراتبها ولطائفها.. ونرجو منه أن ينظر إليها بعين الإنصاف، وبقلب صاف، والإقبال بتصحيح ما وقع من خلل ونقص، ويخطر بباله قوله تعالى: ﴿وَقَوْفَ كَلِّ ذِي عَلْمٍ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٧٦].

فإن العلوم لا تنحصر فى قلب شخص معين، ولا فى قاعدة معينة، والإنسان محل النسيان، والبشرية كذلك جامعة النقصان.. فعليه أن يستزج الخلل الواقع بذيل الغفو، وكلما وجد فائدة جديدة فليحمد الله تعالى عليه، فهو وليه فى كل حال من أحواله، فى ليله ونهاره.

### مراتب العلم:

اعلم أن مراتب العلم متعددة، ومنقسمة إلى أربعة أقسام:

الأول: معنوية.. والثانى: روحانية.. والثالث: صورية مثالية.. والرابع: مركبة مادية.

فروح العلم وحكمه السارى فى مرتبته وسر وحدته، بواسطة المواد اللفظية والرقمية والصورية، كالحروف والكلمات المكتوبة (المتلفظة والمعنوية) وهى المعلومات المختلفة التى تتضمنها العبارات ومزاد التراكيب والاصطلاحات الوصفية والمراتب التى هى محل ظهور العلم والعلم وإن كان حقيقة واحدة كلية، فإن لها أحكاماً ونسباً.. وقد

(١) أخرجه ابن عدى فى الكامل (٧٣/٧)، فى ترجمة الوليد بن محمد المقرئ، ومن طريق ابن عدى، أخرجه ابن الجوزى فى الموضوعات (٨٧٤).

فتح لك فى هذا المسطور باب واسع فى أصول التريبع، ما يتيسر لأحد إلا لأهل العناية الكبرى، وذوى المكانة الزلفى.

فتتبع المراتب فى العلم، واعتبر مثلها فى جميع الحقائق؛ لأن المراتب الواقعة فى التريبع سارية فى أكثر الحقائق.. قال بعض الفضلاء: العلم له تعلق بالحق وبسواه، والمتعلق بالحق متجرد عن التعليق بغيره، أو بارتباط الغير، أو بالاعتبار بين الأمرين.

قال الغزالى فى الإحياء: مراتب العلم إما محمودة.. وإما مذمومة.

فالمحمودة: هى العلوم الشرعية.. والمذمومة: هى العلوم العارضة كعلم السحر، والفلسفات وغيرهما.

أما المحمودة، فلها فروع وأصول ومقدمات، وهى أربعة:

الأول: الكتاب والسنة، وإجماع الأمة، وآثار الصحابة (يعنى القياس).

الثانى: الفروع.. وهى ما فهم من هذه الأصول.

الثالث: المقدمات.. كعلم اللغة والنحو، فإنهما مقدمات العلم.

الرابع: المتممات.. وذلك فى علم القرآن.

من رباعيات العلم:

• قال أرباب الأصول: أصول الدين أربعة: الكتاب.. والسنة.. والقياس.. وإجماع الأمة والعزيمة بها.

• العبادات أربعة أيضًا: فرض.. وواجب.. وسنة.. ونفل (فى كتاب المغنى).

• أقسام المجاز أربعة؛ لأن طرفيه إما حقيقتان (نحو أنبت الربيع البقل) أو مجازان (نحو أحيا الأرض شباب الزمان) أو مختلفان (نحو أنبت البقل

شباب الزمان وأحيا الأرض الربيع) جاء ذلك فى المغنى وكذا التلميص.

• قال صاحب المغنى: الرخصة أربعة أنواع فى العبادات والعبادات: اثنان فى الحقيقة.. واثنان معتبر بالمجاز.

• كذا فى المغنى: أصول وجوه النظم أربعة:

الأول: الخاص.. والثانى: العام.. والثالث: المشترك.. والرابع: المأول.

• وجوه البيان فى الأصول أربعة:

الأول: الظاهر.. والثانى: المفسر.. والثالث: الحكم.. والرابع: النص.

— أما وجوه استعمال النظم فهى أربعة:

الحقيقة.. والمجاز.. والصريح.. والكتابة.

• وجوه الوقوف على أحكام النظم أربعة:

الأول: الاستدلال بعبارة النص. والثانى: الإشارة به.

والثالث: الاستدلال بدلالته. والرابع: الاستدلال باقتضائه.

كذا جاء فى المغنى.

• قال صاحب المغنى فى الأصول: الحجة نوعان: موجبة، ومجوزة.

— فالموجبة أربعة:

الأول: كتاب الله تعالى وقول الرسول ﷺ.

الثانى: قول المتواتر عنه.

الثالث: الإجماع.

الرابع: السماع منه.

— والمجوزة أربعة:



الأول: العام المخصوص. والثاني: الآية المأولة.

والثالث: غير الواحد. والرابع: القياس.

ومن أراد تفاصيل أحوال هذه الأصول المذكورة، فليطلب ذلك في كتب الأصول.

أنواع السنة:

قال المغني: السنة نوعان: مرسل ومسند.

فالمرسل: محمول على السماع.. والمسند على أربعة أقسام:

الأول: التواتر.. وهو يرويه قوم لا يحصى عددهم، ولا يتوهم تواطؤهم على الكذب.

الثاني: خبر الواحد.

الثالث: المشهور.

الرابع: المتفق عليه عند العلماء.

ويشترط في الخبر أربعة:

الإسلام.. والعدالة.. والعقل.. والضبط والنسخ بوجوه، وهي أربعة:

الأول: نسخ الحكم والتلاوة. والثاني: نسخه دون التلاوة.

والثالث: نسخه دون الحكم. والرابع: نسخ وصف الحكم.

والحكم له أربع مراتب:

الأولى: الورع الذي يشترط في عدالة الشهادة.

الثانية: ورع الصالحين، وهو التوقي من الشبهات التي فيها الاحتمالات، كما جاء في الحديث: «دع ما يريك إلا ما لا

يريبك»<sup>(١)</sup>.. وقيل: «الإثم جواز القلوب».

الثالثة: ورع المتميز، وهو ترك الحلال المحض الذى يخاف منه، كما جاء فى الحديث: «لا يكون الرجل متميزاً حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس»<sup>(٢)</sup>.

الرابعة: ورع الصديقين، وهو الإعراض عما سوى الله تعالى، خوفاً من صرف ساعة من العمر، فيما لا يفيد زيادة قرب عند الله تعالى.

### مراتب الخواطر:

قال فى العوارف: الخواطر أربعة:

الأول: خاطر من النفس.. والثانى: خاطر من الحق.. والثالث: خاطر من الشيطان.. والرابع: خاطر من الملك.

وقال (رحمه الله) فى موضع آخر، الخواطر أربعة، لا خامس لها: الأول: ضعف اليقين.

والثانى: قلة معرفة صفات النفس وأخلاقها.

والثالث: متابعة الهوى.

والرابع: محبة الدنيا (جاهها ومالها) وطلب الرفعة والمنزلة عند الناس.

### أحوال العلم مع العلماء:

لما كان فى المال أربعة أحوال للإنسان: حال استفادة فيكون

(١) عن الحسن بن على، رضى الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة»، سنن الترمذى.

(٢) عن عطية السعدى، وكان من أصحاب النبى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس»، سنن ابن ماجه.

مكتسباً.. وحال ادخار لما اكتسبه، فيكون به غنياً عن السؤال.. وحال إنفاق على نفسه، فيكون به منتفعاً.. وحال بذله لغيره، فيكون به سخياً متفضلاً، وذلك أشرف أحواله.

كذلك العلم يقتنى كالمال: فله حال طلب واكتساب.. وحال تحصيل يغنى عن السؤال.. وحال استبصار وهو التفكير فى المحصل والتمتع به.. وحال تبصير وهو أشرف الأحوال.

وقال بعض العلماء: الرجال أربعة:

- رجل يدرى، ولا يدرى أنه يدرى.. فذلك نائم فأيقظوه.
  - ورجل يدرى، ويدرى أنه يدرى.. فذلك عالم فاتبعوه.
  - ورجل لا يدرى، ويدرى أنه لا يدرى.. فذلك مسترشد فعلموه.
  - ورجل لا يدرى، ولا يدرى أنه لا يدرى، فذلك جاهل فافضوه.
- عجبت بمبتاع الضلالة بالهدى ومن يشترى دنياه بالدين أعجب  
وعن النبى ﷺ: «إن العالم ليعذب عذاباً لا يطيق به أهل النار  
استعظماً لشدة عذابه»<sup>(١)</sup>، أراد به العالم الفاجر.

وقال أسامة بن زيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يؤتى بالعالم يوم القيامة فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان، ما لك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت أمر بالخير ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية»<sup>(٢)</sup>.. لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الْتَائِبِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

(١) لم نجده.

(٢) عن أسامة بن زيد، صحيح مسلم، حديث رقم ٥٣٠٥.

كذا فى إحياء علوم الدين للغزالي، رحمه الله: وردت فى مراتب العلم، آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، ومن قصد الله بالعلم (أى علم) كان نفعه ورفعته لا محالة.

والمراد من المراتب والدرجات، والسر والحكمة فيها: كى يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره.

### وأما آثار العلم فأربعة:

الأولى: فى حق علماء السوء.. ونعنى بهم العلماء الذين قصدهم بالعلم التنعم فى الدنيا، والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند الخلق.

جاء فى الحديث: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»<sup>(١)</sup>.. وقال: «لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً»<sup>(٢)</sup>.

وعن عمر، رضى الله عنه: «أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان»<sup>(٣)</sup>.

وإننا نرى بعض العلماء فى زماننا يدعو الظالم ويمدحه ويشنى عليه ويصدق مقاله، فذلك ممنوع عند الشرع.. قال رسول الله ﷺ: «من دعا

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة مرفوعاً، باب فى نشر العلم

٢٨٤/٢، ٢٨٥، طبعة دار الكتب العلمية بيروت، لسنة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م،

بتحقيق أبى هاجر محمد السعيد بن بسيونى زغلول.

(٢) أخرجه الدارمى فى سننه عن أبى الدرداء موقوفاً، بلفظ: «ولا تكون بالعلم عالماً، حتى تكون به عاملاً».

سنن الدارمى (١/١٠٠)، طبعة دار الكتاب العربى.

(٣) مسند أحمد برواية عمر، رضى الله عنه.

لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يعصى الله في أرضه»<sup>(١)</sup>، و«إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق والظالم»<sup>(٢)</sup>.

وفى خير آخر: «من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام، ومن أعان على المعصية بالتزكية والثناء فهو شريك لفاعلها»<sup>(٣)</sup>.

وقال صاحب الإحياء: المعاملة مع قضاة زماننا حرام.. وبالجملة إنما فساد الرعية بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء.. ولولا القضاة السوء، والعلماء السوء، لقل فساد الملوك خوفاً من إنكارهم.

وتقبيل يد الظالم، وسائر الأعمال، فغير جائز إلا عند خوف، أو لإمام عادل، أو لعالم، أو لمن يستحق ذلك (لا لدنية) فذلك أربعة.

ولا يجوز الجلوس على بساطهم، والأكل من طعامهم؛ لأن جميع ما فى أيديهم حرام، والسكوت على ذلك غير جائز، فيجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الثانية: تفاوت العلماء فى المراتب، فتتصاعد درجات السعداء، بحسب تفاوت المعرفة والإيمان، كما تتفاوت درجات الأغنياء، بحسب قلة المال وكثرته.

وبعض السعادات أشرف من بعض، وكما أنه لا غنى إلا بالمال الكثير، لا بالدرهم القليل، كذلك العلماء.. قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وفسر ابن عباس، رضى الله عنه، هذه الآية: برفع العالم فوق المؤمن بسبعمئة

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٩٤٣٢)، من قول الحسن البصرى.

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٤٨٨٥)، من حديث أنس مرفوعاً.

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الحفاء (٢٤٧٤)، فى أثناء كلامه على حديث: «من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام» قال: أورده الغزالي، بلفظ: «من أكرم فاسقاً بدل من وقر صاحب بدعة».

درجة، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض.

وعن النبي ﷺ: «أكثر أهل الجنة البله، وعليون لذوى الألباب، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب»<sup>(١)</sup>.

**الثالثة:** أهل العلم والمغترون منهم فرق كثيرة.. فمنهم فرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي، واغترؤوا بعلمهم، وظنوا أنهم عند الله بكمال، وظنوا أنهم لا يعذبون لكرامة علمهم.. وهم مغرورون، ولم يعلموا أن العلم مثل الدواء، يداوى به حذاق الأطباء القلوب.

فهكذا الفقيه الذى أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق المذمومة، وما زكى نفسه منها، فهو مغرور، إذا قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا﴾ [الشمس: ٩]، ولم يقل: قد أفلح من تعلم كيفية تركيتها وكتب علمها وعلمها الناس.. وعند هذا يلقي الشيطان فى قلبه أنواع المكائد والوساوس، ويتلو عليه الآيات والأخبار الواردة فى فضائل العلم.. فإن كان المسكن مفتوناً مغروراً، وافق ذلك هواه وأهمل العمل.. وإن كان كيساً فيقول للشيطان: أتذكر فضائل العلم، وتنسى ما ورد فى العالم الفاجر، الذى لا يعمل بعلمه كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَبِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ [الجمعة: ٥].

كما يفهم من أحاديث النبي ﷺ، أن شر الناس: العلماء السوء.

**الرابعة:** أحكموا العلم والعمل، فواظبوا على الطاعات الظاهرة، وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم، ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله تعالى: من الكبر، والحسد، والرياء، وطلب الرياسة

(١) عن أبى الدرداء، سنن الترمذى.

والعلو، وإرادة السوء للأقران، وطلب الدنيا، وجلب الأموال من النفقة وغيرها.. ولم يتفكر قوله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم إنما ينظر إلى قلوبكم، وأشار بأصابعه إلى صدره»<sup>(١)</sup>، والقلب هو الأصل، فلا ينحو إلا من أتى الله بقلب سليم.

### مراتب العلماء:

إن فرق العلماء والمشايع كثيرة لا يحصى عددهم، ومع كثرة فرقهم ترتقى إلى أربعين فرقة:

— منهم من يدخل على السلطان، أو إلى بعض أعوان السلطان وخدامه، ويتودد إليهم ويثنى عليهم، إنما ذلك لأجل الطمع فى مالههم.. فأما أنت: فغرضك أن تنتفع للمسلمين، وتدفع الضرر عنهم، وتدفع شر أعدائك عن نفسك.

● **وفرقة أخرى** تأخذ من مال السلطان، وتقول له نفسه عند ذلك: هذا المال ليس للسلطان، وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمامهم تستحق ذلك، أفلا يجوز أن تأخذ قدر حاجتك؟ فيغتر بهذا التلبس.

● **وفريق آخر:** أحكموا العلوم، وطهروا الجوارح، وزينوها بالطاعات، ولكنهم مغرورون إذ بقيت فى زوايا القلب من خفايا مكائد الشيطان، وخفايا خداع ما دق إدراكه، فيغتر بإصلاح ظاهره بزعمه.

● **وفريق آخر:** يسهر ليله ونهاره فى جمع العلوم وترتيبها، ولعل باعته الخفى هو طلب الذكر، وانتشار الصيت فى أطراف البلاد، وكثرة الرحلة إليه فى أنحائها، والثناء والمدح من الناس عليه، ويريد انتشار الزهد والورع فى حقه، والاجتماع حوله، والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ، والتمتع بتحريك الرعوس، على كلامه، والفرح بكثرة الأصحاب، والسرور بالتخصيص بهذه الخاصية بين سائر الأقران، لا عن

(١) عن أبى هريرة، رضى الله عنه، صحيح مسلم، حديث رقم (٤٦٥٠).

تبحر بمعصية الدين واعتداد بالتخصيص.. ولعل هذا المسكين المغرور قد تكون حياته في المعاصي بما انتظم له من أمر وإمارة، وعز وانقياد، وتوفير وحسن ثناء، فهو لا يعلم أن هذه الأفعال من مكائد الشيطان.

● وفريق آخر: فلعل ذلك لتقدم في الفضل والورع على أقرانه بالرياسة، ولعلمهم يستفيدون منه ويرغبون في العمل معه، وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقة، ومرتبته عند الله تعالى، ومنزلته عند العلماء والمشايخ بحق علمه.. فيحمد على ما جرى على لسانه من المنافع للناس.

● وفريق آخر: يفرح إن كان أتباعه أكثر، وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع، ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإفادة، تغاير وتحاسد.. ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره، ثقل على قلبه، ووجد في نفسه نفرة منه.

● وفريق آخر: يعرف عيوب نفسه، ويسوؤه ذلك ويكرهه، ويحرص على إصلاحه.. فإذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، ومن سرته حسناته، وساءته سيئاته فهو مرجو الحال، وأمره أقرب من المعذور المزكى لنفسه.

● وفريق آخر: يستعيز في أكثر الأحوال فيقول: نعوذ بالله من الغفلة والاعتقار، ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال.

● وفريق آخر: قنع في اللباس وفي العلوم بما لا يهمه، وترك المهم، وهو به مغرور.

● وفريق آخر: اقتصروا على علم الفتاوى في المعاملات الجارية بين الخلق بمصالح المعاش، وسموه علم المذاهب، وربما ضيقوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة، ولم يتفقدوا الجوارح، ولم يحرسوا اللسان والبطن عن الغيبة والحرام، والرجل عن المشي إلى السلاطين والقضاة، والقلب عن الرياسة، والكبر، والحسد، والرياء.. وأما بزعمه: يظن أنه يراى منه ذلك كله.



• وفريق آخر: منهم من تفقه، ولم يعلم ذلك المسكين الفقيه: أنه قد تسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد، وسائر المهلكات الباطنة.. وربما يتلقى الموت قبل التوبة، فيلقى الله عزَّ وجلَّ وهو عليه غضبان.

• وفريق آخر: منهم من ترك إصلاح أحوال القلب من المهلكات، واشتغل بعلم الدعاوى والديّات، وسائر المعاملات، وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره، إذ يظن المغرور بنفسه: أنه مشغول بإصلاح دينه، ولا يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية، قبل الفراغ من فرض العين معصية.. فهذا غروره من حيث العمل، وترك علم تهذيب الأخلاق، وترك العظة عن الله، بإدراك جلاله وعظمته، وهو العلم السدى يورث الخوف والهيبة والخشوع.

• وفريق آخر: منهم من اقتصر في علم الفقه على الخلافات، ولم يهमे إلا تعلم طريق المجاهدة في المحادة والإلزام وإفحام الخصوم.. وهو طول الليل والنهار في التفتيش والتفقد بعيوب الناس من الأقران، والاشتغال بما ليس من فروض الكفاية.. وهذا أيضًا ممنوع بالنص.

• وفريق آخر: اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء، والرد على المخالفين، وتفرقوا في ذلك فرقا كثيرة، لو ذكرناها لطلال الكتاب، ومن أراد تفاصيلها فعليه بمطالعة إحياء العلوم للغزالي، يجده في كتاب عجائب القلب.

• وفريق آخر: اشتغلوا بالوعظ، وأعلام رتبة من تكلم في أخلاق النفس، وصفات القلب: من الخوف، والرجاء، والصبر، والتوكل، والزهد، واليقين، والإخلاص، وسائر المنجيات.. وهم مغرورون؛ لأنهم يظنون بأنفسهم إذا تكلموا بهذه الصفات، فقد صاروا موصوفين بها، وهم منفكون عنها عند الله تعالى.. وغرور هؤلاء أشد الغرور؛ لأنهم معجبون بأنفسهم غاية الإعجاب.

• وفريق آخر: يظنون أنهم ما تبحروا فى علم المحبة، إلا وهم محبوبون لله، وما قدرُوا على تحقيق دقائق الإخلاص، إلا وهم مخلصون.. فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو من أمن مكر الله تعالى، ويرى أنه من الراجين وهو من المغترين.

• وفريق آخر: منهم من يرى أنه من المخلصين والمتوكلين، وهو من المرائين، بل يصف الإخلاص ويترك الإخلاص، ويصف الزهد فى الدنيا مع شدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها.

• وفريق آخر: منهم من لو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه، وصلحوا على يديه، لمات غمًا وحسدًا.. ولو أثنى أحد من المترددين إليه على أقرانه، لكان أبغض خلق الله إليه.. فهو أعظم الناس عزة، وأبعدهم عن السداد، فهذا غاية حال الوعاظ الذين لا عيب فى كلامهم.

• وفريق آخر: عدلوا عن المنهاج الواجب فى الوعظ، وهم وعاظ أهل الزمان كافة، إلا من عصمه الله تعالى، واشتغلوا بالطامات والسطح، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع طالبًا للفت الأنظار.

• وفريق آخر: اشتغلوا بعبارات النكتة، وتهذيب الألفاظ وتلفيقها.. فهؤلاء شياطين الإنس، ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، فإن الأولين إن لم يصلحوا أنفسهم، فقد أصلحوا غيرهم وصححو وعظهم.. أما هؤلاء فإنهم يصدون عن سبيل الله، ويجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء، فيزيد كلامهم جرأة على المعاصى.

• وفريق آخر: قنعوا بحفظ كلام عن الزهاد، وفى ذم الدنيا.. فبعضهم يفعل ذلك فى المنابر والكرسى، وبعضهم فى البيوت والأسواق، ويظن أنه قد أفلح ونال الغرض، وصار مغفورًا له من عذاب الله تعالى، من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام.. وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم.

• وفريق آخر: استغرقوا أوقاتهم فى علم الأحاديث، وطلب الأسانيد الغريبة، فهمة أحدهم أن يدور فى البلاد، ويرى العلماء، ليقول: أنا عالم علم الحديث، وأحفظ أسانيد الأحاديث وأعرف مراتب الروايات، ولم يعلم أنه كحملة الأسفار؛ لأنه لا يصرف العناية إلى فهم معانى السنة، فعلمه قاصر، وليس معه إلا النقل، ويظن أن ذلك يكفيه.

• وفريق آخر: اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر، واغترؤا به، وزعموا أنهم من علماء الأمة، إذ قوام الدين بالكتاب والسنة، وقوام الكتاب والسنة بعلم النحو واللغة، فأفنى هؤلاء أعمارهم فى دقائق النحويين، وهم مغرورون بإهمال ما هو أهم مقاصدهم، وهو تصفية القلب، وتركية النفس، وخدمة الشيخ الكامل العالم العامل.

### أنواع الغرور فى العبادة والعمل:

اعلم أن أبواب العبادة والعمل يدخلهم الغرور من نواحي متعددة: منهم من غروره فى الصلاة.. ومنهم من غروره فى الحج والتوكل.. ومنهم من غروره فى الغزو، ومنهم من غروره فى الزهد، وليس خاليا عن الغرور إلا الأكياس.

أما من غروره فى الصلاة: فمنهم فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل، وربما تعمقوا فى الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف.. ومن هؤلاء من يخرج عليه الوسوسة فى نية الصلاة، ولا يحضرون قلوبهم، ولا يقضون الغائبة من الصلاة، ومع ذلك يشتغلون بالنوافل فى الصلاة ولا يتركونها، ولم يفهموا أن أداء الفرائض أفضل وأكاد من النوافل.

• وفريق آخر: منهم من اغتر بقراءة القرآن، ولا يفهم معانى القرآن.. ومثاله عبد كتب إليه مالكة كتاباً، وأشار فيه إليه بالأوامر والنواهي، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، ولكن اقتصر على

حفظه، وقراءته كل يوم مائة مرة، فهو مستحق للعقوبة، وهو مغرور بترك العمل، وعدم تفقده لمضمون الكتاب، وهو العمل بما فيه من الأمر والنهي.

**بالنسبة للغرور في الحج:** فهم يخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم، وأداء الدين، واسترضاء الوالدين، وطلب الزاد الحلال، ويضيعون في الطريق الصلاة وسائر الفرائض، وربما جمع بعضهم الحرام وأنفق على الرفقاء في الطريق، وهو يطلب به السمعة والرياء.. وبذلك فهو يعصى الله تعالى بكسب الحرام، ثم إنفاقه على وجه الرياء، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذميم الصفات، وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه، فهو مغرور تابع برأيه لا بالكتاب.

**بالنسبة للغرور في الصيام:** فمنهم من اغتر بالصوم، وربما صام الدهر، أو صام الأيام الشريفة، وهو فيها لا يحفظ لسانه من الغيبة، وخواطره من الرياء، وبطنه من الحرام عند الإفطار، ولسانه من الهذيان.. وهو يظن بنفسه الخير، ويهمل الفرض، ويطلب النفل، وذلك غاية الغرور.

**الغرور في ادعاء الزهد:** هناك البعض زهد في الدنيا، وقنع من اللباس والطعام بالدون، وظن أنه أدرك رتبة الزهاد.. وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه، إما بالعلم أو بالوعظ، أو بمجرد الزهد.. فقد ترك أهون الأمور، وبادر بأعظم المهلكين، وهذا مغرور إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا، فهو لم يفهم معنى الدنيا، ولم يدر أن منتهى لذاتها الرياسة، وأن الراغب فيها لا بد أن يكون منافقاً، وحسوداً، ومتكبراً، ومرائياً.

• ومنهم فريق آخر: يهتم البعض بترك الرئاسة، ويؤثر الخلوة والعزلة.. وهو مغرور، إذ يتناول بذلك على الأغنياء، ويخشى الكلام

معه، وينظر إليهم بعين الاحتقار، ويعجب بعمله، رغم أنه يتصف بجملة خيائت القلوب وهو لا يدري.. وربما يعطى المال، فلا يأخذ من بعض، ويأخذ من آخر (من تبعه من المريدين) خيفة أن يقال بطل زهده.

• وفريق آخر: منهم من هو راغب فى حمد الناس، وهو من ألد أبواب الدنيا، ويرى نفسه أنه زاهد فى الدنيا.. وهو مع ذلك مغرور، فهو لا يخلو عن توقير الأغنياء، وتقديهم على الفقراء، والميل إلى المريدين له.. وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان.

• وفريق آخر: بعض العباد يشدد على نفسه فى أعمال الجوارح، حتى يصلى فى اليوم واليلة مثلاً ألف ركعة، أو مائة ركعة، ويختم القرآن.. وهو فى جميع ذلك كله لا يخطر له فراغ القلب وتطهيره من الرياء والكبر والعجب، وسائر المهلكات، فهو لا يدري أن ذلك مهلك.

• وفريق آخر: منهم من يظن أن العبادة الظاهرة يترجح بها كفة حسناته.. وهيهات هيهات.. فذرة من ذى تقوى، وخلق واحد من أخلاق الأكياس، أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح.. ثم لا يخلو هذا المغرور مع الناس من سوء خلقه وخشونته، وتلوث باطنه بالرياء وحب الثناء، فإذا قيل له: أنت من أوتاد الأرض، وأولياء الله وأحبابه، فرح المغرور وصدق به، وزاده ذلك غروراً.

• وفريق آخر: يظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضياً عند الله تعالى، ولا يدري أن ذلك يجهل الناس بخيائت باطنه.

• وفريق آخر: حرص على النوافل، ولم يعظم اعتدادها بالفرائض.. تراه يفرح بصلاة الضحى، وصلاة الليل، ولا يجد للفريضة لذة، ولا يشد حرصه على المبادرة بها أول الوقت، وينسى قول رسول الله ﷺ

عن رب العزة: «ما تقرب المتقربون إلى، بمثل أداء ما افترضت عليهم»<sup>(١)</sup>، ونظائر ذلك أكثر من أن يحصى.

### مظاهر الغرور فى متصوفة هذا الزمان:

اعلم أن متصوفة هذا الزمان غلب الغرور عليهم، والمغترون منهم فرق كثيرة إلا من عصمه الله تعالى:

- فرقة منهم اغتروا بالزى والمنطق والهيئة، فساعدوا الصادقين من الصوفية فى زيههم وهيتاتهم وفى ألفاظهم وآدابهم، وأحوالهم الظاهرة فى السماع والرقص والطهارة والصلاة، والجلوس على السجادة مع إطراق الرأس.. إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات.

- وفرقة أخرى لم يتعبوا أنفسهم قط فى المجاهدات والرياضات، ومراقبة القلب، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجليّة، وكل ذلك من أوائل حال الصوفية.. وهذه الفرقة لم يتعهدوا هذه الخصال الحمودة، ولم يتعبوا ذواتهم وأنفسهم بها، بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين، ويأكلون طعام الظلمة، ويتحاسدون على النقيير والقطمير، ويمزق بعضهم أعراض بعض، وهؤلاء غرورهم ظاهر.

- وفرقة أخرى: زادت على هؤلاء فى الغرور، بلبس المرقعات النفيسة، والكتب المصبوغة، فهؤلاء أظهر حماقة من المغرورين، فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة، ويطلبون رغد العيش، ويأكلون أموال السلاطين، ولا يجتنبون المعاصى الظاهرة، فضلا عن الباطنة، ومع ذلك يظنون بأنفسهم الخير.

وشر هذه الطائفة مما يتوارى عن الخلق، إذ يهلك من يقتدى بهم،

(١) أخرجه البخارى (٦٥٠٢)، ٨١ - كتاب الرقاق، ٣٨ - باب التواضع من حديث أبى هريرة مرفوعاً، وأوله: «إن الله قال: من عادى لى ولياً»، وفيه: «ما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما افترضه عليه».

ومن لا يقتدى بهم يشكك في عقيدتهم من أهل التصوف كافة، ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه، فيطول اللسان في الصادقين منهم، قياساً على الفاسدين.

- وفرقة أخرى: ادّعت علم المعرفة ومشاهدة الحق، ومحاوره المقامات والأحوال والوصول إلى القرب.. ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ، ويردد على اللسان هذه الكلمات، حتى يظنوه على درجة عليا في علم الأولين والآخرين.

وهو ينظر إلى المفسرين والمحدثين والفقهاء بعين الإزدراء والحقارة، حتى أن الفلاح ليترك فلاحته، والحائك يترك حياكته، ويلزمه أياماً معدودة، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزخرفات، يرددها كأنه يتكلم في الوحي، ويخبر عن سر الأسرار، ويستحق بذلك جميع العباد والعلماء.

- وفريق آخر: يقولون إن العلماء محجوبون في الحديث عن الله تعالى، وبدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق، وأنه من المقربين، وهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين، ولم يحكم قط علماً، ولم يهذب خلقاً، ولم يرتب علماً، ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى.

- وفرقة أخرى: وقعت في الإباحة، ورفضوا الفصل بين الحلال والحرام، وبعضهم يزعم أن الله مستغنى عن علمي، فلم أتعب نفسي، وبعضهم يقول: قد كلف الناس، بتطهير القلب عن الشهوات وعن حب الدنيا.. وذلك محال، وإنما يفتره من لم يجرب، وأما نحن فقد جربنا، وأدركنا أن ذلك محال، ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب في أصلهما، بل تأديبهما بحيث ينقادا لحكم العقل والشرع.

- وفريق آخر: يقول الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وإنما النظر إلى

القلوب، وقلوبنا والهة بحب الله، وواصله إلى معرفة الله، وإنما نخوض الدنيا بأبداننا، وقلوبنا فى الحضرة الربوبية، فنحنى مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب والخواطر، ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية.. ولم يعلموا أنهم يرفعون درجة أنفسهم عن درجة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، حيث كانوا لو صدر منهم خطيئة واحدة، سيكون عليها سنين طوال.

### أصناف غرور أهل الإباحة:

وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى.. وسبب كل ذلك لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، ومن غير اقتداء بشيخ متقن فى الدين والعلم، صالح للاقتداء، غير مرئى.. والحاصل إحصاء أصنافهم يطول:

• فمنهم فرقة: جاوزت حد هؤلاء، وأحسن الأعمال، وطلبت الحلال، واشتغلت بتفقه القلب، وصار أحدهم يدعى المقامات فى الزهد والتوكل والرضا، من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلامتها وآفاتنا.

• ومنهم من يدعى الوجد والحب قبل معرفته وقبل أوانه، ويترك بعض الأمور حياءً من الخلق، ولو أحب حقاً، لما ترك حياء من الله تعالى.. وكل ذلك يناقض الحب.

• ومنهم من أجل أمر الحلال فى مطعمه ومشربه وملبسه ومسكنه، ولا يدرى المسكين أن الله لم يرض بطلب الحلال فقط، ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصى، فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجيه، فهو مغرور.

• ومن هذه الفرقة: من ادعى حسن الخلق والتواضع والسماحة، فتصدى لخدمة الصوفية، فجمع قومًا، وتكفل بخدمتهم، واتخذ ذلك



شبكة للرياسة وجمع المال، وغرضه الإرفاق، وهو غرضه الاستتباع.. ثم أنه يجمع من الحرام والشبهات، وينفق على المردة وعلى سائر التوابع، ليكثر أتباعه وينتشر اسمه بالخدمة بين الناس.

● وبعضهم يأخذ أموال السلاطين وينفق عليهم، ويزعم أن غرضه الانفاق والإرفاق، وباعث جميعهم الرياء والسمعة وآية ذلك: إهمالهم جميع أوامر الله تعالى عليهم، خصوصاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ظاهراً وباطناً.. ورضاهم بأخذ الحرام، والإنفاق منه.. وكل ذلك يصيب السالك بها تأخر في سلوكه بسبب حمقه وقلة عقله، كما روى عن أبي الدرداء، رضى الله عنه: «أنه قيل يا رسول الله! أرايت الرجل يصوم النهار، ويقوم الليل، ويحج ويعتمر ويتصدق، ويغزو في سبيل الله، ويعود المريض، ويشيع الجنائز، ويعين الضعيف، ما يعلم منزلته عند الله تعالى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ: إنما يجزى على قدر عقله»<sup>(١)</sup>.

وقال أنس، رضى الله عنه: «أثنى على رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا: خيراً، فقال الرسول الأكرم ﷺ: كيف عقله؟ قالوا: نقول من عبادته وفضله وخلقه، فقال ﷺ: كيف عقله؟ فإن الأحق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنما يقرب الناس على قدر عقولهم»<sup>(٢)</sup>.

وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار لا تحصى، وأعدادهم خارجة عن الحصر.. وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير، وما ذكر في هذا المختصر كفاية لك ومقتع إن شاء الله تعالى.

(١) لم نجد، والذي وجدناه من حديث ابن عمر بلفظ مقارب وهو: «إن الرجل ليكون من أهل الجهاد، ومن أهل الصلاة والصيام، ومن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وما يجزى يوم القيامة أجره إلا على قدر عقله».

أخرجه الخطيب في تاريخه (٧٩/١٣، ٨٠)، مرفوعاً، ونقل الخطيب عن ابن معين قوله: هذا حديث باطل.

(٢) ذكره القارى في كتاب: «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع»، رقم (٤٥٦)، ص (٢٥٦).

## خاتمة الخاتمة:

فى حكم سب العلماء ومستخفيهم ومتقضيهم بالعيب وبالتعريض فى حقهم، وهم على أربعة أقسام:

الأول: وقع عن قصد، وهذا يوجب الكفر باتفاق الأئمة.

والثانى: لا عن قصد، بل وقع سهواً، وذلك معفو عنه، وحكمه التعزير عند المشايخ.

والثالث: ما وقع بطريق التشبيه والتشبه بالفقه، وغيرهم من العوام الخرفة.. وهذا حكمه: ضيف على قائله الكفر، وإن وقع التشبيه والتشبه بالكفار حكمه الكفر لاستهزائه بالدين.

والرابع: صدر لا عن قصد، ولكن وقع بسبب جهله وحمقه، وهذا يوجب التعزير بالضرب الشديد.. وبالإصرار فى الكل يكفر، كما نشرحه فيما يلى:

قال فى الخلاصة: من نقض عالماً خيف عليه الكفر، ولو سأل عالماً بطريق الاستهزاء فى جماعة، وهم يضحكون، يكفرون جميعاً.. والتشبيه بالعلماء إلى الأدنى والأراذل والفساق كفر على طريق السحر كذلك.. أو قال رجل: «من يقدر على أداء ما يقولون».. أو ألقى الفتوى على الأرض يكفر.. أو قال لعالم أو فقيه، أى لفظ استهزاء بالعلماء فى أدب الخطاب، أو دعاه باسمه فقط استحقاراً وإهانة له يكفر القائل والمستمع إذا سكت على ذلك؛ لأن الاستخفاف والاستحقار بالعلماء كفر عند جميع العلماء.. أو قال فعل عالم فعل كافر يكفر.

وقيل: تقبيل يد العلماء جائز ليس بكفر.. ومن غير العلماء خيف عليه الكفر.

وداع ودعاء من كاتب المخطوط:

لقد حررنا هذه الرسالة لما رأيت أكثر عصرنا من العلماء من أرباب

السلوك حالياً يعانون من قصور فى علم المراتب.. وقد حررتها على نهج الأصول والراتب، بطريق الاختصار، احترازاً من التطويل، وتحصيلاً للمرام فى علم التأويل، وهو المطلوب من المراتب فى التثليث والتزييع والتخميس، وقد وجدت مفروغاً منها فى كتب العلماء من المتأخرين، وقد كنت متخصصاً بين الأقران فى هذه الأعصار فى تحرير المراتب التزييعية على لسان العلماء الجامعين بين العلم والمعرفة، كما سبق بقرائه فى صدر الكتاب، فى مواضع متعددة، ما سبقنى فى هذا الفن سابق.

وهذا القدر التى حررت فى هذه الرسالة، تحت أسرار التزييع مندرجة، ورموزنا مكنونة فيه ومنشورة على طريق الحصر والإيجاز.. والعارف تكفيه الإشارة كما قيل.. وكم من عاقل كيس ينال من العلم القليل ما لا يدركه الجاهل البليد فى جميع عشر عشره.. وكذا قيل: يفهم الفاهم بشاهد ما لا يفهم البليد بألف شاهد.. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فعليك أيها الطالب الصدق بالمطالعة بهذا الوجيز، وتأمل تأمل منصف غير متعسف حسود، لتصل إلى غرائب الأصول فى التزييع، وأن تعلم أنى ما كتبت لك ما فى هذا المسطور واهباً ناصحاً، بل مستفيداً طالباً، ومقصودى من هذه السطور عرض الحال على ذوى الفهم الذكى.

وأسأل الله التوفيق لى ولسائر الطالبين، والصون عن الأغيار.. فانظر يا أحنى بالإنصاف، وتأمل بقلب صاف ويقين ثابت.

والسلام على وعلى جميع أهل الله تعالى وخاصته، ورحمة الله وبركاته.

وقد أتممت هذه الرسالة التزييعية فى شهر شعبان يوم الثلاثاء سنة إحدى وخمسين وألف.. وتيسر الختم بحمد الله تعالى وكرمه، وله المنه

فى ذلك.. والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم.. وبارك على عدد المخلوقات فى الأرض والسموات.. اللهم ارض عنا وعن الديننا، وعن أساتذتنا، وعن جميع المؤمنين والمؤمنات، بحرمة أشرف الموجودات، عليه أكمل الصلوات وأفضل التسليمات.

### كلمة مسجل المخطوط:

وافق الفراغ من إعادة كتابته كمخطوط يحفظ فى مكتبة السلمانية باستانبول بتركيا، فى اليوم الثانى من شهر صفر لسنة إحدى وستين بعد الألف على يد أضعف عباد الله الملك الرزاق «الحاج مصطفى بن طوارق، غفر الله له ولكل المسلمين والمسلمات أجمعين.. ونقلت من نسخة كتبت بخط المؤلف بإجازة منه، وهو من العلماء الراسخين شيخ الشيوخ: الشيخ إبراهيم البثوى ابن الشيخ على أفندى، قدس الله سره العزيز.

اللهم انفعنا من علومهم، ورضى الله عنهم، وعن سائر العالمين العاملين الواصلين إلى درجات الولاية العليا.. واحشرونا مع ذويهم بحرمة سيد الورى، وسيد الكونين، ورسول الثقلين، وشفيع من فى الدارين، وجد السبطين، مهبط جبريل الأمين، محمد حبيب الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

\* \* \*

عرفان ووفاء  
من محقق الكتاب

ما إن انتهيت من آخر كلمات ذلك المخطوط القوي، حتى عجزت عن  
قلبي يجيش بكل مشاعر العرفان والوفاء اللامتناهية.. وتساءلت بيني  
وأول نفسي: إلى من أتوجه بتلك المشاعر؟ فهي كالبشوع الذي يتفجر  
في اتجاهات متعددة..

• فبعضها يتوجه لصاحب المخطوط الذي كسبه عن علم ودراسة لا  
تنع إلى من ولي عارف بالله حق المعرفة، فهو قطب زمانه، وفقه عصره  
وأوانه: الشيخ إبراهيم البنوي، رضي الله عنه وأرضاه؟ فهو بحق قد  
أمتعنا وأفادنا بعلمه الفياض.. وإذا كان بعض ذلك العلم صعب المذاق،  
إلا على أولى البصائر والإبصار، إلا أنه بلا شك قد فتح أمام وجداننا  
نافذة ممتدة الأفاق على محكم الله الصرمدي، والذي يغترف منه العلماء ما  
يشتهون من العلم الإغراق.. وقد أثبت لنا بالبرهان القملي كيف أن القرآن  
يعين لا ينضب بتميز بالثراء، بحيث يمد العلماء بمدد لا ينقطع من كنوز  
المعاني على أحر العصور والأجيال.

• ثم تتوجه مشاعر الامتنان هذه إلى أستاذنا العارف بالله العالم  
القدير فضيلة الدكتور حسن عباس زكي، شكرًا وتقديرًا له على سعيه  
الدءوب في جمع جواهر العلم من مخطوطات العلماء الأولياء في كل  
زمان ومكان، وإحياء ما يكاد يندثر منها، إيمانًا منه بأهمية المعرفة في  
صقل القلوب، وإعدادها لاستقبال تجليات الحق، على طريق العراج  
النوراني.. ليس ذلك فقط، بل إنه يساعد في نشر تلك المعرفة بكل ما  
يملك من مقومات الحياة، فدوره في تقديم هذا المخطوط للأمة  
الإسلامية يشمل عدة اتجاهات:

— بذل الجهد والمال في الحصول عليه من مكتبة استانبول بتركيا، رغم ما واجهه في سبيل ذلك من صعوبات.

— بذل الجهد في مساعدتي على فهم معانيه، وتوضيح ما غمض من الخط في الكلمات، حيث يتميز الخط ببعض الصعوبة.. ولولا جهده ومثابرته وصبره على قصور فهمي، ما ظهر المخطوط في صورته الحالية؛ لأن البحر عميق، والأمواج عالية على من كان مثلي، فهي تحتاج إلى ربان خبير، وغواص ماهر، اعتاد على السباحة في بحار الحب الإلهية، والغوص في أعماقها لالتقاط جواهرها النورانية.

— بذل المال لطباعته على نفقته الخاصة، لينتفع به كل من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

ولذلك فنحن لا نملك إلا الدعاء له بكل الحب والإخلاص: أن يجازيه الله عنا خير الجزاء، ويبارك لنا في عمره، ولا يحرمنا مدده.

• ولا يفوتني أن أتوجه بمشاعر الامتنان إلى فضيلة الأستاذ الدكتور «علي جمعة» لما قدمه لنا من خدمات في تخريج كثير من الأحاديث النبوية التي وردت في هذا المخطوط، وما كان يمكن تخريجها بالجهود الذاتية.. فهو بحق من جنود الله الذين يسعون في خدمة السنة الشريفة بكل ما وسعهم من جهد، وبكل ما يعمر قلوبهم من إخلاص.

فقد أسس مركزاً مستقلاً لتلك الخدمة الجليلة يسمى «المكنز الإسلامي» يعمل منذ خمسة عشر عاماً في دأب لا يكل، وعزيمة لا تلين، وذلك في جميع الأحاديث النبوية بمختلف الروايات وتبويبها على حسب صحتها، وذلك بأساليب التقنية الحديثة.

فاللهم وفق أصحاب القلوب النيرة وسدد خطاهم فيما عقدوا عليه العزم من إزالة ما علق بالسنة الشريفة من آثار، حتى يعود إليها وجهها المشرق الوضاء، فالسنة هي المذكرة التفصيلية لدستور القرآن العظيم،

وإعلاء شأنها معنا إحياء الدين، وفتح كنوز لا نهاية لها من أساسيات التشريع التي تلبى احتياجات المسلمين مهما تغيرت المجتمعات على مدار العوام والسنين.

● وفي النهاية أجد أن مشاعر العرفان لهؤلاء العلماء الأجلاء توجب على، وتردني تلقائياً إلى أن أحمد الملك الوهاب حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه فهو الذى يمنح من خزائن علومه الاصطفائية لمن يشاء ويصطفى من خلقه.. فهو الحكيم الخبير الذى يؤتى الحكمة من يشاء، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيراً عظيماً، ومدداً كبيراً، تفيض به قلوب العارفين على من أراد الله لهم الهداية والفهم من الأصفياء، كل ينهل من ينابيع الحكمة حسب ما أراد الله له وقدر.

ونحمد المولى عز وجل أن اصطفانا بخير دين، ببعثة المصطفى الأمين، الذى يستمد منه كل أولياء الله الصالحين مداد كلماتهم وأنوار قلوبهم.. فهو المبعوث رحمة للعالمين، والذى أنشد فيه القائلون:

أنت مصباح كل فضل      فما تصدر إلا عن ضوئك الأضواء  
كل فضل فى العالمين فمن      فضل النبى استعاره الفضلاء  
فاللهم صل وسلم على هذا الرسول الحبيب سيدنا محمد ﷺ صلاة  
تكون لك رضا، وله جزاء، ولحقه أداء.. وعلى آله الأطهار، وأصحابه  
الأبرار، وكل من اهتدى بهديه، واتبع سنته بإحسان إلى يوم الدين،  
فهؤلاء بحق منارات هدى للحيارى والتائهين وكل من ضل عن  
السيبل.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾

[الأعراف: ٤٣].

## فهرس الكتاب

- تعريف وتقدير:

لأستاذنا القدير: فضيلة الدكتور/ حسن عباس زكى ..... ٥

- تقديم من محققة الكتاب:

نظرة عامة على المخطوط ..... ١٣

- تمهيد لمؤلف المخطوط قطب زمانه وفقه عصره وأوانه

الشيخ/ إبراهيم البثنوى ..... ٢٥

- مقدمة الكتاب: فى بيان ثمره مطالعته وهى الوصول على مراتب

أصوله، والوقوف على أنواع مراتبه وفصوله ..... ٣٣

- الجزء الأول: ترييع البسملة والفاحة

وما فهم من سائر الآيات القرآنية ..... ٤١

- الجزء الثانى: أسرار الترييع فى مراتب التوحيد

وفى الحرم المكى.. وفى شمائل النبى ﷺ ..... ١٠٣

- الجزء الثالث: سر الترييع العلوم اللدنية فى كتب الصوفية..... ١٣٥

- الجزء الرابع: أسرار الترييع فى العبادات والآداب

والعبادات وهذا العالم الظاهر الدنيوى ..... ١٧٩

الخاتمة: فى مراتب العلم والعلماء الواقعة على أصول الترييع ..... ٢٢٨

- عرفان ووفاء من محققة الكتاب ..... ٢٥٢



